د. محمد عبد المنعم خفاجي

موقف النقاد من الشعر الجاهلي

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد ـ القاهرة

طبعة ثانية مزيدة ومنقحة

الطبعة الأولى صدرت عام ١٩٥٠

مقدمة الطبعة الثانية

كان السير ويلم جونز — مترجم المعلقات إلى الإنجليزية — يقول للشعراء : اقرأوا الشعر العربي الجاهلي في أروع إبداعاته في قصائد المعلقات ، فستجدون صورا جديدة لو أخذنا منها لنهضنا بالشعر في بلادنا نهضة مرموقة .

فهل لي أن أقول للشباب العربي : اقرأوا الشعر الجاهلي لتزدادوا قدرة على التجديد والابداع وفهم لغة القرآن الكريم ؟

إني أقدم إليهم « موقف النقاد من الشعر الجاهلي » في طبعته الجديدة المزيدة من أجل ذلك كله . . . وبالله التوفيق ؟

المـــؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى
الكلمة الأولى

هذه بحوث ودراسات أدبية جديدة ؛ حول الشعر الجاهلى ، وموقف النقاد منه ، ومذاهبهم فى نقده ، والتجديد والتقليد فيه ، والطبع والصنعة وآثارها الفنية فى نشأته ونهضته ، وموازنات أدبية جديدة ، تسير وفق مناهج البحث الأدبى فى النقد والموازنة .

ولا أجد ما أقوله إلا أن أقدم هذه الدراسات للقراء والباحثين . معتمدا على حسن تقديرهم ، وكرم شعورهم ، وعدالتهم الأدبية فى الفهم والتذوق والنقد .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ؟

محمد عبد المنعم خفاجى

الفصل الأول

آراء علماء الأدب فى الشعر الجاهلى

— ١ —

الشعر الجاهلىّ ، الذى اتخذه الشعراء فى مختلف العصور ، أصلا يحتذون حذوه ، وينهجون منهجه ، ويبنون عليه ، ويقلدونه فى مناحيه الفنية والأدبية تقليداً كبيراً ؛ هذا الشعرُ هو الذى نريد أن نتحدث عن موقف النقاد منه ، وآرائهم فيه ، ومذاهبهم حياله ، حديثا يجمع مع الإيجـــاز أطراف هذا الموضوع المتشعب الدقيق .

— ٢ —

وأولُ ما نذكره فى هذا البحثِ آراءُ الجاهليين أنفسهم فى الشعر الجاهلىّ ونقده ؛ وهذه الآراء كثيرة متعددة ؛ طائفة منها تتحدث عن منزلة بعض الشعراء الأدبية فى الشعر ، وطائفةٌ أخرى فيها نقد لبعض الشعراء .

مأنت تعلم أن كلّ قبيلة فى الجاهلية ، كانت ترفع منزلة شاعرها على الشعراء ، وتذهب إلى أنه إمامهم وأولهم فى دولة الشعر . فكان اليمنيون يذهبون إلى أن امْرَأ القيس هو إمام الشعراء ، وكان بنو أسد يذهبون إلى تقديم عبيد ، وتغلب تقدّمُ مهلهلاً ، وبكرٌ تقدم المرقّش الأكبر ، وإياد ترفع من شأن أبى دؤاد ، وهكذا . وكان أهل الحجاز والبادية يقدمون زهيراً والنابغة ، وأهل العالية لا يعدلون بالنابغة أحـــدا ، وأهل الحجاز لا يعدلون بزهير أحدا . وكان العباس بن عبد المطلب يقول عن امرئ

القيس : هو سابق الشعراء ؛ ورأى لبيدٌ أن أشعر الناس امرؤ القيس ثم طرفة ثم نفسه .

كما نعلم أنّ الجاهليين أنفسهم كانت لهم آراءٌ كثيرة فى نقد الشعراء : فكان النابغة تضرب له قبة حمراء فى سوق عكاظ ، فتأتيه الشعراء وتنشده أشعارها ؛ أتاه الأعشى يوما فأنشده ، ثم أتاه حسان فأنشده ، فقال : لولا أن أبا بصير — الأعشى — أنشدنى آنفا لقلت إنك أشعر الجنّ والأنس ؛ فقال حسان : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك وجدّك ، فقبضَ النابغة على يده وقال : يابن أخى أنت لا تحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذى هـــو مدركى وإن خلْت أن المنتأى عنك واسع

ثم أنشدت الخنساء :

قـــذًى بعينكَ أم بالعين عوّار أم أقفرتْ إذ خلتْ من أهلها الدار

فلما بلغتْ قولها :

وإن صخراً لتأتمّ الهـــداة به كأنه عـــلم فى رأســـه نار

قال : ما رأيت امرأة أشعرَ منك ؛ قالت : ولا رجلا

وحكومة أمّ جنـــدب الطائية بين امرىء القيس وعلقمة بن عبدة الشاعرين ، وتفضيلها علقمة على زوجها امرىء القيس مشهورة ؛ ولا داعى هنا لذكرها ، فلها حديث آخر إن شاء الله .

ومرّ امرؤ القيس بكعبٍ وأخويه : الغضبان والقعقاع ، فأنشدوه ؛ فقال: إنى لأعجب كيف لا تمتلىء عليكم ناراً جودة شعركم ، فسموا بنى النار .

وروى المرزبانى فى كتابه « الموشح » أن الزبرقان وعمرو بن الأهتم وعبدة بن الطبيب والمخبل السعدى ، تحاكموا إلى ربيعة بن حذار الأسدى الشاعر ، فى الشعر وأيهم أشعر ؛ فقال الزبرقان : أما أنت فشعرك كلحم أسخن ، لا هو أنضج فأكل ، ولا تركك نيئاً فينتفع به ؛ وأما أنت يا عمرو فإن شعرك كبرود حبر ، يتلألأ فيها البصر ، فكلما أعيد النظر ، نقص البصر ؛ وأما أنت يا مخبل فإن شعرك قصر عن شعرهم ، وارتفع عن شعر غيرهم ؛ وأما أنت يا عبدة فإن شعرك كزادة أحسكم خرزها فليس تقطر ولا تظمر .

كما روى أيضاً أن هؤلاء الشعراء اجتمعوا فى موضع فتناشدوا أشعارهم فقال لهم عبدة : والله لو أن قوما طاروا من جـــودة الشعر لطرتم ، فإما أن تخبروني عن أشعاركم وإما أن أخبركم ، قالوا : أخبرنا ، قال : فإنى أبدأ بنفسى ، أما شعرى فمثل سقاء شديد ، وغيره من الأسقية أوسع منه ، وأما أنت يا زبرقان ، فإنك مررت بجزور منحورة ، فأخـذت من اطيبها وأخبثها .

إلى غير ذلك من مواقف النقد والنقاد للشعر فى العصر الجاهلى والتى لا تخرج عن الاستحسان أو الاستهجان للشعر والشعراء .

— ٣ —

وجاء الإسلام ، فكان له ولرسوله الكريم ، موقفٌ جليلٌ من الشعر الجاهلى . أنكر بعضاً وعرف بعضا ، أنكر هذا الشعرَ الذى يناقض الأخلاق الكريمة ، والمثل العليا ، من الغزل الفاحش ، والمجون الخليع ، والهجاء الكاذب ، والمدح المغرق ، والبذاءة ؛ وعرف هـذا الشعر الذى يدعو إلى الفضائل والأخلاق والدين ، ويحث على الأدب والطموح وأداء الواجب

وحب الجماعة والتضحية فى سبيل الأمة والإنسانية . فكان هذا الموقف الخالد للاسلام وتوجيه العظيم ، توجيها جليلا لرسالة الشعر ، وتهذيباً نبيلا للشعراء ليسموا بفنهم الرفيع إلى مجال الطهر والخير ، وآفاق الحق والعدل والحرية والنور ؛ بل كان نقداً عميقاً لشعر ومنهج الشعراء فى الجاهلية ، وإنكاراً لاتخاذ الشعر وسيلة للتكسب والثراء .

وظهر أثر الاسلام والقرآن فى تهذيب أسلوب الشعر وألفاظه وفى البعد به عن الوحشية والغرابة ، وطبعه بطابع القوة والجلالة والروعة مع الحلاوة والبلاغة والسلاسة .

كما ظهر أثر القرآن والحياة الجديدة فى عقلية الشعراء وتفكيرهم ومعانيهم وأخيلتهم .

— ٤ —

وفى عصر دولة بنى أمية ، انتشرت العصبيات ، وكثرت الخلافات السياسية والدينية وتغير نهج حياة العرب وتفكيرهم ؛ فعادوا إلى مذاهب الجاهليين فى الشعر ، واتخذوه أداة للدفاع عن الرأى والعقيدة ، ولساناً لإذاعة محامدهم ومفاخرهم ؛ وشجعوا الرواة على رواية الشعر الجاهلى ، والشباب على درسه وتعلمه والتأدب بأدبه ، ووضعت فى هذا العصر أصول النحو العربى ، فأخذ العلماء ينقدون الشعر الجاهلى نقداً يتصل بالأعراب ، « وكان ابن أبى إسحاق وعيسى بن عمر يطعنان عليهم ، وكان عيسى يقول : أساء النابغة فى قوله :

[illegible]

فبت كأنى ساورتنى ضئيلةٌ من الرقش فى أنيابها السم ناقع

ويقول موضعه : ناقعاً[1] » .

— ٥ —

ومن أشهر رواة الشعر الجاهلى ونقاده فى القرن الثانى الهجرى .

أبو عمرو بن العلاء البصرىّ المتوفى عام أربعة وخمسين ومائة بعد الهجرة ؛ وحماد الرواية الكوفى [٧٥ — ١٥٦ هـ] ، وخلفٌ البصرى م ١٨٠ هـ ، والمفضل الضبى م ١٨٩ هـ ، وهو أقدم من جمع المختار من شعر العرب فى كتاب ، وأول من فسر الشعر بيتاً بيتاً ويقال إنه أول من جمع أشعار الجاهليين .

ومنهم ابن الكلبىّ م ٢٠٤ هـ ، وأبو زيد الأنصارىّ صاحب كتاب الجمهرة المتوفى عام خمسة عشر ومائتين ، وأبو عبيدة البصرى م ٢٠٩ هـ صاحبُ « النقائض » و « مجاز القرآن » ، والأصمعىّ البصرى م ٢١٦ هـ ؛ وقد أدرك بعضُ هؤلاء جزءاً من أوائل القرن الثالث . وكان لهؤلاء الرواة أثر كبير على الشعر الجاهلىّ ، فقد اهتموا بجمعه ورواياته وتدوينه ، ووضعوا الجاهليين فى طبقات ، ولم يتركوا شاعراً مشهوراً من الجاهليين إلا رأوا فيه رأيا .

وكان أبو عمرو بن العلاء من أشدّ الناس إكباراً للجاهليين ، وتعظيماً لشأنهم ، جلس إليه الأصمعى عشر سنين فما سمعه يحتج ببيت إسلامى ؛ ويُروى عنه : « لو أدرك الأخطل يوماً واحداً من الجاهلية ما قدمتُ عليه

(١) ٤١ الموشح ، ١١ و ١٢ طبقات الشعراء لابن سلام .

أحدا ، وكان لا يعد الشعر إلا للجاهليين ، وكان كما يقول ابن سلام فى « طبقات الشعراء » : أشد الناس تسليماً لهم .

وكان المأمون رغم ثقافته الواسعة يتعصب للأوائل من الشعراء ، ويقول : انقضى الشعر مع ملك بنى أمية .

وكان الأصمعى — مع تحامله على المحدثين وشعرهم — معتدلا فى تعصبه للشعر الجاهلى ، كان يحب الجيد منه ، وينقد الردىء ، عاب امرأ القيس فى قوله فى وصف الفرس :

وأركبُ فى الروع خيفانة كسا وجهها سعفٌ منشرُ

والخيفانة فى الأصل هى الجرادة ، وشبه بها الفرس فى الخفة ؛ قال الأصمعى : شبه شعر الناصية بسعف النخلة ، والشعر إذا غطى العين لم يمكن الفرس كريما ! كما عاب غير امرئ القيس من الشعراء ؛ وكان يقول : ختم الشعر بالرماح ، وهو شاعر أموى مشهور .

— ٦ —

وفى القرن الثالث الهجرى نجد النقاد فى موقفهم من الشعر الجاهلى طائفتين :

طائفة تعجب بالجاهليين وشعرهم إعجابا شديدا ، ولا ترى الشعر إلا لهم . ومن هؤلاء ابن الأعرابى م ٢٣١ هـ ، وكان يزرى بأشعار المحدثين ، ويفضل بشعر القدماء ؛ وكان يعيب شعر أبى نواس وأبى تمام ، ويقول : ختم الشعر بابن هرمة ؛ وقال فى بشار : والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير من الشعراء .

ومنهم أيضاً إسحاق الموصلي م ٢٤٠ هـ ، وكان في كل أحواله ينصر الأوائل ، وكان شديد العصبية لهم ، وكان لا يعتدُّ ببشار ؛ ولم يكن موقفه قاصراً على الشعر وحده ، بل كان كذلك في الغناء ؛ كان يتعصب للغناء القديم ، وينكر تغييره ويعظم الأقدام عليه . ومثلُ ذلك التعصب للقديم موجود في الآداب الأوربية ، فقد كان « هوراس » الشاعر الرومانيّ يرى أن شعراء اليونان هم النماذج التي يجب أن تدرس ليلا ونهاراً ، وأن الشعر ينبغي أن ينظم كما كانوا ينظمونه ، وكان في فرنسا خلال القرن السابع عشر مذهبٌ أدبيّ يرمي إلى إكبار البلاغة القديمة وتقليدها ، لأنها تمثل البيان خير تمثيل ، وكان يتزعمه جماعة من النقاد أشهرهم « بالو » ، حتى ألف شارل بيرو كتابه «الموازنة بين القدماء والمحدثين » ، يدعو فيه إلى التحرر من التقليد ، ويشيد بالمحدثين ، ويقول إنهم فاقوا القدماء في البلاغة .

وقد اعتذر الباقلاني عن هؤلاء النقاد العرب المحافظين ، بأنهم إنما كانوا يميلون إلى الذي يجمع الغريب والمعاني ؛ واعتذر ابن رشيق عنهم بحاجتهم إلى اللفظ والشاهد وقلة تفهم بما يأتي به المولدون ؛ ولكنّ الجرجانيّ في الوساطة يذكرُ أن ذلك أثر تعصب علماء اللغة ورواتها للشعر القديم ، وإنكارهم لفضل المحدثين وشعرهم[1] .

وطائفةٌ أخرى من النقاد في القرن الثالث ، حكّموا الذوقَ الأدبيّ والطبع وحدها في الشعر ؛ وحكموا بالفضل لمن يستحقه ، جاهليا كان أو إسلاميا أو محدثا ، لم يفضلوا الجاهليين لسبقهم في الزمن ، ولم يغضّوا من شأن المحدثين لتأخر عصرهم . ومن هؤلاء : الجاحظ م ٢٥٥ هـ وابن قتيبة م ٢٧٦ هـ ، والمبرّد م ٢٨٥ ، وابن المعتز م ٢٩٦ هـ .

---

(١) ١٩ و ٥٠ الوساطة ط بيروت .

يقول ابن قتيبة فى أول كتابه « الشعر والشعراء[١] » : ولا نظرت إلى المتقدم بعين الجلالة لتقدمه ، ولا المتأخر بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين ، وأعطيت كلا حقه ، ووقفت عليه لحظه ؛ فإنى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعرَ السخيفَ لتقدم قائله ، ويضعه موضع متخيره ، ويرذل الشعر الرصينَ ، ولا عيبَ عنده إلا أنه قيل فى زمانه ، ورأى قائله ؛ ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خصّ به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده ، وجعل كل قديم منهم حديثا فى عصره ، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل يعدّون محدثين ، وكان أبو عمرو يقول : لقد نبغ هذا المحدث حتى هممت بروايته .

وقال المبرد : ليس لقدم العهد يفضل القائل ، ولا لحِدْثان عهد يُهتضمُ المصيب ، ولكن يعطى كلُّ ما يستحقه[٢] .

وأنكر ابن المعتزّ عصبية هؤلاء النقاد للشعر القديم ، وذمّهم لشعر المحدثين ، وقال : إنها عيبٌ قبيح ، ومن فعل ذلك فإنما غرض من نفسه ، وجعل هذا ناشئاً عن جهل بنقد الشعر وتمييزه[٣] .

وكان الجاحظ هو السابقَ إلى إقامة نقد الشعر على أسس فنية خالصة ، وحاربَ هذا التعصب للمقوتّ لقدمه ، وآراؤه فى ذلك فى كتابيه : « الحيوان والبيان والتبيين » كثيرةٌ ؛ فى الحيوان ينكر الجاحظ على المتعصبين

(١) ٧ و ٨ الشعر والشعراء .
(٢) ٩٨/٢ الكامل للمبرد .
(٣) ١٣ و ١٤ « رسائل ابن المعتز » تأليف محمد عبد المنعم خفاجى .

للقديم فعلهم ، ويقول : ولو كان لهم بصر لعرفوا موضع الجيد ممن كان وفى أى زمان كان »[1] .

وفى القرن الثالث أيضاً كثرت مؤلفات النقاد فى الشعر والشعراء الجاهليين ، وكتاب ابن سلام « طبقات الشعراء » مشهور ، وهو أبرز عمل أدبى منظم فى النقد ، وقد قسم الجاهليين عشر طبقات ، وأضاف إليهم شعراء القرى وشعراء المدن العربية ، ووضع فى الطبقة الأولى امرأ القيس وزهيراً والأعشى والنابغة ، ولم يسبقه إلى هذا التقسيم الفنى لشعراء الجاهليين وطبقاتهم الأدبية إلا أبو عبيدة الذى قسم الجاهليين ثلاث طبقات ، ووضع فى الأولى امرأ القيس والنابغة وزهيراً ، وفى الثانية الأعشى وطرفة ولبيداً ؛ ويذكر ابن سلام فى « طبقات الشعراء » الإسلاميين أيضاً ويسميهم طبقات عشرا ، ولا يذكر أحداً من المحدثين . بعكس ابن قتيبة ، الذى ألف كتابه : الشعر والشعراء ، وذكر فيه الكثير من المحدثين الذين عاشوا قبيل منتصف القرن الثالث الهجرى ؛ وهذا يدلنا على أن ابن قتيبة كان أكثر تقديراً للشعر الجيد وحده ، بصرف النظر عن قائله وعصره . وذلك بذكرنا بجمع المفضل وأبى زيد الأنصارى للشعر العربى ، فقد جمع المفضل فى مفضلياته مختارات للشعراء الجاهليين ، وللقليل جداً من المخضرمين ؛ أما أبو زيد الأنصارى فى كتابه « الجمهرة » مختارات للجاهليين والمخضرمين والإسلاميين ، فكأنه لا يقف إعجابه على الشعر الجاهلى وحده ، بخلاف المفضل .

وألف ابن المعتز أيضاً كتاباً فى « طبقات الشعراء المحدثين » ، طبع فى

---

(١) ٣ : ٤٠ الحيوان .

أورفاوني معبر ، ويسير فيه على نهج ابن قتيبة من حيث ذكر الشاعر وحياته ومذهبه الفني في شعره ، ونماذج من مختارات شعره ، ولكن الكتاب وقف على المحدثين وحدهم ، من بشار إلى عمر ابن المنير ، وهو أوفى كتاب في دراسة طبقة بشار ، وطبقة أبي نواس ، وطبقة أبي تمام والبحتري . وهذا يدلنا على إعجاب ابن المنير بالمحدثين ، وتقديره لبلاغتهم وشغله بهم عن الجاهليين والإسلاميين إلى حدّ ما .

— ٧ —

أما القرن الرابع فقد كان أحفل قرن بالنقد والنقاد ؛ وظهرت فيه أوّل كتب النقد الأدبي مثل : نقد الشعر لقدامة م ٣٣٧ هـ ، ونقد النثر المنسوب خطأ إليه أيضاً ؛ ومثل أخبار أبي تمام للصولي م ٣٣٦ هـ ، والموازنة للآمدي م ٣٧١ هـ ، والوساطة للجرجاني م ٣٩٢ هـ وإعجاز القرآن للباقلاني م ٤٠٣ هـ .

كما ظهر في القرن الخامس : ابن رشيق م ٤٦٣ هـ صاحب « العمدة » وابن سنان الخفاجي م ٤٦٦ هـ صاحب سر الفصاحة ، وعبد القاهر الجرجاني صاحب الأسرار والدلائل م ٤٧١ هـ .

وكان النقاد في هذين القرنين يسيرون على نهج الجاحظ ، فلم يتعصبوا للشعر الجاهلي لتقدم زمنه ، أو يميلوا على المحدثين لتأخر عصرهم ؛ بل حكّموا الذوق وحده في كل شيء ، حتى لقد وقفوا معددين لأخطاء الجاهليين ، كما فعل الآمدي في الموازنة ، والجرجاني في الوساطة ، وابن رشيق في العمدة ، وسواهم ؛ قال الآمدي في كتابه « الموازنة » : وما رأينا أحداً من شعراء الجاهلية سلم من الطعن ، ولا من أحدٍ الرواة عليه الغلط والعيب . وقال صاحب « الوساطة » في أول كتابه : « ودونك هذه الدواوين الجاهلية

والإسلامية ، فانظره هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت أو أبيات ، لا يمكن تعاقب القدح فيه ، إما فى لفظه ونظمه ، أو ترتيبه وتقسيمه ، أو معناه ، أو إعرابه ؛ ولولا أن أهل الجاهلية جدوا بالتقدم ، واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة والأعلام والحجة ، لوجدت كثيراً من أشعارهم معيبة مسترذلة ، ومردودة منفية ، لكن هذا الظن الجميل ، والاعتقاد الحسن ، ستر عليهم ، ونفى القالة عنهم ، فذهبت الخواطر فى الذب عنهم كل مذهب ، وقامت فى الاحتجاج لهم كل مقام[1] ؛ ولو تصفحت ما تكلفه النحويون لهم من الاحتجاج ، وتبينت ما رأموه فى ذلك من المرامى البعيدة ، ولرتكبوا لأجله من المراكب الصعبة ، التى يشهد القلب أن المحرك لها ، والباعث عليها ، شدة إعظام المتقدم ، والكلف بنصرة ما سبق إليه الاعتقاد ، وألفته النفس ، لأيقنت بما ذكرت .

كما أزرى الآمدى والجرجانى بموقف بعض النقاد المتعصبين على المحدثين[2] : كالأصمعى الذى أنشده إسحاق الموصلى :

هل إلى نظرة إليك سبيل ... فيروّى الصدى ويشفى الغليل
إن ما قلّ منك يكثر عندى ... وكثير ممن تحب القليل

فقال : لمن تنشدنى ؟ قال : لبعض الأعراب ، قال : هذا والله هو الديباج الخسروانى ، قال إسحاق : إنهما لابنتهما ، فقال الأصمعى : لا جرم والله ، إن أثر الصنعة والتكلف بيّن عليهما ؛ وكابن الأعرف الذى أنشده بعض

(١) ص ٣ و ٤ الوساطة .
(٢) ١٠ الموازنة طبع صبيح ، و ٥٠ الوساطة طبع بيروت .

الناس شعراً وهو لا يعرف قائله فأعجب به إعجاباً شديداً وكتبه ، فلما علم أنه لأبي نواس أنكره .

ونقد الباقلاني في إعجاز القرآن معلقة امرئ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

نقداً طويلا ، وهو أول نقد أدبي مفصل لقصيدة كاملة من الشعر العربي .

— ٨ —

وفي العصور الوسطى جمدت الملكات ، وعقمت الأذواق ، وتضاءلت القطر الأدبية السليمة وتعصب العلماء والأدباء للشعر القديم لقدمه ، فأحاطوا الشعر الجاهلي بهالة من التقديس والجلالة ، لا يرون أحداً أحسن مثل إحسان الجاهليين أو أجاد مثل إجادتهم ، بل رأوهم معصومين من الخطأ والعيب والنقد ، واستمر هذا المذهب سائداً حتى العصر الحديث .

— ٩ —

وفي العصر الحديث تفاوتت ثقافات الأدباء والنقاد ، فوقف أولو الثقافات العربية الخالصة مواقف الإعجاب والتقدير للشعر الجاهلي . وهب جماعة من أولي الثقافات الحديثة يطعنون على الشعر الجاهلي ، ويرمونه حيناً بالضعف والتفكك ، وحيناً بأنه كله أو جله منتحل مختلق .

عاب النقاد الشعر الجاهلي بأنه لا يصلح أن يكون نموذجاً يقتدى به في النظم ، لأنه في الغالب أبيات مبعثرة ، تجمعها قافية واحدة ، يخرج فيها الشاعر

من المعنى ثم يعود إليه ، ثم يخرج منه على غير وتيرة معروفة ، ولا ترتيب مقبول ، وأن فيه غير التفكك ، وضعف الصياغة ، كثيراً من العيوب العروضية ، والتكرير الممجوج ، والاقتسار المكروه ، والتجوز المعيب ، الذى يؤخذ من روايته أن الشعر لم يكن فنا يستقل به صناعه الخبيرون به ، وإنما كان ضربا من الكلام يقوله كل قائل ، ويروى الحكم منه وغير الحكم على السواء.»(١).

فترى العقاد يأخذ على الشعر الجاهلى مأخذ أهمها :

أولا — ضعف وحـــدة القصيدة . وفى مناقشة هذه الفكرة نكتفى بهاتين الكلمتين :

قال نولدكة المستشرق الهولندى المشهور : « فى أحوال كثيرة يحتفظ الشاعر الجاهلى بوحدة الفكرة فى قصيدته ، بأن يجعل كل قسم من أقسامها خاصا بوصف مناظر وحوادث من حياة الشاعر نفسه ، أو الحياة العامة التى يحياها البدو فى الصحراء » .

وقال جميل صدقى الزهاوى الشاعر المجدد المشهور :

هناك شىء يستهجنه الذين تشبعت أذهانهم بالأدب الغربى ، هو أن تكون القصيدة الواحدة خادمة بفكرة واحدة ؛ أو وداداً لشىء واحد ، من غير خروج إلى غير الموضوع ، ولو كان فى فصل منعزل عن الأول ؛ وهذا ليس من الشعر فى أصله ، بل هو تابعٌ للأذواق ، ولطريقة الشاعر فى شعره ؛ ولا يتنوع الشاعر البرز فى العربية الموضوع فى كل قصيدة ، فكثيراً ما يحصر

(١) ١٠٣ مراجعات للعقاد .

شعره فى القصيدة الواحدة فى موضوع واحد ؛ وإذا نوع الموضوعَ فهو يخرج إلى الثانى بمناسبة وبعد فصله عن الأول ، مريداً بذلك أن تكون قصيدته كالروضة الغناء ، محتوية على مختلف الأزهار ، وهذا أقرب إلى الطبيعة ، وليس فيه ما يُؤخذ عليه غير كونه يخالف ما يفعله شعراء العرب ، ولكل أمة سياقٌ ونزعة ليست لأختها ؛ وأعتقد أن الكتاب الذين يزْرون بشعر شعرائنا على الأطلاق ، لو أتيح لهم أن يكونوا شعراء ، لما خرجوا كثيراً عن النهج الذى يمشى عليه المبرزون من هؤلاء ؛ والسبب حسب ما قدمته من اختلاف ألوان الشعور عندنا عن ألوانه عند الغربيين من جهة ، وقيد القافية وإعرابها عندنا وفقدانه عندهم من جهة أخرى . وقد هم كثير من الشعراء المتضلعين من العلوم العصرية ، بتقليد الغرب فى شعره ، فلم يكن ما أتوْا به غربيا ولا شرقيا ، ولم يوفقوا إلا فى ألوان من الشعور ، هى مشتركة بين الأمم جميعها ؛ ومهما تمرد الشاعر المكبور على الأساليب والتصورات فى لغته ، فهو لا يستطيعُ أن يطفر مرة واحدة إلى تصورات وأساليب تخالفُ ما ألفه شعبه ، فيقطع الوشائج القوية التى تربط الحاضر بالماضى .

ويعيب العقاد الشعر الجاهلى ثانيا بأنه لم يكن فنا يستقل به صناعه الظهيرون به ؛ وذلك لا يسير مع الحقيقة الأدبية أو الواقع المأثور ، فشعراء المعلقات ومذاهبهم الفنية فى الشعر معروفة ؛ ويقول الدكتور طه حسين فى كتابه « الأدب الجاهلى » : أما معشر فكان لهم فى الجاهلية شعراء ، يتخذون الشعر فنا ، يمثلون به نهضة فنية ، فى هذا الأقليم من جزيرة العرب .

ويعيبه ثالثا بهلهلة صياغته ، وما فيه من عيوب عروضية ، وتكرار

سلاج ، وتعوز معيب . وفى هذا ولا ريب مقالة لا يكاد يسلم بها دارس للأدب الجاهلى شعره ونثره .

وكانت ثورة النقد الكبرى بين الدكتور طه حسين وبعض النقاد والباحثين ، حول الشعر الجاهلى ، ذات صدى بعيد فى دراساته وفى منهج النقد الأدبى . وآراء الدكتور طه حسين فى الشعر الجاهلى ، ترتكز على أساس واحد ، هو انتحال الشعر الجاهلى ، ويؤكد الدكتور هذا الانتحال بأدلة كثيرة ، منها أن المأثور منه لا يمثل حياة الجاهليين الدينية أو العقلية ، ولا يصور اتصال العرب السياسى بغيرهم من الأمم المجاورة لهم ؛ فوق أنه لا يمثل اللغة الجاهلية نفسها لاختلاف اللغة الحميرية عن اللغة العدنانية جد الاختلاف ، فالمأثور من شعر الشعراء القحطانيين مروىٌّ باللغة العدنانية الفصحى ، مع أنهم لم يكونوا يتكلمون بها ، ولم يتخذوها لغة أدبية لهم قبل الاسلام ، مما يدل على انتحال هذا الشعر على القحطانيين ؛ فوق أن الشعر الجاهلى لا يصور اختلاف اللهجات العدنانية المتعددة ، التى لا شك فى اختلافها ؛ ويشرح الدكتور أثر البواعث السياسية والدينية فى الانتحال ، وعمل القصاص والرواة ؛ ويبقى على ذلك كله رفضه الشعر المنسوب إلى شعراء اليمن ، لأن اليمنيين لغة تخالف لغة قريش ، ولأن هجرة اليمنيين إلى الشمال مشكوك فيها أولا ، وليس كلُّ الشعراء هاجروا من اليمن ثانيا . وشعراء المدينة ليسوا عنده يمنيين بل مضريين . ويرى أنه ليس لليمن فى الجاهلية شعراء . أما ربيعة من عدنان ، وكانت تسكن فى الشمال ، فيرى الدكتور أن شعرها دون شعر المضريين ، لأنها لم تكن تتكلم لغة قريش ، ويتردد فى قبول الكثير منه ؛ وأما مضر فكان لها شعراء ، يتخذون الشعر فنا ؛ وقد درس شعراء مضر دراسة نقد وتحليل ، كما درس غيرهم ، على ضوء نظريته فى انتحال

الشعر الجاهلى ؛ ووضع مقاييس لتميز المنحول منه ؛ وجعل الشعر أصلا فى مضر ، ثم انتقل منها إلى ربيعة فاليمن فالموالى ؛ وبذلك يعكس نظرية القدماء فى انتقال الجاهلى بين القبائل .

وهذه الآراء كانت موضع جدل صاخب ، ومناقشات كثيرة ، وكتب ألفت حولها . ولا داعى لذكر شىء عنها ، فهى معروفة واضحة . وفى كتابى « الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى » تفصيل لكل ذلك .

ولا شك أن إزراء بعض النقاد المحدثين بالشعر الجاهلى ، ودعوتهم إلى تركه والانصراف عنه ، جور فى الحكومة الأدبية ، وتعصب ظالم على قديمنا الموروث .

الشعر الجاهلي بين التجديد والتقليد

— ١ —

لم يعرض النقاد لبحث الشعر الجاهلي ومظاهر التجديد والتقليد فيه ، ولا يسلم القدماء منهم خاصة بحديث التقليد في الشعر الجاهلي ، لأنه كله عندهم جديد بكر ؛ ومظاهر التشابه الفني بين القصائد الجاهلية لا يصح أن يعرض لها أو يتحدث عنها حتى لا تسلم بالتقليد في شعر كله جديد وكله روعة وجمال ، وإذا أخذ الشاعر الجاهلي من شاعر قبله بيتاً أو أبياتاً فلنقل إن ذلك من توارد الخواطر واتفاق الشاعرية ، أو لنذهب إلى ملاهب إليه ابن رشيق في عمدته : من أن ذلك « استلحاق » ، والاستلحاق عنده أخذ الشاعر بيتاً من شاعر سبقه على جهة المثل وكان أبو عمرو بن العلاء وغيره لا يرون ذلك عيبا وقد يصنع المحدثون مثل هذا . وقد يسلم المنصفون من النقاد القدامى بأن الشاعر الجاهلي يحتذي - كما يحتذي غيره ولكنهم لا يسلمون بأنه ينسج قصيدته على منهج قصيدة أخرى لشاعر سبقه ؛ ولم يبحث أحد منهم مذاهب الشعراء الفنية ، وأثر كل طبقة في شعر الطبقة التي تليها . ونحن نعلم أن ابن سلام قسم الشعراء الجاهليين عشر طبقات ، وأضاف إليهم شعراء الرأي وشعراء المدن العربية ، وجعل في الطبقة الأولى امرأ القيس وزهيراً والأعشى والنابغة ؛ وأن أبا عبيدة قسم الجاهليين ثلاث طبقات ، ووضع في الأولى امرأ القيس وزهيراً والنابغة ؛ وفي الثانية الأعشى وطرفة ولبيداً ، ووافقه على ذلك صاحب الجمهرة أبو زيد الأنصاري ؛ ولكنك تعلم أن شعراء كل طبقة لم يجمعهم عصر واحد ، مما يؤدي إلى أن يكون في كل طبقة شعراء تأثر بهم إخوانهم في الطبقة نفسها ؛ ومع ذلك كله فإن النقاد لم يبحثوا

الصلات القنية بين الشعراء الجاهليين ، ولا بين طبقاتهم المختلفة ؛ بل إن قصيدتين مثل قصيدة علقمة الفحل م ٥٦١ والتي مطلعها : « ذهبت من الهجران في غير مذهب » وقصيدة امرئ القيس :

خليلي مرا بي على أم جندب لنقضي حاجات الفؤاد المعذب

رغم تشابههما في شتى مظاهر الشاعرية والخيال ، ورغم أن علقمة متأثر بامرئ القيس في قصيدته ونأسج على منوالها ، لا يذكر النقاد شيئاً عن مظاهر التشابه الفني بين القصيدتين . وهناك قصيدتان أخريان هما : معلقة عمرو بن كلثوم : « ألا هبي بصحنك فاصبحينا » ، ومجهرة أمية بن أبي الصلت : « عرفت الدار قد اقوت سنينا » التي نسج فيها امية على منوال قصيدة عمرو واحتذاه فيها ؛ ومع ذلك فإن النقاد لا يتحدثون عن شيء ، ولا يهمون بحديث هذا التقليد الفني الغريب ؛ وهناك الكثير من ابيات الشعر تجدها نفسها مسكورة في شعر كثير من الشعراء ، وقد لا نستطيع ان نشك في روايتها ، ومع ذلك فالرأي السائد عندهم ان ذلك أمر لا تفاق الشاعرية .

وعلماء الأدب يعرفون ان الشعر كان في اليمن ثم انتقل إلى ربيعة ثم تحول في قيس من مضر ثم صار إلى تميم ، ولا يخالف في ذلك إلا الدكتور طه حسين الذي رأى ان الشعر كان في مضر ثم انتقل إلى ربيعة فاليمن فالموالي ؛ ومع ذلك فعلماء الأدب القدماء لم يبالوا ببحث آثار هذه الوراثات الشعرية المختلفة .

ويقولون إنه كان لكل شاعر في الجاهلية راوية يروي له ويأخذ عنه نهجه في الشعر ويتتلمذ عليه ويتأثر بشعره ، فكان امرؤ القيس راوية

أبى دؤاد الأيادى ، وطرفة راوية المتلمس ، والأعشى راوية المسيب بن علس ، وزهير راوية أوس وطفيل الغنوى معاً ، والحطيئة راوية زهير ، كما كان الفرزدق وهدبة راويتان للحطيئة ، وأبو حية النميرى راوية للفرزدق ، وجميل راوية لهدبة ، وكثير راوية لجميل ، فى العصر الإسلامى . ومع ذلك كله فلا تزال هذه الأستاذية فى الشعر فى حاجة إلى بحث كثير للكشف عن مظاهرها وآثارها الفنية ، ولا نرى لذلك أثراً يذكر فى بحوث النقاد القدماء .

ومدرسة « المصمتين » من الشعراء الجاهليين كزهير وتلاميذه وكالنابغة وأوس وطفيل الغنوى والنمر بن تولب ، لا تزال فى حاجة ملحة إلى الكشف الدقيق عن خصائص مذهبهم الفنى ونشأته وأثره فى الشعر العربى ، وإن كان الدكتور طه حسين قد ألم بجوانب من هذا البحث فى « الأدب الجاهلى » .

وإذا كان النقاد القدماء قد قسموا الشعراء الجاهليين إلى طبقات ، وأغفلوا أثر الوراثات الشعرية بين هذه الطبقات ، ولم يذكروا شيئاً عن مظاهر الأستاذية والتلمذة بين هؤلاء الشعراء ، فخليق بنا أن نقسمهم من جديد تقسيماً أدبياً إلى طبقات متفاوتة ، بحيث نستطيع أن نحكم على عمل كل طبقة ومدى تأثرها بمن قبلها وأثرها فى الطبقة التى تليها ، ليستطيع الباحث أن يفهم الشعر الجاهلى فهماً جيداً على أسس جديدة ، كما يفهم كل ما يتصل بطبقة بشار وطبقة أبى نواس وطبقة أبى تمام والبحترى مثلاً من الشعراء المحدثين ، وكما يفهم مذهب البارودى ومذهب شوقى ومذهب غيرهما فى الشعر الحديث .

* * *

— ٢ —

وبعد فنحن لا نجد بدا من أن نقسم الشعراء الجاهليين إلى هذه الطبقات الأدبية :

١ — طبقة مهلهل م ٥٣١ ؛ ومن شعرائها : الشنفرى م ٥١٠ ، وتأبط شرا م ٥٣٠ ، وأبو دؤاد الأيادى م ٥٤٠ ، وسواهم . وزعيم هذه الطبقة مهلهل ، وهو أول من نقل الشعر العربى من طور الأراجيز والمقطعات الصغيرة إلى مرحلة القصيدة ، فهو أول من قصد القصائد وقال فيها الغزل ، وأول من طهل نسج الشعر وخاصة الرثاء أى رقته وعذوبته ، وشعره من أعلى طبقات شعر المتقدمين كما يقول ابن نباته ، هو من شعراء نجد ، وله رثاء كثير فى أخيه كليب زعيم ربيعة والعرب بعد مقتله عام ٤٩٤ م ، وقصيدته القافية : « جارت بنو بكر ولم يعدلوا » إحدى القصائد السبع « المنتقيات » ، وكانت العرب تسميها « الداهية » .

ولا شك أن هذه الطبقة هى التى مهدت سبيل التجديد فى الشعر أمام امرىء القيس ، كما أنها جددت ولا شك فيه بنقله إلى هذه النهضة الفنية الكبيرة .

٢ — والطبقة الثانية طبقة امرىء القيس م ٥٦٠ ؛ ومن شعرائها : علقمة م ٥٦١ ، والمرقش الأكبر م ٥٥٢ وهو أول من أطال المدح ، والمرقش الأصغر م ٥٦٠ ، وعبيد م ٥٥٥ ، والأعشى الأكبر م ٥٧٠ ، والمتلمس م ٥٧٠ ، والمثقب العبدى م ٥٨٧ ، والحارث بن حلزة م ٥٨٠ ، وطرفة م ٥٦٥ .

وزعيم هذه الطبقة هو ولا شك امرؤ القيس ، وقد تلمذ فى الشعر على

أبى دؤاد الإيادى وعلى خاله المهلهل ، وهو أول من وقف واستوقف وبكى واستبكى ووصف النساء بالظباء والمها والبيض وشبه الخيل بالعقبان والعصى ، وقرب مآخذ الكلام وقيد أوابده ، وأجاد الاستعارة والتشبيه والكناية ورفق الأسلوب وجعله عذبا فى جزالة وجمال ، وأول من شرع للناس مذهب هذا الغزل القصصى الخلو ، وهذا الطرد الجميل القوى ، ولا تزال كلماته « قيد الأوابد » ، « ونؤوم الضحى » وسواها ذات رنين بعيد ؛ والذى فى شعر امرىء القيس — كما يقول الآمدى فى الموازنة — من رقيق المعانى وبديع الوصف ولطيف التشبيه وبديع الحكمة فوق ما استعار سائر الشعراء فى الجاهلية والاسلام ؛ وهذه الطبقة على أى حال ورثت الشعر عن الطبقة التى سبقتها وأثرت فى الطبقة التى تليها .

٣ — والطبقة الثالثة طبقة النابغة م ٦٠٤ ، وزهير م ٦٣٠ ، والأعشى م ٦٢٩ وهو أول من تكسب بشعره ؛ وعنترة م ٦١٥ ، وحاتم م ٦٠٥ ، وعمرو ابن كلثوم م ٦٠٠ ؛ ولبيد م ٦٦٢ ؛ وأمية بن أبى الصلت م ٦٢٤ .

وزعيم هذه الطبقة النابغة ولا شك ، فهو أستاذهم وحكمهم فى سوق عكاظ ، والذى تأثر به الكثير من الشعراء كحسان وسواه .

وزهير من أعلام هذه الطبقة وهو زعيم طبقة « المصمين » وأستاذ الحطيئة وسواه من الشعراء .

٤ — والطبقة الأخيرة هى طبقة حسان وقيس بن الخطيم وسواهما من الشعراء الذين عاشوا فى الجاهلية وشاهدوا زمن النبوة ، وهم الذين يسميهم النقاد « المخضرمين » .

ولا بقى لنا بعد ذلك من أن نقول : إنه كان لكل طبقة من هذه

الطبقات مذهب فني خاص ، وكانت هـذه المذاهب أثراً لوراثات كثيرة وعوامل سياسية واجتماعية أخرى ، كما يبدو فيها أثر التقليد والتجديد جميعاً

ولا شك أن قيام الأسواق الأدبية ، وحكومة النقاد بين الشعراء ، وتقرب الشعراء بشعرهم إلى الملوك والأمراء وأغنائه وسيلة الثراء ، وأداة للغناء ولساناً لإذاعة مفاخر القبيلة ومحامدها وهجاء خصومها ؛ وهذه النهضة الفنية الكبيرة التي بلغها الشعر في نجد حيث الهجرات العربية والخروج المستمرة ؛ كل هذه الأمور وسواها كانت تدفع بالشعر الجاهلي دائماً إلى الامام ، وتدعو إلى تجويده وتهذيبه والتجديد فيه .

وقد تتاح لنا فرصة أخرى للحديث عن هذه المذاهب الفنية المختلفة وأثرها في الشعر الجاهلي خاصة والعربي عامة .

الطبع والصنعة فى الشعر الجاهلى

— ١ —

بين القدامى والمحدثين من النقاد خلاف كبير فى تحديد معنى الطبع والصنعة : يرى الأولون أن التهذيب الفنى للأسلوب هو الصنعة ، فالمصنوع هو المثقف المهذب من الشعر ؛ أما الطبع فهو خلو الأثر الأدبى من آثار التجويد والتنقيح ، ويرى الآخرون أن شعور الشاعر بنفسه حد بين الطبع والصنعة ، فإذا كان الشعر صادقاً مؤثراً فهو من شعر الطبع ، وإلا فهو مصنوع متكلف ، والأديب المطبوع عندهم من كان غير مقيد فى معناه أو فى لفظه ، وكان صاحب موهبة فى نفسه وعقله لا فى لسانه فقط .

ورأى المحدثين المعاصرين من النقاد اصطلاح جديد فى معنى الطبع والصنعة . وأرى أن الأولى فى تحديد معناها أن نجمع بين الرأيين اللذين يتلاقيان ولا يتناقضان ، فالطبع هو الملكة القادرة فى نفس الشاعر والأديب التى توحى إليه بفنه وأدبه وحى الفطرة والطبيعة واستجابة لعواطفه ومشاعره دون تكلف وتعب فى الصوغ أو استجداء لغرف الأسلوب والصناعة ؛ أما الصنعة فهى إحساس الشاعر أو الأديب بآثار الجمال الفنى وتوفى الأداء وزخرف الأسلوب ، وحبه لهذا الجمال والتوفى والزخرف ؛ وعنايته الفنى بها ، وقصده إليها ، وتعمده لها فى شعره ، حتى ليطلب الفن للفن ، ويستلهم الجمال للجمال ، ويستوحى الشعر من ملكاته الفنية التى استبدت بها هذه النزعة ، مما يطغى على نفس الشاعر وشعوره وعواطفه وإحساسه بالحياة .

- ٢ -

ويجمع جمهور النقاد فى القديم والحديث على عيب الصنعة والتصنيع ، وسموا المصنعين من الشعراء فى العصر الجاهلى : عبيد الشعر ؛ وعابوا شعرهم ، قال الأصمعى الأديب الراوية الناقد م ٢١٦ هـ : زهير والنابغة وأشباههما عبيد الشعر ، وقال : الحطيئة — وهو شاعر إسلامى مشهور — عبد لشعره ، قال الجاحظ إمام الأدباء والنقاد م ٢٥٥ هـ : عاب الأصمعى شعره حين وجده كله متخيراً مستوفى لأركان الصنعة والتكلف والقيام عليه ، وكان الأصمعى يستحسن التفاوت فى الشاعرية لأنه مظهر الطبع وخلو الشعر من آثار الصنعة ، وعلى هذا الرأى يسير بعض المحدثين ممن يرى أن التفاوت فى شعر الشاعر دليل على عبقريته وطبعه ، ويعده النقاد الآية الدامغة على شاعرية المتنبى وعظيم مكانته فى الشعر .

- ٣ -

ولقد كان الشعر العربى أثراً للفطرة والبديهة ، واستجابة لشاعر الشاعر وشعوره بالحياة فى الجاهلية وكان أكثره ارتجالا أو ما يشبه الارتجال ، ينظمه الشاعر على البديهة ، ويأتى به عفو الخاطر ، ترد إلى ذهنه المعانى وتتتابع ، فتنثال عليه الألفاظ وتأتيه الأساليب شعراً وشعوراً وسحراً وجمالا ؛ كل ذلك فى سهولة وتدفق وفطرة دون تثقيف وتهذيب وتنقيح ، حتى قال الجاحظ : وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام ، وليس هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة وإنما هو أن يعرف وجهه إلى الكلام وإلى جملة المذهب والعمود الذى إليه يقصد ، فتأتيه المعانى أرسالا ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا .

وفى العصر الجاهلى بدأ لون جديد من ألوان التهذيب والصنعة فى الشعر على يد أوس وزهير وتلاميذهما .

كان أوس بن حجر من أصحاب التنقيح ، وكان يسمى محبر الحسن شعره ، وتتلمذ عليه زهير ، وكان طفيل الغنوى كذلك ، وكان النمر بن تولب من أصحاب التثقيف والتهذيب ، وكان أبو عمرو بن العلاء الناقد الراوية م ١٥٤ هـ يسميه الكيس لحذقه بالشعر ، والنقاد يعدون النابغة الذبيانى أيضاً من المصنعين ، ويقول أنصار الصنعة إن امرأ القيس أيضاً كان يثقف شعره ويعيد النظر فيه فيسقط رديئه ويثبت جيده وكان امرؤ القيس راوية أبى دؤاد الأيادى ، وكان يلوذ به فى شعره ويتوكأ على معانيه كثيراً ، ولكن شعر امرئ القيس ينفى عنه الصنعة والتصنيع ، وفرق بين أن يجيء عفواً فى شعره بعض آثار الصناعة الفنية وأن يكون مصنعاً ينحت فنه كما ينحت الفنانون تماثيلهم .

وأبرز رجال هذه المدرسة على أى حال هو زهير ، قال بعض النقاد : عمل سبع قصائد فى سبع سنين كان يسميها الحوليات . وكان زهير يصنع الحوليات على وجه التثقيف والتهذيب ، يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها — خوفاً من النقد والنقاد — بعد أن يكون قد فرغ من عملها فى ساعة أو ليلة ؛ وقيل كان ينظم القصيدة فى شهر ثم لا يزال يهذبها حتى يمر عليها الحول ؛ وقيل : بل كان يعمل القصيدة فى ستة أشهر ويهذبها فى ستة أشهر ؛ وقال الجاحظ : كان زهير يسمى كبار قصائده الحوليات . وقد سار تلامذة زهير على نهج أستاذهم كالحطيئة الشاعر الإسلامى وسواه .

وكان هذا المذهب الفنى فى الشعر الجاهلى — مذهب الصنعة والتصنيع — أثراً للتنافس بين الشعراء وقيام الأسواق الأدبية كعكاظ وسواه بالحكومة

الأدبية بينهم وكان النابغة تقام له قبة فى عكاظ ويتحاكم إليه الشعراء ؛ كما كان أثراً للتكسب بالشعر واتخاذه وسيلة للثراء وعكوف الشعراء المصنعين على تجويد مدائحهم ليستخرجوا بها سنى الهدايا والألطاف من ممدوحيهم ؛ وكان ارتباط الشعر الجاهلى بالغناء ورغبة بعض الشعراء فى التجويد والتجديد فى المعانى من أسباب نشأة هذا المذهب الفنى أيضاً .

وإذا نظرنا إلى الشعر الجاهلى نفسه وجـــدنا الفرق كبيراً بين آثار أصحاب الطبع والبديهة كطرفة وامرئ القيس ومهلهل وآثار الشعراء المصنعين .

والمعلقات السبع وهى من أشهر القصائد الجاهلية فى البلاغة الأدبية وأحفلها بمواهب الشاعرية والفن والخيال وخصب الملكات ، كلها من آثار الطبع الأدبى الموهوب ، وليس فيها شىء من مظاهر الصناعة الفنية : فمعلقة امرئ القيس أروع صورة لحياة الشاعر وترفه ولهوه ، ومعلقة عمرو بن كلثوم ملحمة تاريخية تصور التاريخ القومى والحربى والسياسى لقبيلة الشاعر « تغلب » ، ومعلقة عنترة حديث عذب جميل بين الحب والحرب والبطولة ، ومعلقة زهير دعوة للسلام ووصف لأهوال الحرب وتسوئها على الناس والبشرية ، ويكاد يكون زهير فيها أشبه شىء بالمطبوع ، ويكاد أسلوبه فيها يبعد عن الصنعة وآثارها الفنية .

وشتان بين معلقة زهير هذه وبين قصيدة النابغة :

كليني لهم يا أميمة ناصـــب وليل أقاسيه بطئ الكواكب

أو قصيدة أخرى لزهير نفسه هى :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعرى أفراس الصبا ورواحله

أبعد ما بين الأثر المطبوع والأثر المصنوع .

دفاع عن الشعر الجاهلي

- ١ -

كثرت في العصر الحديث مقالات الأدباء والنقاد في الزراية بالشعر الجاهلي ، وتنقصه ، ورميه بالقدم والجمود ، والدعوة إلى تركه والانصراف عنه ؛ وعيبه حينا بخلوه من الشعر التمثيلي والقصصي ، وحينا بتفككه وعدم وجود وحدة للقصيدة في آثاره الفنية ، واضطراب معانيه وصدم تمثيلها إلا للبيئة البدوية الجاهلية وحدها ، وحينا آخر برموته من ناحية الصياغة واللفظ والنظم بأكثر مما يعاب به شعر قديم أو حديث .

وقد حمل لواء هذه الدعوات أدباء كان نصيبهم من دراسة الأدب العربي أو الأدب الجاهلي وحده محدوداً ضئيلا ؛ وآخرون قرأوا الأدب الجاهلي ثم يطربوا له ولم يرتاحوا إليه ، ولم يفهموه حق الفهم ؛ وفريق آخر تدفعه إلى ذلك الشعوبية الحديثة التي نرى مظهرها بادياً في تنقص كل ما هو عربي أو قديم والتعصب لكل ما هو غربي أو حديث .

ولا شك أن في أكثر آرائهم جوراً في الحكومة الأدبية وإسرافا ومغالاة كثيرين ؛ فلكل شعر جيد — كما يقول الدكتور طه حسين في الأدب الجاهلي — ناحيتان مختلفتان ، فهو من ناحية مظهر من مظاهر الجمال الفني المطلق ، وهو من هذه الناحية موجه إلى الناس جميعا مؤثر فيهم ، ولكن بشرط أن يعدوا لفهمه وتذوقه ؛ وهو من ناحية أخرى مرآة يمثل في قوة أو ضعف شخصية الشاعر وبيئته وعصره ، وهو من هذه الناحية متصل

بزمانه ومكانه ؛ فازدراء الشعر الجاهلي مثلا ليس أقل إسفافاً في الخطل من ازدراء الشعر الأجنبي » .

إننا لا ننكر أنه تحول دون فهم الشعر الجاهلي وتذوقه صعوبات كثيرة ، أهمها : صعوبة لغته وأسلوبه ، وبعد الأمد بصور البيئة العربية القديمة وألوان الحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي ، ومشاهد الطبيعة والوجود إبان ذلك العهد البعيد . ولكن ذلك لا يمكن أولا يصح أن يصرفنا عن هذا الجمال الفني الرائع الذي نجده في الشعر الجاهلي ، فضلا عما فيه من تخليد لآثار الحياة العربية الأولى وأحداثها ومظاهر التفكير فيها . ومع ذلك كله فإن الشعر الجاهلي أقوى دعامة للعربية وحفظها وخلودها بعد القرآن الكريم .

فهو من حيث إنه صورة من صور الفن والخيال والجمال ، ومن حيث إنه أساس الثقافة الأدبية والعربية ؛ لا يمكن لذلك ولغيره أيضاً الاستغناء عن هذا الشعر القديم ونبذه وراءنا ظهريا .

في الشعر الجاهلي جمال ، وهو أيضاً لا يخلو من هنات ؛ وفيه روعة ، وإن كنا لا نبرئه من العيب ، ومع ذلك فإننا نستطيع أن ندرس المذهب الفني الذي يمثله الشعر الجاهلي ، وأن نتعرف خصائصه ومقاييسه لنرى إلى أي حد يصح أن نجاري هؤلاء وهؤلاء من النقاد والمتعصبين في الشعر الجاهلي القديم ، وإلى أي مدى يصح أن نسير في الدفاع عنه ؛ فذلك أقرب إلى العدالة الأدبية في البحث والمناقشة . .

— ٢ —

وأول ما نعرفه من خصائص الشعر الجاهلي : البساطة والصدق

والوضوح وعدم التكلف أو الإغراق في الأداء . وهذا شيء يسلمه النقاد للشعر الجاهلي تسليما ، ويجزمون به ؛ وهو ما يدفعنا إلى الإعجاب به واللذة الفنية حين نقرؤه ونستمع إليه ، ولا يمكن أن يكون في ذلك ما يدعو إلى التهوين من شأنه ، فالجمال أو أحد أسبابه لا يدعـــو إلى الاعجاب والحب والمتعة . إن هذه الميزة الواضحة في الشعر الجاهلي هي نفس ما يدعو إليه نقادنا المحدثون ودعاة التجديد في الأدب العربي الحديث ؛ « بعد أن أبعد المحدثون الشعر عن البساطة والاخلاص ، وهما الصفتان اللتان كانتا حسناته » كما يقول الدكتور ضيف[1] .

ويمتاز الشعر الجاهلي أيضاً بالزهد في المحســـنات وألوان التزيين الفني ؛ وهذه سمة غالبة عليه . وأدباؤنا المحدثون لا يزالون يدعون إلى هذا المذهب . ولقد كان الشعر المصري الحديث في أول نهضته مثقلا بقيود الزخرف البديعي الذي ورثه عن العصر التركي والعثماني وأواخر العصر العباسي إلى أن ثار النقاد على ذلك النهج ودعوا إلى الخلاص من آثاره ، حتى برىء الشعر الحديث من عاهته وسار طليقا إلى غاياته . وقد ظهرت في الآداب الأوربية أيضاً صبغة الزخرف الفني في العصور الوسطى ؛ كما حدث في الأدب الانجليزي بعد عصر اليصابات ، وفي فرنسا بعد عهد لويس الرابع عشر ؛ أفتقول بعد ذلك إن الشعر الجاهلي يعاب لهذه الحسنة الظاهرة ؛ ويزدرى لذلك الفضل الظاهر ؟ .

ومن خصائص الشعر الجـــاهلي متانة الأسلوب وقوته وجزالته وأسره ، وللبيئة البدوية أثر بعيد في ذلك ؛ وقد سار المحدثون في العصر

(١) ١٨٢ مقدمة لدراسة بلاغة العرب

العباسى على هذا النهج حينا ؛ وحينا آخر أرقوا فى العذوبة والسلاسة والسهولة التى ورثوا بعضها عن العصر الأموى ومدرسة المدنيين التى شاعت فيه . وقد دافع بعض النقاد عن الجزالة والقوة ، كما دافع آخرون عن العذوبة والرقة ، ووقف آخرون يحددون مواقف هذه ومواقف تلك كابن الأثير فى المثل السائر وسواه ، ولكن العصور الأخيرة كانت تعد العذوبة ضعفا فى الشاعر وميلا منه إلى العامية ، وبهذه النظرة كانوا يحكمون على شعر البهاء زهير الشاعر المصرى المشهور .. ولكننا نقول للناشئين : ربوا ذوقكم الأدبى ، وارهفوا مشاعركم الفنية ، وتأثروا فى حياتكم ومذاهبكم الأدبية بالحياة والحضارة التى تعيشون فيها ، وستدركون بأنفسكم الحقيقة الأدبية فى هذه المسألة الفنية ، ولا شك أن عذوبة الأسلوب وسلاسته يجب أن تبرز فى إنتاج الشاعر وفنه ، لأثر الحياة والحضارة فى نفسه ؛ ومع ذلك فهذه العذوبة والرقة يجب ألا تنقلبا ضعفا وعامية ، وأن توشى بألوان من الجزالة فى مواقف خاصة تستدعيها حياة الشاعر ونفسيته قبل كل شىء ؛ كما يجب ألا تنقلب الجزالة خوشية وإغراب وتعقيداً عند الشعراء الذين يحافظون على الجزالة . وأحسب أن شعراءنا المعاصرين الذين يتكلفون الألفاظ اللغوية الكثيرة البعيدة فى تصانيفهم إنما يفعلون ذلك تقليدا لحسب ، وفى مطلع حياتهم الفنية التى يكثر فيها الناشئون من التقليد ؛ ونحن على أى حال لا يمكن أن نعيب الشعر الجاهلى لجزالته ، فقد رأيت موقف النقاد من الجزالة وإعجاب الكثير منهم بها ودفاعهم عنها ؛ فوق أنها أثر من آثار البيئة فى الشعر الجاهلى .

ومن خصائص الشعر الجاهلى أيضاً القصد إلى المعنى فى إيجـــاز ويسر وقلة إطناب ، ولا شك أن العصور الأدبية التى تلت العصر الجاهلى وتعددت فيها ألوان الثقافات ومظاهر الحضارات قد أبعدت الشاعر عن هذا الاتجاه ،

ودفعته إلى الأطناب وشتى ألوان التصوير ؛ ووقف النقاد حيال ذلك طوائف : طائفة تدعو إلى الإيجاز وتراه البلاغة والبيان ، وطائفة تشيد بالأطناب وترى فيه جمال الفصاحة وروعة التصوير ، وأخرى تحدد للأطناب مواضع وللإيجاز مواضع كقدامة فى نقد النثر وابن سنان فى سر الفصاحة . ونحن لا نقول للشاعر المعاصر آثر الإيجاز أو اعمد إلى الأطناب ؛ وإنما نقول له : إن أساس الجودة الفنية أن تؤدى معانيك فى رفق ويسر وقلة فضول . وفى الأدب الغربية الآن مذاهب تدعو إلى القصد فى التصوير البيانى والاكتفاء بشرح الأفكار الجديدة وترك ما عداها .

ولا شك أن أهم طـــابع للشعر الجاهلى بعد الذى ذكرناه سابقا هو هذا الطابع البدوى الواضح الذى يفجؤك فى شتى القصائد الجاهلية ، مما هو أثر للبيئة والحياة . ونحن ندعو كما يدعو كل منصف إلى ترك هذا الاتجاه فى الأداء والتصوير فقد أصبح لا يلائم منهج الحياة فى القرن العشرين كما أن إبراز هذا الطابع البدوى فى شعر الشاعر المعاصر يكون تقليدا سخيفا لا مبرر له ، ويحول دون ظهور نزعاته الفنية ومواهبه الخاصة المستقلة فى شعره ، وهذا ضرر بعيد .

ومن آثار هذا الطابع فى الشعر الجاهلى :

(ا) شدة تمثيله للبيئة البدوية ، وقد سار بعض الشعراء المحدثين على هـذا النهج ، فملأوا شعرهم بصور الحياة البدوية ، من وصف الناقة والجمل والظليم والمدن والديار القديمة ، مما سخر به بعض النقاد والشعراء ودعوا إلى التحرر منه ، فقال مطيع بن إياس :

لأحسن من بيد تحار بها القطا ومن جبلى طى ووصفكما سلما

تلاحظ عيني عاشقين كلاهما له مقلة في وجهه صاحبه ترعى

وهذه دعوة جديرة بالعناية ، خليقة بالإشارة . وقد دعا المجددون في الأدب الحديث وأكثروا من الدعوة إلى أن يكون الشعر صورة لحياة الشاعر ونفسيته وبيئته وعصره ، وإلى أن يخلو من آثار التقليد القديم في أغراض الشعر وفنونه وموضوعاته ، وهذا اتجاه جليل قد سار بالشعر العربي الحديث خطوات واسعة نحو التجديد والجمال والروعة ، فالشاعر هو الذي يكون له مقدرة في معناه أو في لفظه ، ويكون صاحب هيئة فنية في نفسه وعقله ، ويتأثر ببيئته ويؤثر فيها ، ويمثلها في جدها ولهوها وفرحها وحزنها وسلامها وحربها وألمها وأملها أتم تمثيل .

(ب) ومن آثار هذا الطابع البدوي في الشعر الجاهلي أيضاً بدء أغلب القصائد الجاهلية بذكر الأطلال ، ووصف الديار . وهذا مذهب أغلبية الجاهليين ، لا يشذ عن ذلك إلا القليل ، كعمرو بن كلثوم في معلقته التي بدأها بذكر الراح ، وكتأبط شرا في قصيدته اللامية المشهورة :

إن بالشعب الذي دون سلع لقتيلا دمه ما يطل

والتي يسميها بعض المستشرقين نشيد الانتقام . ويدافع ابن قتيبة في أوائل كتابه « الشعر والشعراء » عن نهج الجاهليين دفاعا حارا ، فقد صور نهج العرب في وحدة القصيدة وما كانوا يبدأونها به من ذكر الديار والآثار ووصلهم ذلك بالنسيب والشكوى وألم الوجد وفرط الصبابة ثم ذكر الرحلة إلى الممدوح تخلصا إلى مدحه واستجلابا لرضائه وسني ألطافه ، وقال : الشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام[1] . وقد سار الكثير

(١) ١٤ و ١٥ من الشعر والشعراء .

من المخضرمين والاسلاميين على هذا النهج أيضاً ، فأكثروا من بدء قصائدهم بوصف الأطلال والديار ؛ كما أكثر الكثير منهم من بدئها بالغزل ولم يشذ عن ذلك إلا أبو نواس الذى دعا إلى بدء القصيدة بذكر الراح ، قال :

وصف الطلول بلاغة القدم ... فاجعل صفاتك لابنة الكرم

وتبعه ابن المعز فقال :

أف من وصف منزل ... ببكاء فحومل

غير الريح رسمه ... بجنوب وشمأل

وكان أبو نواس شعوبيا فى مذهبه ، أليس هو الذى يقول :

تبكى على طلل الماضين من أسد ... ثكلت أمك قل لى من بنو أسد ؟

ومن تميم ومن قيس ومن يمن ؟ ... ليس الأعاريب عند الله من أحد

ولكن ابن المعز كان ناقدا يبحث عن الصلة بين الأدب والحياة ويحاول أن يلائم بينهما وينادى بتحضر الشعر وترك البداوة فيه وتمثيله لحياة الشاعر وآرائه فى الحياة . . وقد ثار ابن رشيق على منهج الجاهليين فى القصيد ، ورأى — مع من رأوا — أنه لا معنى لذكر الحضرى الديار[1] وأنه ليس بالمحدث من الحاجة إلى وصف الأبل والقفار لرغبة الناس فى حضره عن تلك الصفات وعلمهم بأن الشاعر إنما يتكلفها ، وأن الأولى وصف الخمر والقيان[2] . وقد تكفلت الحياة نفسها بصرف الشعراء المعاصرين عن هذا النهج الفنى فى القصيدة ، فليس منهم والحمد لله من يبدأ قصيدته بذكر الإبل والقفار والديار

(١) ١/١٩٩ العمدة .
(٢) ١/١٧٩ المرجع نفسه .

والآثار ، بل إن ذلك لو فعله أحد الآن لرمى بالجنون ؛ ولكن ليس معنى ذلك ألا يصف الشاعر المعاصر معاهد أحبابه وأحبابه فى شعره أبداً ، أو ألا يبدأ قصيدة من قصائده بذكرها ، ولكنا نقول إن العيب هو التزام بدء القصيدة بذكر الأطلال واذا التزم شاعر ذلك وبدأ قصائده بذكر معاهد حياته وأحبابه ولم يتنقل عن هذا النهج ، لم نحاسبه على ذلك ، إلا إذا قيد هذا من حريته الفنية أو حبس موهبه وملكاته الأدبية ، فإنه يجب بحق ألا يقيد الشاعر نفسه بأى قيد لا تلزمه به نفسه ومواهبه وملكاته الفنية وحدها ، وإلا كان مقلداً لا نصيب له من الشعور بالحياة والاحساس بها والتمتع النفسى العميق بمشاهدها وصورها وألوانها .

(ج) وهناك فى الشعر الجاهلى ظاهرة أخرى نشأت عن الطابع البدوى الموروث ، وهى كثرة الغريب والوحشى ، ولا شك أن ذلك مذهب العرب القدامى وجدهم لأثر البيئة البدوية الجافة الخشنة فى عقولهم ونفوسهم . وما أروع ما يقول صفى الدين الحلى الشاعر المتوفى عام ٧٥٠ هـ .

إنما الطيزبون والدردبيس ... والطخا والنقاخ والعلطبيس

لغة تنفر السماع منها ... حين تروى وتشمئز النفوس

وقبيح أن يذكر الناقر الوحـ ... ـشى منها ويترك المأنوس

أين قولى : هذا كثيب قديم ... ومقالى : عقنقل تسدموس

إنما هذه القلوب حديد ... ولذيذ الألفاظ مغناطيس

وليس هناك الآن والحمد لله أحد يدعو إلى استعمال هذه الألفاظ ، أو يرتاح قلبه حين سماعها فهى ألفاظ تاريخية يجب أن نفهمها فحسب .

— ٣ —

بقيت بعد ذلك صور البيان الأدبى نفسه : أنصوغ أسلوبنا على الصور القديمة التى يمثلها الشعر الجاهلى ، أم نستمد صوره من ألوان حياتنا وبيئتنا وثقافتنا . ولنضرب مثالا واحداً لذلك : لا شك أن الجمل كان عماد الحياة فى العصر الجاهلى ، وفى أساليب البيان صور كثيرة استمدت منه ، فقد قالت العرب : ألقى الحبل على الغارب ، واقتعد غارب المجد وسنامه ، ووطئه بمنسمه وضربه بأنيابه ، وألقى عليه جرانه ، وناء وأناخ عليه بكلكله ، وقالوا لا ناقة لى فيها ولا جمل ، وأخذ بزمام الأمر .

وقد حاول النقاد والبلاغيون فى العصور القديمة أن يدعوا إلى توليد صور البيان وتنميتها من مشاهد الحياة والبيئة التى تتجدد دائماً .

فهل نأخذ صور البيان القديمة فى أساليبنا لنرضى العرب القدامى ، أو نولد فيها لنرضى عبد القاهر والقاضى الجرجانى وسواهما ؟

لست أدعو إلى الأول ولا أحبه ، وإن كنت لا أرى فى الرأى الثانى ضيراً أو ضررا ؛ وأوثر أن يضيف الأديب إلى الصور التى يولدها صورا جديدة يستمدها خياله من حياتنا وبيئتنا وألوان الحضارة التى نعيش فيها ، والاختراعات التى نجد دائماً بيننا والتى نبعد الثقة عنها ونحاول ألا نستمد منها صورنا الأدبية .

* * *

وبعد فهذه هى سمات الشعر الجاهلى ، والصلة الفنية بينه وبين حياتنا الفنية الحاضرة ، وما يصح أن نقلده فيه وما لا يصح .

ونحن لا ندعو إلى تقليد البلاغة القديمـــة ، ولا إلى تقليد الشعراء الجاهليين تقليدا بعيدا عن مناهج الفن والشخصية واللوهبة الأدبية ، فإن ذلك التقليد يبعدنا عن أداء رسالتنا الأدبية على أكمل وجوهها ، وإنما نقول : افهموا هذه البلاغة فهما جيدا ، وربوا ذوقكم الأدبي بالأدمان على قراءتها وقراءة ما سواها من البلاغات ، لتصلوا إلى مرحلة الشخصية الذاتية في الأدب والشعر ، ولتشكل مواهبكم وتستقل بالإبداع والتجديد في الفن والشعر والأدب والحياة ...

موازنة أدبيـــة

بين قصيدتين من الشعر الجاهلى

أما الأولى فهى معلقة : عمرو بن كلثوم التغلبى الشـاعر الجاهلى المشهور (٥٠٠ ـ ٦٠٠ م) ، ومطلعها :

ألا هبى بصحنك فاصبحينا ... ولا تبقى خمور الأندرينا

وأما الثانية فهى مجهرة أمية بن أبى الصلت :

عرفت الدار قد أقوت سنينا ... لزينب إذ تحـل بهـا قطينا

والقصيدة الأولى ملحمة تاريخية تصور المجد القديم لتغلب قبيلة الشاعر ، وملاحمها الحربية التى انتصرت فيها على أعدائها ، وهى فريدة فى نوعها فهى جـديرة حقا أن تسمى ملحمة ، لأنها تاريخ مفصل لقبيلة عمرو ومفاخرها وأيامها ، ومنها يوم خزاز الذى انتصر فيه كليب قائد النزاريين على اليمنيين وفيها تهديد لأعداء تغلب ، وتنبيه للملك عمرو بن هند ملك الحيرة (٥٦٢ ـ ٥٧٩ م) ، حتى لا يطيع بهم الوشاة أو يتحيز لبكر شقيقة تغلب ومزاحمتها فى المجد والنفوذ والسلطان . . وقد بدأها الشاعر بوصف الخمر ثم انتقل إلى موضوع القصيدة وهو الفخر ، وختمها بقوله :

لنـا الدنيا ومن أمسى عليها ... ونبطش حين نبطش قادرينا

ملأنا البـر حتى ضاق عنـا ... ومـاء البحر نملؤه سفينا

إذا بلـغ الرضيع لنـا فطاما ... تخر له الجبابر ساجـدينا

وأنت تعلم أن عمرو بن كلثوم ارتجل بعض معلقته أمام الملك عمرو بن هند وهو الجزء الذى هدد فيه أعداء تغلب وحذر الملك من الاستماع للوشاة والميل معهم على قومه ، ومنه :

أبا هند فلا تعجل علينا ... وانظرنا نخبرك اليقينا

بأنا نورد الرايات بيضا ... ونصدرهن حمرا قد روينا

ثم أكمل القصيدة كلها ، وأنشدها فى سوق عكاظ ، وقد عدّتها تغلب سجل مجدها وفخارها فاعتزت بها اعتزازا كبيرا ويقال إنها أضافت إليها الكثير حتى بلغت أبياتها نحو ألف بيت وقال بعض شعراء بكر فيها :

ألهى بنى تغلب عن كل مكرمة ... قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

يفاخرون بها منذ كان أولهم ... يا للرجال لفخر غير مسؤوم

وأما مجهرة أمية فقد تحدث فيها الشاعر عن مجد قبيلته « ثقيف » ، وهى من أمهات القبائل العربية وصاحبة النفوذ والسلطان فى الطائف بين قبائلها ، ولم يبدأها بوصف الخمر كما فعل عمرو بن كلثوم بل بدأها كما يبدأ الشعراء قصائدهم ، فذكر أطلال محبوبته « زينب » وعفاها ولعب الرياح المعصرات بها ، ثم انتقل إلى موضوع القصيدة وهو الفخر بمجد القبيلة وشرف الآباء فقال فيما قال :

ورثنا المجد عن كبرى نزار ... فأورثنا مآثرنا البنينا

وكنا حيثما علت معد ... أقمنا حيث ساروا هاربينا

وتخبرك القبائل من معد ... إذا عدوا سمانية أولينا

بأنا النـــازلون بكل ثغر وأنا الضـــاربون إذا لقينا

إلى آخر ما ذكره من الفخر بأسرته وقومه ومجـــدهم ومنايتهم وما أرصدوه لريب الدهر من الخيل والرماح والسيوف والشهب المحربين والشبان الأقوياء ، ووراثتهم المجد عن كبرى تزار إلى غير ذلك من مظاهر الكبرياء والعزة والسيادة التى أضافها أمية إلى قومه ... ولا ندرى شيئا عن التاريخ الأدبى للقصيدة ، وإن كنا نرجح أن الشاعر نظمها فى مفاخرة من هـــذه المفاخرات التى تحدث كثيرا بين القبائل العربية وخاصة فى العصر الجاهلى :

تتفق القصيدتان فى الموضـــوع والوزن والقافية ، وفى خيالهما الذى الغالب على القصيدتين ؛ وتتفقان كذلك فى هذه المبالغة الواضحة فى الفخر ، مما لا يؤثر نظيرها من المبالغات فى معانى الشعر الجاهلى إلا قليلا .

كما تتشابهان فى هذه السهولة الفنية الغالبة على القصيدتين وخاصة عندما ينتقل الشاعران إلى الغرض الأصلى من قصيدتيهما وهو الفخر ، وليست هذه السهولة الفنية بغريبة على الشاعرين ، فارتجال عمرو لقصيدته وموقف الفخر فيها مما يقتضى السهولة ، ونشأة أمية فى الطائف ذات الخصب والزروع والثمار والهـــواء المعتدل والجو الجميل وتنقله فى رحلاته التجارية بين الشام واليمن وثقافته العامة وقراءته فى الكتب السماوية ، كل ذلك رقق من طبعه وهذب من أسلوبه وأكسبه مواهب فنية ممتازة وصقل من ملكاته الأدبية فظهر أثر ذلك فى شعره وضوحا وسهولة وانسجاما .

وتتفق القصيدتان فوق ذلك فى كثير من معانى الشعر وأساليب الفخر ؛ ومن مظاهر ذلك الاتفاق حكمة المعانى والأساليب والأبيات :

(٩) قال عمرو :

ورثنا المجد قد علمت معد ... نطاعن دونه حتى يبينا

أى حتى يظهر الشرف لنا . وقال :

ورثنا مجد علقمة بن سيف .

وقال وهو يتحدث عن الخيول الكريمة التى تعوض قومه عنها للمارك :

ورثناهن عن آباء صدق ... ونورثها إذا متنا بنينا

وقال أمية :

ورثنا المجد عن كبرى نزار ... فأورثنا مآثرنا البنينا

ونستطيع أن نوازن بين البيتين الأخيرين إذا علمنا أن وراثة المجد فى بيت أمية أبلغ فى الفخر من وراثة الخيل فى بيت عمرو ، وإن كانت وراثة الخيول من أسباب المجد لأن الخيل وركوبها واقتناءها عتاداً دليل الشجاعة والبطولة وحب النضال . وقول أمية « مآثرنا مآثرنا البنينا » أبلغ من قول عمرو : « ونورثها إذا متنا بنينا » لأن أمية ذكر أن أبناءهم ورثوا مجد الآباء فى حياتهم ، أما عمرو فذكر أن الأبناء سيرثون هذه الخيول بعد وفاة آبائهم ، فلم يسند إليهم الشجاعة والبطولة وحماية الذمار فى حياة الآباء ، وهذا قصور فى الفخر . وقال أمية « البنينا » وقال عمرو : « بنينا » فشهرهم أمية وأبان عن وضوحهم ، وقال عمرو : « آباء صدق » فدل على شجاعتهم ووضوح نسبهم وطهارة أعراقهم ، وهى دلالة لا نظير لها فى قول أمية .

وقد أخذ أمية لفظ « قد علمت معد » من قول عمرو فقال :

وكنا حيثما علمت معـــد أقمنا حيث ساروا هاربينا

(ب) ويقول عمرو : « وأنا المهلكون إذا ابتلينا » أى نهلك أعداءنا ونبيدهم إذا اختبرنا بقتال الأعداء ، فيقول أمية : « وأنا الضاربون إذا لقينا » فتجد قول عمرو أبلغ ، حيث نص على إهلاك الأعداء ، ولم يذكر أمية إلا الضرب ، وإن كان يكنى به عن الشجاعة والإقدام والعزيمة والجد فى طلب الأعداء ، ولكنه على أى حال لم يصور نتيجة الحرب كما صورها عمرو بن كلثوم بقوله « المهلكون » .

(ج) ويقول عمرو : « وأنا المانعون لما أردنا » ، ويروى : الحاكمون بما أردنا ، فيقول أمية . « وأنا المانعون إذا أردنا » .

(د) ويقول عمرو .

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدرا وطينا

ويروى من مجهرة أمية .

وأنا الشاربون الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا وطينا

(هـ) ويقول عمرو .

بفتيان يرون القتل مجداً وشيب فى الحروب مجربينا

وقد روى من المجهرة .

وفتياناً يرون القتل مجداً وشيباً فى الحروب مجربينا

ومعلقة عمرو تمتاز بأنها الأصل الذى نســـج على منواله أمية ، كما

تمتاز بتنوع أغراضها ، وبطولها ، وأنها مفخمة تاريخية نادرة ، وهي إحدى المعلقات السبع وهي قصائد تحتل الذروة في الشعر الجاهلي وقد انتخبت من بين القصائد الجاهلية لشهرتها وخصائصها الفنية والأدبية الممتازة . وقال ابن قتيبة في قصيدة عمرو : وهي من جيد شعر العرب :

أما قصيدة أمية فلا تبلغ إلا نحو الثلاثين بيتاً أو تزيد قليلا فهي نحو ثلث قصيدة عمرو ، وقد وضعها النقاد مع المجمهرات .. والمجمهرات سبع قصائد من الشعر الجاهلي رواها أبو زيد الأنصاري في « الجمهرة » ، وأصحابها هم :

(أ) عبيد بن الأبرص ، ومجمهرته مشهورة وهي في الحكمة ومطلعها :

عيناك دمعهما سروب ... كأن شأنيهما شعيب

والسروب : الكثيرة الجريان . والشعيب : المزادة .. وتشتهر باضطراب وزنها ؛ ومنها :

والمرء ما عاش في تكذيب ... طول الحياة له تعذيب

من يسأل الناس يحرموه ... وسائل الله لا يخيب

(ب) عدي بن زيد ، ومجمهرته في الحكمة ومطلعها :

أتعرف رسم الدار من أم معبد ... نعم ورماك الشوق قبل التجلد

وهي شبيهة بمعلقة طرفة في وزنها وقافيتها وحكمتها ، وتتفق معها في بعض الأبيات مثل :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدى

(ج) المزرد بن ضرار ، ومجمهرته في الحكمة أيضاً ومطلعها : « تأبد من أطلال عمرة منزل » ...

(د) أمية بن أبى الصلت ، ومجهرته موضع الحديث ، وهى فى الفخر .

(ه) بشر بن أبى خازم ، ومجهرته فى الفخر بقومه وبطولتهم وعزهم ، ومطلعها :

لمن الديار غشيتها بالأتلم ؟ تعدو معالمها كلون الأرقم

(و) خداش بن زهير ، ومجهرته فى الفخر بقومه أيضاً ، ومطلعها : « أمن رسم أطلال بتوضح كالسطر » .

(ز) عنترة ، وقصيدته :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟

يعدها بعض النقاد من المعلقات والآخرون من المجمهرات .

وهذه القصائد السبع لم توضع فى مرتبة واحدة لا تفاق موضوعاتها ؛ إذ أن موضوعاتها مختلفة : فثلاث منها فى الحكمة وأربع فى الفخر . كما أنها لم ترتب بالنظر إلى الناحية التاريخية ، إذ أن أصحابها لم يعيشوا فى عصر واحد :

فمدى توفى نحو عام ٥٨٠ م ، وعبيد عام ٥٥٥ ، وأمية عام ٦٢٤ م ، وعنترة عام ٦١٥ م الخ ؛ فهى إذاً إنما وضعت فى منزلة أدبية واحدة تلى منزلة المعلقات الأدبية بالنظر إلى خصائصها الفنية الأدبية وحدها ، ويكاد الناقد الأدبى يقف أمام تشابه شاعرية هؤلاء الشعراء وخصائص الشاعرية فى هذه القصائد ؛ فهذه القصائد السبع يشبه بعضها بعضاً فى النواحى الفنية والفطرة الأدبية وفى خصائص الشعر والشاعرية ، وتكاد تكون متساوية فى حكم النقد الأدبى ، وهى على أى حال تلى المعلقات فى الجودة والمكانة الأدبية .

وتستخلص من ذلك كله أن النقاد لا حظوا الفروق الفنية الكبيرة بين القصيدتين فوضعوا الأولى فى صف المعلقات والثانية مع المجمهرات ، وفى الحق أن شاعرية عمرو فى معلقته أقوى وأبين من شاعرية أمية فى مجهرته : سواء فى الأسلوب أو المعانى أو الأغراض أو مدى الجودة الفنية ومواهب الشعر .

ويرى الدكتور طه حسين فى كتابه « الأدب الجاهلى » أنه لا يمكن أن تكون معلقة عمرو أو أكثرها جاهلية . وقد شك الرواة فى بعضها ورجح أن تكون المعلقة منتحلة ، ونحن لا نذهب هذا المذهب ، فالمعلقة تمثل حياة جاهلية قبيلة تغلب ، وتمثل شاعراً جاهلياً ، وتصور حياة عمرو الفنية والاجتماعية نفسها ، وهى شبيهة بالآثار الباقية من شعر عمرو ، وإن كان هذا لا ينفى أن تكون قد زيدت عليها بعض الأبيات ؛ وقصيدة أمية نفسها تؤيد أن قصيدة عمرو جاهلية وأنها لم تنتحل بعد الإسلام على أيدى الرواة .

ونلاحظ على مجهرة أمية خلوها من الصبغة الدينية التى اشتهر بها أمية ، ويبدو أنه نظمها فى شبابه قبل أن يقف نفسه وحياته وشعره على الجانب الدينى وحسده . وتقليده فيها لعمرو بن كلثوم يؤكد ذلك وأنها نظمت قبل أن تكتمل شخصية أمية الفنية . وقد يكون السبب الذى جعل أمية ينظم مجهرته محتذياً فيها عمراً هو إعجابه بمعلقته أو روايته لشعره أو تشابه موقف الفخر الذى وقفه الشاعران ، ونحن لا نستطيع أن نقول إن الرواة أدخلوا على مجهرة أمية بعض الأبيات من معلقة عمرو لتشابه الوزن والقافية والخيال والموضوع فى القصيدتين ؛ ذلك لأن مجهرة أمية ليست طويلة ولأنه إذا حذف منها الأبيات المتشابهة لا يبقى منها فى مقام الفخر إلا القليل من أبياتها ، ولا يعقل أن ينظم الشاعر قصيدة فى الفخر معانيها فيه محدودة أو شبه محدودة .

ورواية أبي زيد للقصيدتين في كتابه دليل على إثباته بصحة القصيدتين أولا ، وبأن المعاني المتشابهة فيهما شيجة لا تفاق الشاعرية أو للتقليد الأدبي ثانياً ؛ وأبو زيد م ٢١٥ هـ راوية ثقة .

وبعد فنستطيع أن نقول : إن أمية قلد في مجهرته عمرو بن كلثوم في معلقته تقليداً فنياً واضحاً ، فأخذ من المعلقة كثيراً من معاني الفخر وأساليبه ، وصاغ قصيدته على موسيقى وقافية معلقة عمرو .

وهذا التقليد الفني ليس بعجيب بين الشعراء في شتى العصور وليس بغريب في الشعر الجاهلي نفسه ، فأنت ترى أن الشاعر الجاهلي كثيراً ما يتفق مع شاعر قبله أو معاصر له في أسلوبه أو معنى أو بيت ، وأنت تعرف قول امرئ القيس :

وقوفا بها صحبي علي مطيهم ... يقولون لا تهلك أسى وتجمل

وقول طرفة

وقوفا بها صحبي علي مطيهم ... يقولون لا تهلك أسى وتجلد

وتعرف غير ذلك من مظاهر التشابه الفني أو التقليد الأدبي بين الشعراء الجاهليين .

الحكومة الأدبية

بين قصيدتي علقمة وامرىء القيس

أولا :

١ — علقمة بن عبدة التميمي شاعر جاهلي مشهورٌ ، عاصر امرأ القيس زعيم الشعراء الجاهليين ، وتوفي عام ٥٦١ م ، بعد وفاة امرىء القيس بسنة واحدة .

ومطلع قصيدة علقمة :

خليلي مرّا بي على أم جندب ... لنقضي حاجات الفؤاد المعذب

٢ — والموازنات الأدبية بين القصيدتين بمعناها الصحيح معدومة في القديم والحديث .

قالوا : إن علقمة ضاف امرأ القيس وكان صديقا له ، فتذاكرا الفريض ، وادعاه كل واحد منهما على صاحبه ، ولجأ في ذلك ؛ فقالت لهما « أم جندب » زوج امرىء القيس : قولا شعرا تصفان فيه الخيل ، وتذكران الصيد ، « على قافية واحدة وروى واحد[1] » ، لأنظر أيكما أشعر ، فرضيا بحكمها ، وأنشداها على البديهة قصيدتين كبيرتين بائيتين ، سبق ذكر مطلعهما ، ولما فرغا من انشادهما قالت أم جندب لبعلها : علقمة أشعر منك ، فقال وهو يكاد يتميز من الغيظ : وكيف ذاك ؟ قالت : لأنك قلت :

(١) هذا كلام صاحب الشعر والشعراء (ص٥٨) ، وقد يكون ذلك من زيادة الرواة

فلسوط ألهوب وللساق درة ولزجر منه وقع أهوج منعب

فزجرت فرسك ، وجهدته بسوطك ، ومريته بساقك . وقال علقمة :

فأدركهن ثانيا من عنانه يمر كمر الرائح المتحلب

فأدرك الطريدة وهو ثان من عنانه فرسه ، لم يضربه بسوط ، ولا مراه بساق ، ولا زجره . فخرد وجهه ، وقال لها : ما هو بأشعر منى ولكنك له وامق وطلقها تخلفه عليها علقمة .

وقد ذكر هذه الرواية ابن قتيبة[1] ، وأبو الفرج[2] ، وصاحب الموشح[3] ، مع بعض تغيير فيها ؛ ويزيد المرزبانى على هذه القصة رواية أخرى عن أبى عمرو الشيبانى يقول فيها[4] : "زوج امرؤ القيس امرأة من طيء ، وكان مفركا ، فلما كان ليلة ابتنى بها أبغضته ، فجعلت تقول : « أصبح ليل ، يا خير الفتيان أم بحت » ، فينظر فيرى الليل كهيئته ، فلم يزل كذلك حتى أصبح ، فنزل به علقمة وكان من فحول شعراء الجاهلية وكان صديقا له ، فقال أحدهما لصاحبه أينا أشعر ؟ فقال هذا : أنا ، وقال هذا : أنا ، فتلاحيا ، حتى قال امرؤ القيس : أنعت ناقتك وفرسك وأنعت ناقتى وفرسى ، قال : فافعل والحكم بينى وبينك هذه المرأة من ورائك ، فقال امرؤ القيس : « خليلى مرا بى على أم جندب » ، وقال علقمة : « ذهبت من الهجران فى غير مذهب » ؛ فلما فرغا من قصيدتيهما عرضاها على الطائية امرأة امرئ القيس ، فقالت : فرس ابن عبدة أجود من فرسك ، قال لها : وكيف ؟ ،

---

(١) ٥٨ الشعر والشعراء .
(٢) الأغانى جـ ٨ ص ١٢٨ .
(٣) ٢٨ الموشح للمرزبانى .
(٤) ٢٩ المرجع .

قالت : إنك زجرت فرسك وحركت ساقيك وضربت بسوطك ، تعنى قوله :

فلزجر ألهـــوب وللســاق درة وللسوط منه وقع أخرج مهذب[1]

وإن علقمة جاهر الصيد فقال :

إذا ما اقتنصنا لم ننـــده بجنة ولـكن ننادى من بعيد ألا اركبى

هذه هى حكومة أم جندب الأدبية بين الشاعرين ، فى كثير من رواياتها التى تختلف قليلا وتتفق كثيرا ، والتى لا تخرج عن أن أم جندب فضلت قصيدة علقمة على قصيدة امرىء القيس .

٣ — ويرتاب بعض الباحثين فى صحة هـذه الحكومة ويرى جورها ويقول : ولعل ذلك مما حمل ابن المعتز على أن ينكر هذه القصيدة فيما أنكر من شعر امرىء القيس[2] .

وذلك هو رأى الدكتور طه حسين فى الأدب الجاهلى الذى رأى أن هذه القصة منتحلة[3] .

---

(١) ألهوب : ألهب جريه حين زجره ، درة : اى اذا غمز در بالجرى ، الأخرج : الظليم وهو ذكر النعام والأنثى خرجاء فى حال لونه وهو سواد وبياض لون الرمادى والأخرج الرماد - مهذب : مسرع فى عدوه .

(٢) ٢١و٢٢ تاريخ النقد الأدبى عند العرب للمرحوم الأستاذ طه ابراهيم ، وقد أخطأ هذا الباحث فيما زعمه من ابن المعتز انكر قصيدة امرىء القيس ، وذلك أنه يعتمد فى ذلك على المرزبانى فى الموشح : ونص كلام المرزبانى هو : قال المرزبانى بعد نكره لحكومة أم جندب : « وقد روى هذا الحديث أيضا هشام بن الكلبى ، ورواه أيضا ابن المعتز وذكره فيما أنكره من شعر امرىء القيس » (ص ٣٠ الموشح) .

وكلمة أنكره هنا بمعنى نقده وعابه لا بمعنى أنكار القصيدة ودعوى انها منتحلة وذلك اصطلاح عند صاحب الموشح يفهم من قراءة الكتاب ، وهب أن الأمر كما يقول هذا الباحث فكلام المرزبانى يجوز أن يحمل على انكار أبيات من القصيدة لا على انكارها كلها .

(٣) راجع الأدب الجاهلى ٢٢٠ — ٢٢٥ .

وقد وقف الباحثون حيال هذه الحكومة الأدبية موقفين متعارضين : ففريق يؤيد أم جندب فى رأيها ، وفريق آخر يرى جور حكومتها الأدبية .

ومن الفريق الأخير الرافعى الذى عرض لحكومة أم جندب وبين حيفها ، وفضل قصيدة امرىء القيس على قصيدة علقمة ، وأيد ذلك ببعض الآراء والحجج الأدبية[1] .

يقول الرافعى :

وقصيدة علقمة بجملتها ليست بشىء ؛ لأن كل ما فيها من الألفاظ البارعة ، والمعانى الحسنة ، مأخوذ من قصيدة امرىء القيس ، حتى ليأخذ البيت برمته ، والشطر بحاله . ومع ذلك فقد أبر عليه امرؤ القيس فى الصنعة وما أرى كيف هذا ، فلولا أن الرواة مجمعون على أن قصيدة علقمة مما صح للقلت إنها مصنوعة ، وإن صح خبر هذه المناوعة فيكون ذلك هو السبب فى تعفف امرىء القيس على الشعراء وإدلاله بشعره[2] .

وقال[3] : وما أرى أم جندب إلا أرادت ما تريد الفارك من بعلها ، فقرعت أنفه على حمية وغيرة ، وهى تعلم أنها لا بد مسرحة فى زمام هذه الكلمة ؛ وإلا فالبيت الذى توافيا على معناه ليس بموضع تفضيل ، لأن فى قصيدة امرىء القيس ما هو أبلغ فى هذه الصنعة من بيت علقمة ، وهو قوله :

إذا ما جرى شأوين وابتل عطفه تقول : هزيز الريح مرت بأثأب[4]

---

(١) ٢٢٥ ـ ٣/٢٣٤ آداب العرب للرافعى طبعة ١٩٤٠ .

(٢) من ٣/٢٣٧ تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعى طبعة ١٩٤٠ .

(٣) يقول الرافعى : ليس بين الناس اختلاف فى أن امرأ القيس أول من ابتكر هذا المعنى : فبالغ فى صفة الفرس ، وجعله على هذه الصفة : بعد أن يجرى شأوين ، ويبتل عطفه بالعرق : ثم زاد ايغالا فى صفته بذكر الاثاب ، وهو شجر الدريح فى أضعاف أصداله حفيف عظيم وشدة صوت (٣/٢٢١ المرجع) .

ومن تدبر صنعة امرئ القيس للخيل فى شعره وجسد السوط لا يفارقه فعلمها كانت عادته[1] .

ويقول : وما رأيت أحدا من أهل النقد وازن بين القصيدتين ، بل كلهم متجمون كلمة هذه المرأة ؛ وبعضهم لا يعرف ما كان بينها وبين امرئ القيس ، وامرؤ القيس يقول فى قصيدته :

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب[2]

والطريف أن الرافعى لم يوازن بين القصيدتين موازنة أدبية وإنما اكتفى بعد ذلك بأن ذكر القصيدتين كاملتين دون تعليق .

وعلى رأى الرافعى سار الأستاذ هاشم عطية فى كتابه الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى[3] ، قال بعد أن عرض أبياتا كثيرة من القصيدتين :

« والذين يعرفون أن امرأ القيس كان مفركا تكرهه النساء ، وأن هذه المرأة كانت تكرهه ، وكانت ضدها مع علقمة[4] ، يدركون فى سهولة أنها جارت فى حكمها على امرئ القيس ، وأن الذى قصد من ذكر السوط والساق والزجر — وإن كان فيه شىء من المجنة — إنما هو التنفيه على مبلغ عنايته برياضة فرسه وتأديبه وأن عبده أفاين من الجرى ، فيعطى راكبه من كل حالة ما يشبهها من العدو[5] على أنه مع ذلك قال : « فأدركن لم يجهد » وهو

---

(١) ص ٣/٢٢٧ المرجع .
(٢) ص ٣/٢٢٦ » .
(٣) ص ١٨٤ .
(٤) هذه الأسباب الأولى فى تعليل جور حكومة أم جندب الأدبية مضحكة للغاية .
(٥) وهذه أيضا حجة أدبية رائعة مثل ما سبقها .

يدل على ما يدل عليه بيت علقمة من أنه أدرك طريدته ، وهو لا يزال كما هو لم يتعب ولم يثن شأوه ، أى لم يعد الشوط بل أدرك من أول حضر[1] » .

ثانياً :

١ — ونحن هنا فى مطلع موازنتنا الأدبية بين القصيدتين لا يصح أن نحكم فى هذه الموازنة أى باعث غير البواعث الأدبية فى الحكومة بين القصيدتين نفسيهما ، فلا يصح أن نفضل امرأ القيس لأنه زعيم الشعراء الجاهليين ، فنحن نسلم أن علقمة أيضاً شاعر فحل وإن كان لا يصل إلى منزلة امرىء القيس فى زعامة الشعر الجاهلى ؛ قال له ربيعة بن حذار الأسدى الشاعر الجاهلى : « شعرك كزادة قد أحكم خرزها فليس يقطر منها شىء » ، يريد أن شعره يثبت على النقد ولا يطرح منه شىء ، وقال ابن سلام : لعلقمة ثلاث روائع جياد لا يفوقهن شعر :

ذهبت من الهجران فى كل مذهب ولم يك حقاً كل هذا التجنب

والثانية : طحا بك قلب فى الحسان طروب .

والثالثة : هل ما علمت وما استودعت مكتوم[2] .

ولعلقمة معان جيدة ، واشتهر بوصف النعامة مما أشاد به ابن الأعرابى ، ولكنه على أى حال لا يصل إلى منزلة امرىء القيس ، فقد وضعه ابن سلام الناقد الكبير فى الطبقة الرابعة مع عدى وعبيد وطرفة[3] ، ووضع امرأ القيس فى الطبقة الأولى .

---

(١) ١٨٤ الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى .
(٢) ص ٥٠ طبقات الشعراء لابن سلام .
(٣) ص ٤٩ المرجع .

فاختلاف منزلة الشاعرين الأدبية وما تلقيه فى روعنا زعامة امرىء القيس للشعر الجاهلى من أثر عميق باطنى ، كل ذلك لا يصح تحكيمه فى الموازنة بأى حال ، إنما يجب أن ننهج منهجاً عادلا فيما نتناول به القصيدتين من أحكام .

٢ — أما قصيدة امرىء القيس فقد بدأها بالغزل العذب الجميل ، ومن امرىء القيس فى الغزل يحبب إلى النفوس مستوفى البلاغة ، قريب من القلب والروح ، يقول فيما يقول :

خليلى مُرا بى على أم جُندب ... لنقض لبانات الفؤاد المعذب

ألم ترياقى كلما جئت طارقا ... وجدتُ بها طيبا وإن لم تطيب

فإن تأذ منها حقبة لا تلاقها ... فإنك مما أحدثت بالمجرب

فلله عينا من رأى من تفرق ... أشت وأنأى من فراق المحصب(١)

قريتان : منهم جازعٌ ببطن نخلة ... وآخر منهم قاطع نجد كبكب(٢)

فعيناك غرباً جدول فى مفاضة ... كفر الخليج فى صفيح مصوب(٣)

فنجد عذوبة فى جزالة ، وقوة عاطفة فى أسلوب عال من الشعر .

ثم إنتقل إلى وصف الدّوية التى جابها على ناقته فى أسلوب رائع ممتع فقال :

---

(١) أشت : أكثر تفرقا ، أنأى : أبعد ، المحصب : المكان الذى ترمى فيه الجمار بمنى .

(٢) جازع : قاطع ، بطن نخلة : موضع ، نجد كبكب : جبل يستديره الواقفون بعرفات .

(٣) الغرب : الدلو العظيم ، الجدول : النهر ، المفاضة : الأرض الواسعة ، الخليج : الماء المتخلج وهو الذى تعترضه العقبات فى مجراه فيتياسر مرة ويتيامن أخرى ، الصفيح : العريض من الحجارة ، المصوب : المنحدر .

ودوية لا يهتدى لفلاتها يعرفان أعلام ولا ضوء كوكب[1]

تلافيتها واليوم يدعو بها الصدى وقد ألبست أطرافها ثنى غيهب[2]

ثم ألم بناقته وشبهها بالحمار الوحشى ووصفه فقال فيما قال من وصفه :

يغرد بالأسحار فى كل سدفة تغرد مياح الندامى المطرب[3]

ثم انتقل إلى وصف فرسه ، فأجاد الوصف ، وأمتع فى الأسلوب ؛ وامرؤ القيس أوصف الناس للخيل ، فلا غرو أن يجىء هذا الوصف جميلا ممتعا قويا على غرابة فيه ، ومن قوله فيه :

له أيطلا ظبى وساقا نعامة وصهوة عير قائم فوق مرقب[4]

كثير سواد اللحم ما دام بادنا وفى الضمر ممشوق القوائم شوذب[5]

وصف امرؤ القيس خلقه وصفاً دقيقاً ، ثم وصف قوته وسرعة عدوه ، فقال فيما قال :

إذا ما جرى شأوين وابتل عطفه تقول : هزيز الريح مرت بأثأب[6]

إذا ما ركبنا قال ولدان أهلنا تعالوا إلى أن يأتى الصيد نحطب[7]

---

(١) الدوية : الفلاة التى لا يهتدى فيها بعلامة أو ضوء كوكب .

(٢) تلافيتها : قطعتها . الغيهب : الليل الحالك .

(٣) يغرد : يطرب بصوته . السدفة : القطعة من الليل . المياح : المياس .

(٤) الأيطل : الخاصرة . الصهوة : الظهر . العير : حمار الوحش . قائم منتصب . المرقب : المكان المرتفع .

(٥) البادن : السمين . الممشوق : حسن القوام . الشوذب : الطويل الجسم الحسن الخلق المنسجم .

(٦) شأوين : شوطين . ابتل عطفه : سال عرقه على جانبيه . هزيز الريح : صوتها . أثأب : اسم شجر .

(٧) نحطب : نجمع الحطب للطبخ والشواء .

ثم انتقل إلى وصف الصيد ، وهو فن من فنون شعر امرىء القيس الجيدة العالية ، فذكر خروجه للصيد حول ثمالة ، ورؤيته للقطيع كبير من الصيد ، والمتطاء فرسه ، وحمله غلامه خلفه ، وعدوه الشديد بهما على آثاره ، وذكر أنه لم يمهل مع ذلك هذا الفرس ، بل ألح عليه يجهده ، ويستحثه بساقه وسوطه وبزجره له ، حتى أدرك القطيع ، قال فيما قال :

فلساق ألهوب والسوط درة والزجر منه وقع أهوج منعب(١)
فأدرك لم يمهل ولم يثن شأوه يمر كخذروف الوليد المثقب(٢)

وذكر معركة الصيد وفيئته إلى بيت مشيد ، وجلوسه فيه هو وأصحابه في يوم جميل ممتع :

فظل لنا يوم لذيذ بنعمة فقل في مقيل نحسه متغيب(٣)

يتمتعون فيه بأكل الشواء المنهب(٤) .

ثم ذكر رجوعه على فرسه إلى منزله ، وفرسه محبب إلى الأصحاب غير مكدمن .

حبيب إلى الأصحاب غير ملمن يغدونه بالأمهات وبالأب
كأن دماء الهاديات بنحره عصارة حناء بشيب مخضب(٥)

---

(١) الألهوب : الجرى الشديد المدة : الدفعة - الزجر : الثهر - الأهوج : الأحمق - المنعب : الذى يصلح عليه . . . . وبهذا البيت حكمت أم جندب على امرىء القيس بالتقصير وفضلت علقمة عليه .
(٢) المخذروف : لعبة للأطفال .
(٣) يريد أنه كان ذلك اليوم من أيام السعادة التى غاب عنها النحس
(٤) أى الذى لم ينضج تماما .
(٥) الهاديات : الوائل الوحش .

وتنتهى هذه القصيدة الرائعة القوية الخصبة الخيال ، البليغة الأسلوب ، الكثيرة المعانى ، المشبوبة العاطفة والشعور ، الطويلة حتى لتبلغ أبياتها خمسة وستون بيتا .

٣ — أما قصيدة علقمة فعدد أبياتها خمسة وأربعون بيتا بدأها بالغزل كما بدأ امرؤ القيس قصيدته ، فقال :

ذهبت من الهجران فى غير مذهب ولم يكُ حقا كل هذا التجنب
ليالى لا تبلى نصيحة بيننا ليالى حلوا بالسّتار فغرب[1]
مبتلة كأن أنضاء حليها على شادن من صاحة متربب[2]

وبعد أن تحدث عن ماضى حبه لها ، ذكر الحاضر المؤلم الذى تقطعت فيه أسباب المودة والحب ، فقال فيما قال :

إذا ألحم الواشون للشر بيننا تبلغ رَسّ الحب غير المكذب[3]
أطعتُ الوشاة والمشاة بصرمها فقد أنهجت حبالها للتقضب[4]

ويذكر وعدها له ، ودلالها الشديد ، ورجوع المودة والصلة من جديد ، ثم يقول :

---

(١) الستار جبل بعاليه الحجاز . غرب موضع تلقاءه .

(٢) مبتلة : الحسنة الخلقة وتقسيم الاعضاء ، أو الضامرة الكشح . الأنضاء جمع نضو الهزيل : الحلى ، والحلى : ما تتزين به المرأة . الشادن : ولد الغزال . صاحة : موضع . متربب : مربى فى البيوت . شبه جيدها وما عليه من الحلى بجيد هذا الشان الذى تربيه الجوارى فى البيوت .

(٣) ألحم : ادخل . للشر اللام زائدة . الرس : الثابت الراسخ . المكذب : الزائل المتقطع .

(٤) الصرم : الهجر ، أنهجت حبالها للتقضب : ضعفت العلاقة بينى وبينها وكادت أن تنقطع ، والتقضب : التقطع .

فعشنا بها من الشباب ملاوة فأنجح آيات الرسول المخبب[1]

ثم يذكر تسليه بالأسفار على ظهر ناقته :

فانك لم تنطع ليانة عاشق بمثل بكور أو رواح مؤوب

ثم ينتقل إلى وصف الناقة ، فيجيد وصفها فى خمسة أبيات جميلة قوية بليغة الأسلوب ، فيقول فيما يقول فى وصف عينها :

بعين كمرآة الصناع تدبرها لمحجرها من النصيف المثقب[2]

وفى وصف ذيلها :

تذب به طوراً وطوراً يمره كذب البشير بالرداء المهدب[3]

ثم ينتقل إلى وصف الفرس فيجيد إجادة عالية ، قال فيما قال :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها وماء الندى يجرى على كل مذنب[4]

بمنجرد قيد الأوابد لاحه طراد الهوادى كل شأو مغرب[5]

ويصف أذنيه فيقول :

---

(١) ملاوة : دهرا طويلا ، عشنا بها : أى تعمنا بوصلها ، آيات : علامات ، مخبب معلم الخب وهو الخداع ، أو من الخبب يريد المشى بين الحبيبين ، والخبب نوع من السير ، يريد الرسول المفسد .

(٢) أى بعين صافية كمرآة الصائغة العمل . المحجر : ما حول العين . النصيف : الخمار . المثقب : ذو الثقوب .

(٣) تذب : تدفع الذباب . المهدب : ذو الأهداب .

(٤) اغتدى : أخرج فى الغدو . وكناتها : أعشاشها . المذنب : مسيل الماء إلى الرياض .

(٥) منجرد : قصير الشعر . الأوابد : بقر الوحش . لاحه : أهزله . الطراد المطاردة . الهوادى : أوائل الوحش . الشأو : الشوط . المغرب : البعيد .

له حرّتان تعرفُ العتقَ فيهما كسامعتى مذعورة وسط ربرب[1]

وهكذا يصفه علقمة وصفا دقيقا ؛ ثم انتقل إلى الصيد فقال فى أسلوب ممتع وتصوير خصب وخيال جميل :

رأينا شياها يرتعين خميلة كمشى العذارى فى الملاء المهدب[2]

فبينا نمارينا وعقد عذاره خرجن علينا كالجمان المثقب[3]

فأدركهن ثانياً من عنانه يمر كمر الرائح المتحلب[4]

وهذا البيت الأخير من أسباب حكومة أم جندب الأدبية التى فضلت فيها علقمة على امرئ القيس ؛ إلى أن قال :

فعادى عداء بين ثور ونعجة وتيس شبوب كالهشيمة قرهب[5]

ثم يذكر عودته إلى خبائه المطنب المضروب .

فقلنا : ألا قد كان صيد لقانص فخبوا علينا فضل برد مطنب[6]

---

(١) الحرتان : الأذنان جعلتهما حرتين للطافتهما وانتصابهما - السامعتان: الأذنان - المذعورة : المفزعة يريد بقرة الوحش ذعرت فنصبت أذنيها وحددتهما - الربرب - جماعة بقر الوحش .

(٢) الشياه : النعاج الوحشية - الخميلة : الأرض الكثيرة النبات والشجر : المهدب ذو الهدب .

(٣) التمارى : التجادل والتشكك - عقد عذاره : أى الجام الخيل - الجمان حب يصنع من فضة على هيئة العقد أى خرجت متتابعة منظمة كالجمان المنظوم .

(٤) ثنى عنان فرسه : جذبه نحوه - الرائح السحاب - المتحلب : المتساقط المتتابع .

(٥) فعادى عداء : جرى أشواطا متتالية - التيس : الذكر من الظباء - الشبوب القوى - الهشيمة : الشجرة البالية وشبهه بها فى حالة صيده وسقوطه صريعا على الأرض كالشجرة التى تقع وهى بالية .

(٦) فخبوا : أى فضربوا علينا خياما - البرد : كل ثوب موشى - المطنب: المشدود بالأطناب وهى حبال الخيمة .

وتنتهى بالأكل من الصيد ورميهم لعيون الصيد حول الخباء .

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب[1]

ثم يذكر عودته من رحلة الصيد على فرسه الذى سار فى نشاط وحدة يسابق الريح وتسابقه ؛ ويشبهه بالحية الخسابة :

وراح يبارى فى الجناب قلوصنا عزيزاً عليها كالحباب السيهب[2]

وبذلك تنتهى هذه القصيدة .

ثالثاً :

ومن ذلك العرض السريع نرى أن القصيدتين :

(أ) تتشابهان فى الوزن والقافية .

(ب) وفى الموضوع أيضاً ، فكلتا القصيدتين مبدوءة بالغزل ، ووصف كل من الشاعرين فى كليهما الناقة والفرس ورحلة الصيد ونزوله فى الخباء المضروب للراحة وتناول الطعام وعودته من هذه الرحلة الجميلة الممتعة ، ويزيد امرؤ القيس بوصف المرأة[3] فى بيتين والدوية[4] فى بيتين آخرين بعد الغزل مباشرة .

(جـ) وتتشابه القصيدتين أيضاً فى الخيال والروح ، وفى هذا المجال التقى والبديهة الحاضرة اللذين تفيض فى ذكرها الروايات المختلفة .

---

(١) الجزع : خرز فيه بياض وسواد .
(٢) يبارى : يسابق . الجناب : مصدر جانبه مجانبة اذا صار الى جنبه . القلوص : الناقة الشابة القوية . الحباب : الحية . السهيب : الخسابة .
(٣) هى المكان المرتفع الذى يقف عليه الديدبان ليرقب العدو .
(٤) الدوية : الفلاة الواسعة .

(د) وتتشابهان فوق ذلك فى كثير من المعانى وأساليب الشعر .

١ — قال امرؤ القيس فى الفرس :

حبيبٌ إلى الأصحاب غير مُلَعَّن يفدونه بالأمهـــات وبالأب

وقال علقمة :

أخا ثقة لا يلعن الحىُّ شخصه صبوراً على العلات غير مسبب

فذكر امرؤ القيس أنه غير ملعن، وفصل علقمة فقال « الحى ، وشخصه » ثم عاد فأجمل فقال . « غير مسبب » أى غير ملعن ؛ وزاد امرؤ القيس بقوله : « أخا ثقة » أى يوثق به وبنجابته وأصالته وقوته وسرعة عدوه عند المطالب، وبقوله « صبوراً على العلات » أى على مختلف الحالات أو على ما يلم به من تعب وإنضاء .

٢ — وقال امرؤ القيس فى الفرس أيضاً :

فكان تنادينا وعقدُ عذاره وقال صحابى : قد شأونك فاطلب

وقال علقمة :

فبينا تمارينا وعقـــدُ عذاره خرَّجنَ علينا كالجمان المثقب

يقول امرؤ القيس : أبصرنا قطيع الوحش فنادى بعضنا بعضاً وألجمت الفرس ، فسبق الصيد ، وقال أصحابى : قد سبقك القطيع فاطلبه .

ويقول علقمة : أخذنا فى الجدال والكلام والشك وأنا ألجم فرسى وإذا نعاج الوحش تخرج علينا متتابعة كالجمان المنظوم ، فلم يذكر علقمة أن الصيد

قد هرب منه ، ولا أن أصحابه قالوا له شيئاً ، وزاد بهذا التشبيه الرائع : « الجمان المثقب » زيادة رائعة .

٣ — وقال امرؤ القيس فى الفرس :

فأدركَ لم يُجْهد ولم يأن شأوه يَمُرُّ كخذْروف الوليد المثقب

وقال علقمة :

فأدركهن ثانيا من عنانه يمر كمر الرائح المتحلب

فذكر امرؤ القيس أن فرسه أدرك الصيد بشوط واحد وأنه كان شديد الجرى لا يبصره الناظر وأن مثله مثل هذه اللعبة التى يلعب بها الأطفال مما يسمونه « المقلاع » فإذا ضربت لم تكد تراها العين ؛ وذكر علقمة أن فرسه أدرك الصيد وهو ثان من عنانه أى لم يجذبه نحوه ، وشبه سرعته النادرة بسرعة السحاب المتساقط المتتابع . . فنجد امرأ القيس ينص على أن فرسه لم يصبه إجهاد وأنه أدرك الصيد من شوط واحد ، ونجد علقمة لا يذكر شيئاً من ذلك ولكنه يذكر أن فرسه كان شديد العدو حتى كان يجذب عنانه نحوه ليهدأ فى سيره ، ويأتى بهذا التشبيه الجيد الذى أفضله على تشبيه امرىء القيس .

٤ — وقال امرؤ القيس فى فرسه :

وَراح كتيس الرِّيْل ، يُنفضُ رأسه

أذاةً بـــه من صائك متحلِّبِ[1]

---

(١) شاة الريل وتيس الريل يعنى الثور الوحشى وقد شبه به الفرس فى نشاطه ونعدته ، ينفض : يحرك ، الصائك : العرق ، المتحلب : السائل المتقاطر ، يقول : ان هذا الفرس راح يحرك رأسه ليزيل العرق المتقاطر السائل .

وقال علقمة :

وراح كشاة الرِّبل ينفض رأسه أذاة به من صائك متحلبِ

فنجد إتفاق البيتين فى أكثر الأسلوب وفى المعنى ، وإن كان علقمة مسبوقا ، والفضل لامرىء القيس .

٥ — ويقول علقمة :

ترى الفأر عن مُسْترغبِ القَدْر لائحا
على جدد الصحراء من شد مُلهبِ[1]

خَفى الفأرُ من أنفاقه فكأنما تجلله شؤبوبُ غيث منقب[2]

وظل لثيران الصريم غماغمٌ يُداعسهنّ بالنضىّ المعلب[3]

فهاوٍ على حرّ الجبين ومتّقٍ بمدْراته كأنها ذلق مشعب[4]

وقال امرؤ القيس من قصيدته فى المعنى نفسه :

---

(١) عن يعنى من . مسترغب القدر : وامنع الخطو . لائحا : ظاهرا . الجدد الطريق . شد ملهب : أى من جرى فرس ملهب وهو الشديد الجرى الثير للغبار .

(٢) خفى الفار : أخرجه من انفاقه ، وهى جمع نفق وهو الجحر . تجلله : غشيه وأحاط به . الغيث المطر . المنقب : الذى ينقب فى الأرض ويستخرج ما فيها لشدته . الشؤبوب : الدفعة من المطر .

(٣) ثيران الصريم : بقر الرمل . الغماغم : حوار الثيران عند الطعن . يداعسهن : يطاعنهن : النضى : الرمح . المعلب : المشدود بالعلباء وهى عصبة كانوا يشدون بها الرماح والسهام لئلا تنكسر .

(٤) هاو : ساقط . حر الجبين : ما أقبل عليك منه . المدراة : القرن . الذلق : الحد والطرف . المشعب : المخرز الذى تخرز به الجلود .

ترى الفأر فى مستنقع القاع لاحبا على جدد الصحراء من شد ملهب[1]

خفاهن من أنفاقهن كأنما خفاهن ودق من عشى مجلب[2]

وظل نصيران الصريم غماغم يداعسها بالسمهرى العلب

فكاب على حر الجبين ومتق بمدريه كأنها ذلق مشعب

فتجد تشابه المعنى والأسلوب والألفاظ والخيال فى القطعتين .

٦ — وقال امرؤ القيس :

وقلنا لفتيان كرام : ألا انزلوا فعالوا علينا فضل ثوب مطنب

وقال علقمة :

فقلنا : ألا قد كان صيد لقانص فخبوا علينا فضل برد مطنب

فيزيد علقمة بذكره « صيد القانص » ، ويوجز فيحذف ذكر النزول ، ويزيد امرؤ القيس فينص على كرم الفتيان وعلى ذكر النزول .

٧ — ويقول امرؤ القيس :

وقد اغتدى قبل الشروع بسابح أقب كيعفور الفلاة مجنب[3]

---

(١) مستنقع القاع : الأرض المنخفضة الذى تنقع فيها المياه . لاحبا : ظاهـــرا .

(٢) الودق : المطر . مجلب : شديد الجلبة والصوت .

(٣) السابح : الفرس السريع الجرى . الأقب : الضامر البطن . اليعفور : حمار الوحش . الفلاة : الصحراء .

ويقول علقمة :

وقيد اغتدى والطير في وكناتها ... وماء الندى يجرى على كل مذنب[1]

بمنجرد قيد الأوابد لاحه ... طراد الهوادى كل شأو مغرّب[2]

فنجد علقمة يزيد هذه الزيادات الجميلة الرائعة حقاً : « وماء الندى يجرى على كل مذنب » ، و « منجرد قيد الأوابد — البيت كله » ، ويزيد امرؤ القيس في وصف فرسه بما وصفه به ، وإن كانت « منجرد ، وقيد الأوابد » مما ابتكره امرؤ القيس وأخذ عنه ، إلا أن علقمة هنا أروع بلاغة من غير شك .

٨ — ويقول امرؤ القيس في الناقة :

بمجفرة حرف كأن قتودها ... على أبلق الكشحين يعثر يعثرب[3]

ويقول علقمة :

بمجفرة الجنبين حرف شملة ... كهملك مرقال على الأين ذعلب[4]

---

(١) المذنب : مسيل الماء الى الرياض .

(٢) منجرد : قصير الشعر . الأوابد : بقر الوحش . لاحه : أهزله . الطراد : المطاردة . الهوادى : أوائل الوحش . الشأو : الشوط . المغرب : البعيد .

(٣) المجفر : الناقة العظيمة البطن . الحرف التي تماثل حرف الجمل في صلابتها . القتود : أداة الرحل . أبلق الكشحين يريد حمارا وحشيا أبيض الخاصر . المغرب : الذي أبعدت أشقاره وحماليقه .

(٤) الحرف : الضمرة أيضا . الشملة : السريعة . كهملك أي كما تشتهي في سيرها . المرقال : الكثيرة الرقلان وهو المشي السريع . الأين : التعب . الذعلب : خفيفة في سيرها .

٩ — ويقول امرؤ القيس فى الفرس :

وبهوٍ هواءٌ تحت صلب كأنه من المضبة الخلفاء زحلوق ملعب(١)

ويقول علقمة فى المعنى نفسه :

وجوفٌ هواءٌ تحت متن كأنه من المضبة الخلفاء زحلوق ملعب

١٠ — ويقول امرؤ القيس فى ذنب الفرس :

وأسحم ريـــان العسيب كأنه عثا كيلٌ قنو من سميحة مرطب(٢)

ويقول علقمة فى ذنب الناقة :

كأن محـاذيها إذا ما تشذرت عثا كيل قنو من سميحةَ مرطب(٣)

يزيد علقمة بالشطر الأول أو أغلبه على امرىء القيس .

١١ — ويقول امرؤ القيس فى الفرس :

وعينان كالماويتين(٤) ومحجرٌ إلى سندٍ مثل الصفيح المنصب

ويقول علقمة فى الناقة :

بعين كمرآة الصُنّاع نديرها لمجبرهـــا من النصيف المثقب

---

(١) البهو : جوف الصدر ، هواء : واسع ، الصلب : الظهر ، الخلفاء : اللساء ، الزحلوق : ما يتزحلق عليه الأطفال اثناء لعبهم .

(٢) الأسحم : الأسود ، والمرادبه الذنب ، ريان : ممتلىء ، العسيب : أصل الذنب ، العثاكيل : الأغصان الرقيقة وهى الشماريخ ، القنو : العذق وهو العناقود سميحة : بئر على حافته نخل مثمر .

(٣) المحاذان : ما وقع عليه الذنب من الفخذين ، تشذرت الناقة : ضربت بذنبها .

(٤) الماوية وهى المرآة الصافية ، المحجر : نقرة العين ، الصفيح المنصب : اللوح الحجارة الثابتة .

فيشبه امرؤ القيس عيني الفرس بمرآتين صافيتين ويقول : إن عينه يسندها عظم الوجه القوى الصلب المنتصب . ويقول علقمة : إن عين الناقة شبيهة بعين المرأة الصناع التي تديرها وتنظر بها من خلال تفوق الخمار ؛ فتجد إحكاما فى التشبيه عندها واختلافا فى تفاصيل المعنى ، واتفاقا فى عمومه .

وهذا الاتفاق كله يبين لنا مدى هذا التشابه القوى الواسع بين تينك القصيدتين الكبيرتين .

رابعاً :

وهناك خلاف كبير أيضاً بين القصيدتين يتجلى لك فى ما يأتى :

١ — قصيدة امرىء القيس تزيد على قصيدة علقمة عشرين بيتا فالأولى خمسة وستون والثانية خمسة وأربعون .

٢ — وشتان بين غزل القصيدتين ، فغزل امرىء القيس ممتع خصب بعكس غزل علقمة ، وعلقمة لا يحسن أن يتغزل كما يتغزل امرؤ القيس ، فنجده يقول :

فإنك لم تقطـــع لبانة عاشق مثل بكور أو رواح مؤوب

فيرى أن يقطع آماله فى حب محبوبته ويقطع صلته بها بالسفر مبكراً أو رائحاً ؛ ويقول أيضاً :

فقلت لها : فيئى فما يستفزنى ذوات العيون والبنان المخضب

وإذا لم تستفزه هؤلاء ، فمن الذى يستفزه بعدهن ؟

ولكن امرأ القيس لا يدور بخلده شيء من ذلك ولا يتعلق به لسانه ، إنما تراه يقول :

فإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

فتجده يذكر ضعف المرأة وأنوثتها وسحرها مع ذلك وامتلاكها بهذا الضعف القلوب والأرواح .

وقد ذكر علقمة فى غزله الوصل ومظاهر الجمال فى خلق حبيبته وفى زينتها ، ثم صور ما وقع بينهما من صرم وعودة الصلات ثم قطعه لها بالأسفار . أما امرؤ القيس فيذكر لبانات الفؤاد للعذب وحاجة قلبه إلى اللقاء وجمال محبوبته الفاتن ، ورائحتها الذكية حتى فى غير وقت الزينة والطيب ، وإقامتها على المودة وثقته بها ، ويتذكر ساعات رحيل أحبابه وهو ينظر إليهن نظرة اليائس الحزين ، تنهمر دموعه حزناً لفراق أحبابه .

وعلقمة فى غزله الذى يبلغ الأربعة عشر بيتاً لا يصل على أى حال إلى منزلة امرىء القيس شاعر الغزل والجمال الذى رسم فى مطلع قصيدته صوراً حية رائعة لأحبابه وذكراهن فى إيجاز وفى ثلاثة عشر بيتاً .

٣ — أما الناقة فقد وصفها علقمة فى خمسة أبيات ووصفها امرؤ القيس فى بيت بل فى شطرة فقط ، وبزيد امرؤ القيس فيصف حمار الوحش الذى شبه ناقته به وصفا جميلا ، فعلقمة إذاً يتفوق على امرىء القيس فى وصف الناقة ، وإن كان امرؤ القيس يزيد عليه بوصفه للحمار الوحشى فى ثلاثة أبيات :

٤ — ووصف الشاعران الفرس ، ووصفه علقمة فى ثلاثة عشر بيتاً ثم

ذكره فى بيتين فى آخر القصيدة ، ووصفه امرؤ القيس فى سبعة عشر بيتاً ثم عاد إليه فى ذكره لرحلة الصيد ، وفى نهاية القصيدة عاد لذكره فى سبعة أبيات أخرى . ووصف امرىء القيس للفرس وصف دقيق ، لا يترك شيئاً منه إلا ويصفه ويصوره ومن أولى من امرىء القيس بذلك وهو الذى قيل فيه : « أشعرهم امرؤ القيس إذا ركب » ؛ ولكن امرأ القيس مع ذلك يخطىء فى بعض معانيه ، أما علقمة فلا يخطىء فى شىء وذلك مالا حظته أم جندب ونقدت امرأ القيس من أجله وفضلت علقمة عليه .

٥ — ووصف الصيد عند الشاعرين وصف جميل ممتع . . وصفه علقمة فى ثمانية أبيات ووصفه امرؤ القيس فى اثنى عشر بيتاً ، مع اتحاد فى بعض الأساليب والمعانى ، ولكن امرأ القيس يزيد فى وصف الصيد على علقمة من غير شك ، وزاد عليه أيضاً وصف الظباء الذى نزل هو ورفاقه فيه لتناول الغذاء وأكل لحم الشواء المضهب كما يقول :

وبذلك نجد تفوق امرىء القيس فى الغزل ووصف الصيد وتفوق علقمة فى وصف الناقة والفرس .

٦ — على أن فى قصيدة علقمة صوراً شعرية كثيرة أرجح أنه اقتبسها من قصائد امرىء القيس الأخرى ، كقول علقمة : « وقد أغتدى والطير فى وكناتها » ، وقوله « بمنجرد قيد الأوابد » ، وقوله : « فعادى عدا بين ثور ونعجة » ، وقوله :

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب

خامسا :

وامرؤ القيس له السبق فى إنشاء قصيدته وابتكار معانيها ، فعلقمة تابع له فى المعانى التى شارك امرأ القيس فيها من غير شك .

ولكن بماذا تسمى عمل علقمة ، أتسميه معارضة أم تقليداً فيها ، أم أنه عمل جديد بكر كعمل امرىء القيس الشاعر الأول .

إن عمل علقمة الفحل ليس جديدا بكرا ، ولكنه جديد فى بعض نواحيه ، وهو تقليد فى بعض النواحى ، ومعارضة أدبية فى باقيها ؛ ولسنا نذهب مذهب من يفضل أحد الشاعرين على الاطلاق ، كما فعل القدماء ، فضلوا علقمة على امرىء القيس ، فقالت أم جندب ما قالت ، وقال ابن رشيق : « ونازع — امرؤ القيس — علقمة بن عبدة ، فكان من غلبة علقمة ما كان[1] » ؛ وكما فعل بعض المحدثين ففضلوا امرأ القيس على أى حال ، ولكن نهجنا فى الموازنة نهج يسير على العدل والحق والانصاف فى الحكومة الأدبية دون نظر إلى ما عدا ذلك .

إن عمل علقمة الفحل فى قصيدته جديد فى الكثير من معانيها وأساليبها وخيالاتها ، وهو تقليد فيما أسلفناه لك من معان احتذى فيها علقمة امرؤالقيس الذى سبقه بارع مجال قصيدته ، ولكن العمل الفحلى الذى عمله علقمة كله وعلى وجه الاجمال أسميه معارضة ، والمعارضة فى الشعر أن يقول الشاعر القصيدة ، فيتبعه شاعر آخر بقصيدة فى خيالها وروحها وموضوعها مع الاتفاق فى الوزن والقافية فى أحيان كثيرة ، ويقصد الشاعر الثانى أن يسجل بقصيدته على الأول تفوقا ، أو ينقض فكرة الأول فى قصيدته .

(١) ١/١٣٥ العمدة ط ١٩٢٥ طبعة هندية بمصر .

والمعارضات فى الشعر العربى القديم والحديث كثيرة ؛ ولكن المعارضة فى قصيدتينا — موضوع هذا البحث — أظهر وأبين وأوضح .

سادسا :

وبعد فقد حاول علقمة بقصيدته أن يتفوق على امرىء القيس فى حكم النقد الأدبى .

وقد نال ما أراد عند القدماء ، وحرمه منه بعض الباحثين من المحدثين .

ولكننا نقدر عمل الشاعرين الفنى معاً :

١ — فلا مرىء القيس ميزة البدء وفضيلة الابتكار ، وله فضل التفوق فى الغزل والصيد .

٢ — ولعلقمة فضل المعارضة وفضل الابتكار الذى يظهر فى قصيدته أحياناً حتى ليكاد يجعلها جديدة من نواحيها ، وله فضل التفوق على امرىء القيس زعيم الشعر الجاهلى فى وصف الناقة وفى الفرس وهو الفن الذى شهر به امرؤ القيس .

إن الصور الفنية المتعة فى القصيدتين كثيرة جداً ، وخيالهما قوى خصب يتكىء على الحس ، ومعانيهما متدفقة ثرة جياشة لا تكاد تنضب .

ووحدة الموضوع والروح والوزن والقافية فى القصيدتين تكاد تمازج بينهما إلى حد بعيد .

وهذا هو آخر تلك الموازنة الأدبية الدقيقة التى فصلنا القول فيها ؛ لنتخذ منها منهجا أدبيا واضحا فى النقد والموازنة .

رواية الشعر ورواته

روايته :

كان العرب بطبيعتهم أثبت الناس حفظاً وأقواهم حافظة ، ولم تكن الكتابة مما يعتمدون عليها فى نظامهم الاجتماعى ، ومن ثم لم يدوّنوا شعرهم فى الجاهلية فى ديوان أو سفر ، وإنما كان محفوظاً فى الصدور تعيه حافظتهم وقلوبهم وأذواقهم وملكاتهم الأدبية الفطرية .

وقد تعجب مما تقرأ من رواة العرب بعد الإسلام وكثرة ما كانوا يحفظون ولكن لا عجب ، فملكات الذكاء والحفظ قوية عند العرب وكانت تعينهم على تخليد الشعر العربى حتى لا يضيع .

ولقد كان الأصمعى — وهو من مشاهير الرواة فى العصر العباسى — يقول : ما بلغت الحلم حتى رويت اثنى عشرة ألف أرجوزة ، وكان خلف مع روايته وحفظه يقول الشعر فيحسن وينحله الشعراء ، ويقال إن القصيدة :

إن بالشعب الذى دون سلع لقتيلا دمه ما يطل

خلف الأحمر ، تحلها ابن أخت تأبط شراً ، وكذا كان يفعل حماد يحقق الشعر القديم ويقول : ما من شاعر إلا قد حققت فى شعره أبياتاً فجاءت عنه إلا أعشى بكر فإنى لم أزد فى شعره غير بيت[1] . ويقول المفضل : سلط على الشعر من حماد ما أفسده ، ورغم هذه الرواية والحافظة القوية فقد ضاع الكثير

---

(١) ٤٠٢ : ٢ العقد .

من الشعر العربي الجاهلي وغيره ، حتى قال أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير[1] .

وأصيب الشعر العربي مع الضياع بالانتقاء والاختلاق عليه من بعض الرواة ، لأسباب كثيرة ، منها العصبية أو الرغبة في تفادي الإحرج أو سوى ذلك .

ولكن النقاد اهتموا بتمييز الصحيح من المنحول ونبهوا على الكثير من المختلق ، وألفوا كتباً كثيرة جمعوا فيها ما صح من الشعر الجاهلي والآثار الأدبية الأخرى .

رواته :

كان لكل شاعر راوية يحفظ شعره وينشده ، ويأخذ من الشاعر فن الشعر ومذهبه في القريض ، فكان امرؤ القيس : راوية أبي دؤاد الإيادي . وزهير : راوية أوس بن حجر ، والأعشى : راوية المسيب بن علس ، كما كان الحطيئة راوية زهير . . .

واشتهر من قريش أربعة بأنهم من رواة الأشعار وعلماء الأنساب وهم : مخرمة بن نوفل ، وأبو الجهم بن حذيفة ، وحويطب بن عبد العزى ، وعقيل بن أبي طالب .

ثم تعدد رواة الشعر من بعدهم وكان من أبرزهم :

---

(١) ٢٩٤ : ٢ المزهر .

١ — أبو عمرو بن العلاء البصرى م سنة ١٥٤ وله روايات ولم يترك مؤلفات[١] .

٢ — حماد الراوية (٧٥ — ١٥٦ هـ) كوفى ، وليس له مؤلفات[٢] . ويقول فيه ابن سلام : وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية وكان غير موثوق به ، ويقال إن خالد بن يزيد بن معاوية هو أول من جمع شعر العرب .

٣ — الخليل بن أحمد (بصرى) — (١٠٠ — ١٧٤ هـ) وهو مخترع علم العروض .

٤ — خلف الأحمر (بصرى) توفى سنة ١٨٠ هـ وليس له مؤلفات ، ونقل عن السيوطى أنه ألف كتاب الجبال وما قيل فيها من شعر ، وله ديوان خاص. وقيل إنه صاحب لامية العرب[٣] المنسوبة للشنفرى .

٥ — يونس بن حبيب البصرى المتوفى سنة ١٨٢ هـ .

٦ — المفضل الضبى المتوفى ١٨٩ هـ (كوفى) وهو أقدم من جمع المختار من شعر العرب فى كتاب (المفضليات) وأول من فسر الشعر بيتا بيتا ، ويقال إنه أول من جمع أشعار الجاهليين .

٧ — أبو عبيدة (بصرى) المتوفى ٢٠٩ هـ وله مؤلفات فى اللغة ومجاز القرآن ، والنقائض .

---

(١) ٤٢ الفهرست
(٢) الفهرست : ١٣٤ .
(٣) ٤ الصناعتين

٨ — الأصمعي البصري — المتوفى ٢١٦ هـ ، وله مؤلفات في اللغة ، وكتاب الأصمعيات ، طبع أوربا ، وكتاب في الكروم والنخيل .

٩ — محمد بن سلام الجمحي — المتوفى ٢٣١ هـ وله طبقات الشعراء وغريب القرآن [1] .

١٠ — النضر بن شميل المتوفى سنة ٢٠٤ هـ .

١١ — مؤرج السدوسي المتوفى سنة ١٩٥ هـ .

١٢ — ابن السكيت هشام بن محمد المتوفى سنة ٢٠٤ هـ .

١٣ — الهيثم بن عدي (كوفي) — وله مؤلفات . وتوفي سنة ٢٠٦ هـ .

١٤ — أبو زيد الأنصاري المتوفى ٢١٦ هـ ثقة ، وله مؤلفات .

١٥ — أبو عبيد بن القاسم المتوفى سنة ٢٢٣ هـ .

١٦ — ابن الأعرابي المتوفى سنة ٢٣١ هـ كوفي ثقة وله مؤلفات .

الرواة بين التوثيق والتجريح :

إذا كان من الملاحظ في العصر الجاهلي أن الرواة الموصوفين بهذا الاسم كانوا عادة من الشعراء ، فإنه قد لوحظ في العصر الإسلامي ظهور طائفة من الرواة لم يكونوا ممن يحسنون نظم الشعر ، فهم لا يروونه لغرض تعلمه ، وإنما يروونه لغرض نشره في الناس .

فإذا امتد بنا السير إلى نهاية العصر الإسلامي ومطلع العصر العباسي وجدنا طبقة من الرواة المحترفين الذين اتخذوا رواية الشعر الجاهلي عملا

(١) الفهرست .

أساسيًا لهم ، وهؤلاء الرواة لم يكونوا يقفون عند رواية الشعر القديم مجودة ، بل كانوا يضيفون إليها كثيراً من الأخبار عن الجاهلية وأيامها .

ومع حرص كثير من الرواة على هذا الشعر الجاهلي والحفاظ عليه لأنه سجل حياتهم ومظهر أمجادهم ومفاخرهم . . مع هذا الحرص فقد سقط منه الكثير في أثناء اجتيازه هذا الطريق الزمني الطويل . . وفي ذلك يقول ابن سلام : « لما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل من ذلك وذهب عليهم منه كثير »[1] .

ولا نكاد نمضي في العصر العباسي حتى نجد هؤلاء الرواة قد كونوا مدرستين متقابلتين : هما مدرسة البصرة ، ومدرسة الكوفة ، وعرف الأولون بتشددهم في الرواية دون الآخرين ، ومن هنا تضخمت الروايات ودخلها موضوع ومنتحل كثير ولعل من الغريب ما ذكر من أن الكوفة عرفت في الحديث التقوى بالوضع والانتحال ، حتى إن مالك بن أنس كان يسميها (دار الضرب) يريد أنها تضرب الأحاديث وتصنعها كما تضرب الدراهم والدنانير وتصنع ، وفي ذلك يقول أبو الطيب اللغوي : « والشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله ، وذلك بين في دواوينهم »[2] .

ولقد ندد البصريون بالكوفيين ، وبادلهم الكوفيون نفس التنديد .

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام .
(٢) ٢٩٤ : ٢ المزهر .

فبكان كل منهما يشكك فى الآخر ، فبينما يفتخر البصريون بأنهم لم يأخذوا عن الكوفيين فى هذا الميدان شيئاً وأن الأمر بالعكس ، يدعى الكوفيون أن الأصمعى وأبا عبيدة (وهما من أبرز البصريين الرواة) لا يحسنان قليلا ولا كثيراً[1] .

ومع هذه الاتهامات والادعاءات المتبادلة بين البصريين والكوفيين فإن الواضح أن رواية البصرة فى جملتها أوثق من رواية الكوفة ، وليس معنى ذلك أن رواة الكوفة فى الجملة كانوا متهمين بخلاف رواة البصرة ، فبين الطرفين جميعاً متهمون ، وموثقون أحاطوا رواياتهم بسياج من الأمانة والدقة والتحرى . وربما كان السبب الحقيقى فى تقدم البصرة على الكوفة فى الرواية أن وأس رواتها — وهو أبو عمرو بن العلاء — كان أمويا ، بينما أنهم رأس رواة الكوفة — حماد — بكثرة الوضع ، فهو لا يوثق به فيما يرويه[2] .

ولم يقرك علماء الرواية الميدان خاليا من جهودهم ، فقد قاموا يميزون بين الأصيل الخالص والدخيل ، وهنا هو (المفضل الضبى) يدلى بدلوه فى مجال الرواية ، ويروى ابن الأعرابى الكوفى عن المفضل أنه قال : « قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً » ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ أيخطىء فى روايته أم يلحن ؟ فقال : ليته كان كذلك ، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، لا ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله

(١) راجع مصادر الشعر الجاهلى د. ناصر الدين الأسد ٤٢٩ — ٤٣٨ ط دار المعارف بمصر ١٩٥٦ م .
(٢) راجع العصر الجاهلى ص ١٤٢ .

فى شعره ، ويحمل عنه ذلك فى الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد وأين ذلك ؟ »(١) .

وإذا كان المفضل قد تصدى لأمثال حماد الرواية الكوفى ، فإن الأصمعى قد تصدى كذلك لأمثال خلف الأحمر البصرى وسدد إليه سهام الاتهام ، وأنه « وضع على شعراء عبد القيس شعراً موضوعاً كثيراً وعلى غيرهم عبثاً يهم فأخذ ذلك عنه أهل البصرة وأهل الكوفة(٢) وبهذا يبرز دور العلماء مع الرواة بين التوثيق والتجريح ...

تدوين الشعر الجاهلى :

ثبت أن العرب لم يدوّنوا شعرهم فى الجاهلية وإنما كانوا ينشدونه إنشاداً ، اعتماداً منهم على سرعة البديهة وقوة الذاكرة ، وفى ذلك يقول الجاحظ : « وكل شىء العرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام ، فما هو إلا أن يصرف (العرف) وجهه إلى جملة المذهب ، وإلى العمود الذى إليه يقصد ؛ فتأتيه المعانى أرسالا (أفواجاً) ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا ، ثم لا يقيده على نفسه »(٣) .

وظل هذا شأن العرب فى صدر الإسلام ، حتى معمرت الأمصار وراجعت العرب الأشعار ، وأخذت فكرة التدوين تسلك طريقها فى تسجيل غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم وأحاديثه ، وتقييد بعض الأخبار التاريخية ، وقد يكون فى تدوين الحديث ما يرشد عن تدوين الشعر فلقد كان كثير من الصحابة والتابعين ينكرون فكرة التدوين ، ومن هنا يمكن القول بأن

---

(١) الأغانى ٨٩٦ ومعجم الأدباء ١٠ : ٢٦٥ ، العصر الجاهلى ص ١٥٢ .
(٢) مراتب النحويين ص ٤٧ .
(٣) البيان والتبيين جـ ٣ ص ٢٨ ، العصر الجاهلى ص ١٥٨ .

التدوين لم يكن عاما إلا على رأس المائة ، وأن اهتمام القبائل بشعرهم الجاهلى وشعرائها الذين يعدون مناط شرفها وفخرها لما يسجلون من مناقبها وأمجادها ومثالب خصومها ، كل ذلك كان من أهم الدواعى لتدوين هذا الشعر ولكنه لم يدون إلا فى حقبة متأخرة من عصر بنى أمية[1] ثم بلغ ذروته فى عصر بنى العباس .

أهم المجموعات التى دوّن فيها الشعر الجاهلى :

كانت المدونات الشعرية الأولى قد وصلت إلى علماء الطبقة الأولى من الرواة ، فاعتمدوها مصدراً من مصادر تدوينهم ثم تناولت هـذه المدونات منتخبات عامة ودواوين مفردة للشعراء وأخرى للقبائل .

ومن أوائل هذه المجموعات التى تعد من أهم مصادر الشعر الجاهلى : المعلقات ؛ ويقال إن أول من رواها مجموعة فى ديوان خاص بها : حماد الراوية ؛ وقد عنى الشراح بهذه المجموعة فشرحوها مراراً ، ومن أجمع من شروحهم شرح الزوزنى المتوفى سنة ٤٨٦هـ ثم شرح التبريزى المتوفى سنة ٥٠٢هـ . وغيرها من الشراح وكان حماد الراوية قد اختار لهذا الديوان سبع قصائد من عيون الشعر وسماها بالسموط أو المعلقات دلالة على نفاستها ونقاء جوهرها ، وهذه القصائد هى معلقات امرئ القيس وزهـير وطرفة ولبيد وعمرو بن كلثوم ؛ وهذه هى القصائد المتفق على أنها من المعلقات ؛ والسادسة والسابعة : قصيدتا عنترة والحارث بن حلزة ، وقد ووضع الفضل مكانهما قصيدة النابغة الى مطلعها :

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار ماذا تحيون من نؤى وأحجار

---

(١) راجع العصر الجاهلى ١٥٩ .

وقصيدة الأعشى التي أولها :

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالي وما ترد سؤالي

وشعراء هذه المعلقات هم أشهر شعراء الجاهلية ما عدا الحارث بن حلزة ويقال إن السبب في ضم قصيدته إلى هذه المجموعة عصبية حماد لقبيلته بكر بن وائل ؛ وكانت هذه القبيلة في عداء دائم مع قبيلة تغلب ؛ وقد شهرت قصيدة عمرو بن كلثوم شهرة واسعة لتمجيدها قبيلة تغلب ؛ ولا تشار هذه القصيدة بين الناس وفي المجتمعات والأندية لم يسع حماداً أن يعدل عن اختيارها ؛ ومن هنا وجد نفسه مضطراً لاختيار قصيدة أخرى إلى جانبها تشيد بمجد سادته وهم قبيلة بكر بن وائل ؛ وهكذا اختار قصيدة سليل هذه القبيلة وشاعرها وهو الحارث بن حلزة القليل الشهرة فيما عدا ذلك[1] .

وهناك من يجعل هذه المختارات تسعاً ؛ بإضافة القصيدتين اللتين اختارهما المفضل إلى السبع التي اختارها حماد ؛ وهناك من يجعلها عشراً بإضافة قصيدة عبيد بن الأبرص التي أولها :

أقفر من أهله ملحوب فالقطبيات فالذنوب

والمجموعة الثانية من هذه المنتخبات هي المفضليات ؛ نسبة إلى جامعها : المفضل الضبي . راوي الكوفة الثقة ؛ وهي موزعة على سبعة وستين شاعراً منهم سبعة وأربعون جاهليا وعلى رأسهم : الزعنشان الأكبر والأصغر ؛ وعلقمة ابن عبدة ؛ والشنفرى ؛ وتأبط شراً ؛ والحارث بن حلزة ؛ وبشر بن أبي خازم وغيرهم .

---

(١) تاريخ الأدب العربي - كارل بروكلمان ج ١ ص ٦٨ ، الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام للدكتور عبد الحميد المنلوت ص ٢٠١ .

والمجموعة الثالثة : الأصمعيات ، نسبة إلى الأصمعى راويها ، وقد نشرها (الوارد) عن نسخة سقيمة فى برلين سنة ١٩٠٢ م وأعاد نشرها عبد السلام هارون وأحمد شاكر عن نسخة الشنقيطى نقلها عن أصل قديم ، وهى نشرة علمية جيدة ، وقد بلغ عدد قصائدها ومقطوعاتها اثنتين وتسعين ، موزعة على واحد وسبعين شاعراً ، منهم نحو أربعين جاهليا على رأسهم امرؤ القيس .

وهذه المجموعة كسابقتها (المفضليات) فى الثقة بها وفى درجتها ، غير أنها لم تحظ بتعلق الشراح بها كالمفضليات ، لأنها كانت أقل اشتمالا على الغريب ، لأن الأصمعى عمد فيها إلى اختصار الرواية .

والمجموعة الرابعة : جمهرة أشعار العرب لأبى زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى ، ولا يوجد اسمه بين الرواة المشهورين ، وهذه الجمهرة تضم تسعا وأربعين قصيدة طويلة ، موزعة على سبعة أقسام ، فى كل قسم منها سبع قصائد ، والقسم الأول منها خاص بالمعلقات .

وإذا تركنا هذه المختارات إلى الدواوين الفردة ، وجدنا منها دواوين الشعراء الستة الجاهليين : امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة ، وقد نشرها (الوارد) إلا أنه لم يكتف برواية الأصمعى التى احتفظ بها فى شرح (الشنقيطى) بل أضاف إليها زوادات هى فى الأكثر منحولات .

ومن الكتب الجيدة التى تشتمل على شعر جاهلى كثير .. شرح النقائض لأبى عبيدة ، فقد أنشد فيه كثيراً من الشعر الذى قيل فى أيام العرب ، وهذا

---

(١) العصر الجاهلى د . شوقى ضيف ص ١٧٦ ، الأدب العربى د. عبد الحميد المسلوت ص ٢٠٢

حذوه من كتبوا فى أيام العرب مثل ابن الأثير فى كامله ، وابن عبد ربه فى عقده .

ومن الكتب الجيدة كذلك : طبقات الشعراء لابن سلام ، وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة .

وهناك كتب ألفت فى البصرة مثل : البيان والتبيين للجاحظ ، والكامل للمبرد والأمالى لأبى على القالى والأخير فيه انتحال كثير .

ومن المختصرات التى تفيد فى المراجعة : كتاب المؤتلف والمختلف للآمدى ، ومعجم الشعراء للمرزبانى ، وكذا كتابه الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء .

وهناك أشعار جاهلية كثيرة فى كتب النقد مثل نقد الشعر لقدامة ، والصناعتين للعسكرى ، والوساطة بين المتنبى وخصومه للجرجانى ، والعمدة لابن رشيق ، والأغانى لأبى الفرج الأصبهانى المتوفى سنة ٣٥٦ هـ ويعد من أهم هذه المراجع .

ومن الكتب المتأخرة التى احتفظت ببعض ما فقد من الروايات القديمة خزانة الأدب للبغدادى المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ وهو شرح على شواهد الرضى شارح كتاب الكافية لابن الحاجب وفيه تراجم دقيقة لبعض الجاهليين وملاحظات على بعض أشعارهم من حيث الانتحال والصحة ، ومثل هذا الاتجاه فى شرح السيوطى على شواهد المغنى لابن هشام[1] .

---

(١) يراجع فى هذا البحث : مصادر الشعر الجاهلى د. ناصر الدين الأسد ص ٥٧٣ وما بعدها ، العصر الجاهلى د. شوقى ضيف ص ١٨٢ ، تاريخ الأدب العربى ، كارل بروكلمان جـ١ ص ٦٢ – ٨٦ .

المعلقات عمل فنى عظيم فى العصر الجاهلى

— ١ —

عرف المستشرقون المعلقات ، وعنوا بها عناية كبيرة ، تجلت فى ترجمة نولدكه لمعلقة النابغة وزهير والأعشى ولبيد وعمرو بن كلثوم إلى الالمانية ، وأرفق بها شرحا جليلا ، كما ترجمها إلى الانجليزية شعرا مع شىء من التصرف مستر ولفرد بلنت ، ولادى آن بلنت ومن أشهر طبعات المعلقات طبعة ليبسيك بعناية العلامة أرنولد عام ١٨٥٠ - وطبعها سير شارلز ليل عام ١٨٩٤ بكلكتا .

وقد لاقت المعلقات عناية ضخمة من النقاد والدارسين والباحثين الأوروبيين وغير الأوروبيين على مختلف العصور ، واهتمام العلماء والرواة والأدباء والنقاد بها خير دليل على ما لها من مكانة فى الأدب العربى القديم والحديث على السواء .

- ٢ -

وللمعلقات منزلة عظيمة فى الشعر الجاهلى ، فهى أعلا قصائده طبقة فى البلاغة ، وبعد الأثر ، وجلال التأثير والسحر . وهى لشعراء ممتازين فى منزلتهم فى هذه الجزيرة المقفرة البدوية ، وهى الناطقة بمجد العرب ومحامدهم وأخبارهم ، وشاهد صدق على أخلاقهم وطباعهم وعاداتهم وتقاليدهم ولون تفكيرهم . . وتمتاز بطولها وتهذيبها وروعتها وجمال معانيها وسحر أساليبها وجزالتها وشدة أسرها ، فوق متنوع فنونها وأغراضها وما فيها من تشبيه ساحر ، واستعارة نادرة وكناية طريفة ، وهى مع ذلك ثروة لغوية كبيرة لا غنى عنها للباحثين والدارسين . وقد شرحها كثيرون منهم أبو جعفر النحاس المصرى المتوفى

عام ٣٣٨ هـ ، والزوزنى المتوفى عام ٤٨٦ هـ ، ومحمد بدر الدين أبو فراس النعسانى الحلبى المتوفى فى القرن الرابع عشر الهجرى وسواهم .

— ٣ —

والمعلقات هى سبع قصائد : لامرئ القيس ، والنابغة ، وزهير ، وطرفة ، ولبيد ، وعمرو بن كلثوم ، والأعشى . وقيل هى ثمانى قصائد ، بإضافة عنترة ومعلقته الميمية « هل غادر الشعراء من متردم » ، وقيل إنها تسع قصائد بإضافة الحارث بن حلزة . ويجعلها النعسانى الحلبى شارح المعلقات عشرا بإضافة قصيدة عبيد بن الأبرص اللامية إليها ، ومطلعها :

ليس رسم على الدفين ببالى

فلوى ذروة فجنبى ذيال

— ٤ —

والمعلقات كان المفضل الضبى المتوفى عام ١٨٩ هـ — كما ورد فى كتاب جمهرة أشعار العرب — يسميها السموط ، وسماها أبو زيد القرشى الأنصارى صاحب الجمهرة المتوفى عام ٢١٦ هـ المعلقات ، وجعلها ثمانى قصائد بإضافة قصيدة عنترة الميمية ، والذى عليه أكثر الرواة أن حمادا الراوية المتوفى عام ١٥٦ هـ ، هو أول من سماها بالمعلقات ، فلما رأى زهد الناس فى الشعر ، جمع لهم هذه القصائد السبع ، وسماها معلقات ومشهورات ، فسميت القصائد المشهورة .

ويقول الزوزنى : إنما سميت بالمعلقات لأن العرب فى الجاهلية كان الرجل منهم يقول الشعر فى أقصى الأرض فلا يعبأ به ، ولا ينشره أحد ، حتى يأتى

مكة ، فيعرضه على أندية قريش فإن استحسنوه روى وكان فخرا لقائله ، وإن لم يستحسنوه طرح ولم يعبأ به .

ويقول ابن الكلبي المتوفى عام ٢٠٤ هـ ، أن أول شعر علق على ركن من أركان الكعبة أيام الموسم كان لامرىء القيس ، وعدد من علق شعرهم سبعة . ويؤيد ذلك ابن عبد ربه فيقول في كتابه « العقد الفريد » ، وقد بلغ من كلف العرب وتفضيلها لشعر أن عمدت إلى سبع قصائد من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة وعلقتها في أستار الكعبة . ويذكر الميورقي في كتابه « الزهر » هذا الرأي ورأيا آخر هو أنها سميت المعلقات لأن الملك كان إذا استجيدت قصيدة يقول : علقوا لنا هذه ، لتكون في خزانته . ويذكر الشيخ الإسكندري المصري المتوفى عام ١٩٣٦ م تفسيرا آخر لتسميتها بالمعلقات ، هو أنها كانت تعلق في الخيام حيث يقيمون .

ويقول الألوسي في كتابه بلوغ الأرب : إن هذه القصائد علقت في سوق عكاظ ، ومن أجل ذلك سميت بالمعلقات .

وهناك ناقد آخر هو أبو جعفر النحاس ، وكان معاصرا لابن عبد ربه ، كان ينكر تعليق هذه القصائد على الكعبة ، ويقول : إنه لا يعرفه أحد من الرواة مستندا في ذلك إلى أن حمادا حين جمعها قال هذه هي المشهورات فسميت القصائد المشهورة ، ولو كانت علقت على الكعبة لاعطاها هذا الاسم . وقد سبق أن نقلنا رواية أخرى هي أن حمادا أطلق عليها الاسمين معاً .

إن قصة التعليق مشكوك فيها ومختلف عنها ، والذين ينكرون هذا التعليق يقفون لهذه التسمية سببا غيره ، فمنهم من يقول إن هذه الأشعار حينما كانت تنشد بعكاظ وتستحسن كان يبلغ ذلك ملك الحيرة الذي كان

يبادر فيأمر بتعليقها له فى خزائنه ، ولعل المراد بملك الحيرة هو النعمان بن المنذر الذى كان عنده ديوان مكتوب جمع فيه أشعار الفحول .

ومن أشكر قصة تعليق هذه القصائد المستشرق الالمانى (نولدكه) الذى رجح أن معنى المعلقات المعلقات ، وأنها سميت المعلقات تشبيها لها بالقائد التى تعلق فى الصور ، واستدل على ذلك بأن من أسمائها السموط والقلائد ، ويقول كما جاء فى دائرة المعارف البريطانية إن قصة القول بأن هذه القصائد كتبت بالذهب ترجع إلى تسميتها بالقصائد المذهبات ، وهى تسمية حجازية لدلالة على عظم أمرها ، وهناك اشتقاق آخر من المادة نفسها وهو كلمة علق بمعنى الشىء النفيس .

ويؤيد كليمان هيوارد الفرنسى رأى نولدكه ذاهبا إلى أن المعلقات جمع معلقة بمعنى القلادة ، وكذلك ذهب إسكندر آغا ابيكاريوس فى كتابه تزيين الأدب فى أنباء العرب .

ويرجح نيكلسون المستشرق الانجليزى أن كلمة المعلقات من قولهم علق وهى الشىء الثمين النفيس .

ومهما كان من خلاف حول سر تسمية هذه القصائد المشهورة بالمعلقات ، فإنها تعد من أعظم الأعمال الفنية القديمة ، وقد استمرت نموذجا يحاكيه الشعراء العرب على اختلاف العصور الأدبية ، وينظر إليها الأدباء والنقادون على أنها جدت كبيرا فى الشعر ، لأنها بلغت بالذروة من منازل ما أعلاه ، وتميزت به من طول القافية ، وتنوع الأغراض ، وكثرة ما يحكم فيها من مفاخر وفيها المعانى والتشبيهات ، فعلى ما لأسلوبها من القوة والمتانة والجزالة فى نحو وبلاغة

ومعلقة امرئ القيس المشهورة « قفا نبك » يضرب ببلاغتها المثل ، وهى أروع المعلقات وأسيرها ذكرا ، وأكثرها شهرة .

وإننا نقول إن هذه القصائد السبع أو الثمانى أو التسع أو العشر ، هى من أعظم الأعمال الفنية فى العصر الجاهلى ، ولا تزال حتى اليوم محتفظة بجدتها وروعتها وبلاغتها ودليل صادق على حياة العرب الاجتماعية والعقلية فى العصر الجاهلى .

نظرية الانتحال فى الشعر الجاهلى

— ١ —

كتاب فى الشعر الجاهلى للدكتور طه :

فى عام ١٣٤٤ هـ / ١٩٢٦ م كان الدكتور طه حسين — رحمه الله — عضوا فى هيئة التدريس فى كلية الآداب بالجامعة المصرية — جامعة فؤاد الأول — ثم جامعة القاهرة فيما بعد — وكان يقوم بتدريس مادة « تاريخ الأدب العربى » .

وفى العام نفسه أصدر كتابه المشهور « فى الشعر الجاهلى » ، الذى طبع فى مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة فى ١٨٣ صفحة .

وآثار الكتب ضجة أدبية وسياسية كبيرة كان لها أثرها الضخم فى الحياة الأدبية والفكرية ؛ ومن غير شك كان الكتاب أساسا للدراسات الأدبية الحديثة . بل إننا نعده بدء مرحلة جديدة فى دراسة الأدب العربى . ولقد عزز المنهج الحديث الاستشراق فى دراسة الأدب ونقده ، وفتح الباب على مصراعيه لتأثير كبير فى مجال الدراسات الأدبية بالمناهج الجديدة ؛ وقد صدر فى نقده كتب كثيرة ، كان فى مقدمتها :

١ — النقد التحليلى لكتاب الشعر الجاهلى للأستاذ محمد أحمد الغمراوى .

٢ — الشهاب الراصد للأستاذ محمد لطفى جمعة — صدر عام ١٩٢٦ .

٣ — نقض كتاب « فى الشعر الجاهلى » للشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر فيما بعد — وقد صدر عام ١٣٤٥ هـ عن المطبعة السلفية فى القاهرة .

٤ ــ محاضرات فى بيان الأخطا التى اشتمل عليها كتاب « فى الشعر الجاهلى » للشيخ محمد الخضرى ــ نشرت فى مجلة القضاء الشرعى .

٥ ــ نقد كتاب « الشعر الجاهلى » لمحمد فريد وجدى ــ طبع بمطبعة دائرة معارف القرن العشرين بمصر ــ فى أكتوبر ١٩٢٦ .

٦ ــ نقض مطاعن فى القرآن الكريم للشيخ محمد عرفة .

٧ ــ الشعر الجاهلى والرد عليه لمحمد حسين .

٨ ــ مع زعيم الأدب العربى فى القرن العشرين، للشيخ عبد المتعال الصعيدى .

٩ ــ نظرية الانتحال فى الشعر الجاهلى ــ للدكتور عبد الحميد السلوت .

وعرض لنظرية الدكتور طه حسين فى انتحال الشعر الجاهلى كثيرون من دارسى الأدب الجاهلى ــ وفى مقدمتهم الدكاترة : محمد عبد المنعم خفاجى فى كتابه « الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى »[1] ، ناصر الدين الأسد فى كتابه « مصادر الشعر الجاهلى » ، وشوقى ضيف فى كتابه « تاريخ الأدب العربى ــ العصر الجاهلى » ــ كما عرض لها كتاب كثيرون نشروا بحوثهم فى مختلف الصحف والمجلات المصرية والعربية .

ولا شك أن هذه الموجة الضخمة من الكتب التى صدرت فى دراسة الكتاب والتعليق عليه ونقده ، كانت اعترافا بأهمية الكتاب وأثره ومدى ما أثاره من قضايا أدبية تاريخية .

وقد صدر كتاب « فى الشعر الجاهلى » وطبع من جديد بعنوان « الأدب

---

(١) ص ٣٨١ ــ ٤٠٤ الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى ــ طبعة ١٩٤٨ .

الجاهلى » بعد حذف فقرات منه كانت هى السبب الجوهرى فى مصادرته : وهذه الفقرات كانت عن قصة إبراهيم وإسماعيل ، حيث ذهب الدكتور طه إلى أنها « قصة مشكلفة ومصنوعة فى عصور متأخرة دعت إليها حاجة دينية أو اقتصادية أو سياسية ورأى أن ورودها فى الكتب الدينية لا يكفى لإثبات صحتها التاريخية »[1] . وكانت هذه الفقرات بمثابة التحدى ، بل كانت مجازفة جريئة فى ميدان البحث العلمى أيضاً . وقد سبق أن جهر بعض المستشرقين بهذا الرأى من قبل ، وذلك من مثل « الفس زويمر » الذى ترجم إلى العربية كتاب « مقالة فى الإسلام » لمؤلفه جرجيس سال الإنكليزى ، وألحق به ذيلا ردد فيه (فى ص ١٠ — ٢٥) القول بأن قصة إسماعيل وكتابه مكة دسيسة اختلقها قدماء اليهود للعرب ، نزلفا إليهم ، وتذرعاً بهم إلى دفع الروم عن بيت المقدس أو إلى تأسيس مملكة لهم فى بلاد العرب . ولما ظهر الرسول محمد رأى المصلحة فى إقرارها فأقرها[2] . . هكذا قال زويمر وهو مبشر معروف فى الأوساط التبشيرية .

إن كتابه الأدب الجاهلى يمثل كل آراء ونظرية الدكتور طه فى الشعر الجاهلى ، ويحتوى على نظرية الانتحال التى ذهب إليها ؛ وعرضها بتفصيل ، مبينا أدلتها ونتائجها التطبيقية ، حيث أفاض الدكتور فى شرح ذلك كله إفاضة واسعة .

---

(١) ٢٥ — ٢٩ فى الشعر الجاهلى .

(٢) الملخص عن كتاب مع زعيم الأدب العربى ص ٢٥ — ٤٨ .

— ٢ —

شرح الدكتور طه لنظريته فى الانتحال :

يرى الدكتور طه حسين أن الكثرة المطلقة مما يسمى أدباً جاهليا ليست من الجاهلية فى شىء إنما هى منتحلة بعد ظهور الإسلام ، فهى تمثل حياة المسلمين أكثر مما تمثل حياة الجاهلية ؛ وما بقى من الأدب الجاهلى الصحيح قليل جدا ، لا يمثل شيئاً ، ولا يدل على شىء . والعصر الجاهلى القريب من الإسلام إنما يمثله القرآن ، ويمثله الأساطير[1] ؛ وعلى هذا فلا يصح الاستشهاد بهذا الشعر المنحول فى تفسير القرآن ، بل يجب العكس[2] . . والشعر الذى يضاف إلى الجاهليين يمثل حياة غامضة جافة بعيدة عن الدين ، والقرآن يمثل لنا حياة دينية وعقلية قوية ، مما كان عليه المستعربون من العرب ؛ ويمثل لنا القرآن الكريم أيضاً اتصال العرب بغيرهم من الأمم المجاورة كما يصور حياة العرب الاقتصادية ، من حيث يخلو الشعر الجاهلى من ذلك كله[3] . والأدب الجاهلى أيضاً لا يمثل اللغة الجاهلية لاختلاف اللغة الحميرية عن اللغة العدنانية بعد الاختلاف ، وللأثور من شعر الشعراء القحطانيين مروى باللغة العدنانية ، مع أنهم لم يكونوا يتكلمون بها ، ولم يتخذوها لغة أدبية لهم قبل الإسلام ، كما حدث بعد الإسلام ، مما يدل على انتحال هذا الشعر وسواه من فنون الأدب على هؤلاء القحطانيين[4] . كما أن اختلاف اللهجات العدنانية أمر ثابت لا شك فيه ، ولا نجد أثرا لهذا الاختلاف فى الشعر الجاهلى المأثور ، مما يدل

---

(١) ٦٤ و ٦٥ و ٧٠ الأدب الجاهلى .
(٢) ٦٦ المرجع نفسه .
(٣) ٧٠ — ٨١ الأدب الجاهلى .
(٤) ٨١ — ٩٥ المرجع نفسه .

على انتحال هذا الشعر ؛ وأنه قد حمل حملا على هذه القبائل بعد الإسلام[1] .

ثم يحمل الدكتور طه حسين فى كتابه أسباب انتحال الشعر الجاهلى ، فيذكر البواعث الدينية والسياسية ، وأثر القصاص والشعوبية والرواة فى هذا الانتحال[2] . ثم يستعرض الشعراء ، مؤكدا ما ذهب إليه من أن أكثر ما يضاف إلى هؤلاء الشعراء الجاهليين منحول ، رافضا الشعر المنسوب إلى شعراء من اليمن ، لأن اليمن لغة تخالف لغة قريش ، ويقول : إن هجرة اليمنيين إلى الشمال مشكوك فيها أولا ، وليس كل الشعراء هاجروا من اليمن ثانيا ، فالشعر الذى يضاف إلى « جرهم » وسواهم من الذين عاصروا إسماعيل منحول ، وليس لليمن فى الجاهلية شعرا . أما ربيعة وهى من عدنان ، وتسكن فى الشمال ، فشعرها دون شعر المضريين ، وأما مضر فسكان لها شعراء يتجاوزون الشعر فنا ، فالشعر أصل فى مضر دون اليمن أو ربيعة ، فنظرية تنقل الشعر فى القبائل غير صحيحة ، فالشعر إنما كان فى مضر ، ثم انتقل إلى أقرب القبائل العربية إليها ، وهم ربيعة ، ثم إلى القبائل البعيدة كاليمن ، ثم إلى الموالى وليس كما يقول علماء العربية من أن الشعر كان فى اليمن ، ثم انتقل إلى ربيعة ، ثم إلى قيس من مضر ، ثم إلى تميم ، وشعراء المدينة ليسوا يمنيين ، بل هم مضريون[3] .

إن جملة آراء الدكتور طه حسين ترتكز على أساس واحد ، هو انتحال الشعر الجاهلى ، وتأكيد هذا الانتحال بأدلة كثيرة ، أهمها :

١ — أن هذا الشعر المنسوب إلى الجاهليين لا يمثل الحياة الجاهلية .

٢ — وأنه لا يمثل اللغة نفسها .

---

(١) ٩٦ وما بعدها المرجع نفسه .

(٢) ١٢٢ — ١٨٦ الأدب الجاهلى .

(٣) راجع ١٩٢ — ٢٠٨ الأدب الجاهلى للدكتور طه .

٣ ــ كما أنه لا يمثل اللهجات العربية .

هذه هي نظرية الدكتور طه فى انتحال الشعر الجاهلى كاملة ؛ وهى نظرية كان لها دويها الشديد ، وكان لها كذلك طابع الثورة العقلية ، التى استمد أدلتها الدكتور من دراسته فى فرنسا ، وعلى أيدى الكثير من المستشرقين ، وقد اعتمدت على ما تعتمد عليه مثل هذه الثورة من أدلة خطابية كثيرة لا تستند إلى أساس علمى صحيح .

- ٣ -

نظرية الانتحال قبل الدكتور طه :

وبلا ريب فإن لهذه النظرية مقدمات طويلة كانت هى مصادر الدكتور طه فيما ذهب إليه حولها :

١ ــ فالمفضل الضبى (ــ ١٨٩ هـ) كما يروى أبو الفرج فى كتاب الأغانى يذكر عن حماد أنه « رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه مذهب رجل ، ويدخله فى شعره ، ويحمل ذلك عنه فى الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد ، وأين ذلك »[1] .

ويروى أبو الفرج أن حمادا (ــ ١٥٥ هـ) اعترف فى مجلس الخليفة المهدى العباسى بأنه زاد فى شعر زهير ، وأن خلفا الأحمر (١٨١ هـ) وغيره اخترعوا من الشعر ما لم يكن موجودا فى الجاهلية وكذبوا على الشعراء[2] .

---

(١) الأغانى لأبى الفرج ١٧٢/٥ ــ طبعة الساسى .

(٢) المرجع السابق أيضا ــ وقد سبق الى ذكر ذلك محمد لطفى جمعة فى

٢ — ويعد محمد بن سلام الجمحي البصري (ـ ٢٣١ هـ) من قدامى الذين عرضوا للشعر الجاهلي والنتحاله في كتابه « طبقات الشعراء » ، فقال[1] : « وفي الشعر المسموع مفتعل موضوع كثير ، لا خير فيه ، ولا حجة في عربيته ، ولا أدب يستفاد ، ولا معنى يستخرج ، ومثل يضرب ، ولا مديح رائع ، ولا هجاء مقذع ، ولا فخر معجب ، ولا نسيب مستطرف . وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب ، لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء » . ويذكر ابن سلام أن ما حمل على طرفة وعبيد بن الأبرص من الشعر كثير[2]. ويرجع سبب الانتحال إلى : غفلة العلماء أو جهلهم بوضع الشعر وانتحاله ، أو اختلاط الأمر على بعض الرواة ، أو محاولة بعض القبائل إلى المزيد من الشعر الذي قيل في مآثرهم ، أو كذب الرواة وتلفيقهم رغبة في الجوائز ؛ على أن أبا عبيدة (ـ ٢٠٨ هـ) ، والمفضل (ـ ١٨٩ هـ) ، والأصمعي (ـ ٢١٦ هـ) كانوا من ذوي العناية والتدقيق والضبط ، وكان حماد (ـ ١٥٥ هـ) من موالي بكر ، ولم يمنعه ذلك من رواية معلقة عمرو بن كلثوم في مفاخر قبيلة تغلب ، وكما نعلم فإن تغلب وبكرا كانا في الجاهلية من أشد الأعداء بعضهم لبعض .

يثبت محمد بن سلام إذاً الانتحال ، ويرجعه إلى أسباب معقولة ، ولا يسرف

« الشهاب الراصد ص ٢٥ و ٢٦ — ويذكر ذلك د . المسلوت في كتابه « نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي » أيضا ص ٧١ و ١٩٣ و ١٩٤ وينفي رواية ان حماداً جلس في مجلس الخليفة المهدي ، لأن هذا الخليفة لم يجلس على عرش الخلافة الا عام ١٥٨ هـ ، بينما توفي حماد عام ١٥٥ هـ في رواية ابن خلكان ، أو عام ١٥٦ هـ في رواية ابن النديم في « الفهرست » . وقد ذكر ذلك نقلا عن الخضر حسين في كتابه « نقض كتاب في الشعر الجاهلي » ص ٣٧١ .

(١) ص ٦ من مقدمة كتاب « طبقات الشعراء » بتحقيق الأستاذ محمود شاكر

(٢) ص ٢٢ المرجع نفسه .

فى أمر هذا الانتحال ، فيجعله فى مواضع خاصة لا يتعداها ، ومناسبات معينة لا يتجاوزها .

٣ ــ وابن هشام (٢١٨ هـ) صاحب السيرة يذكر الكثير من النحول على حسان وغيره من شعراء الرسول والسيرة .

٤ ــ وكذلك يذكر أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه « الأغانى » الكثير من النحول على الشعراء القدماء والمحدثين .

٥ ــ وعرض مصطفى صادق الرافعى فى كتابه « تاريخ آداب العرب » المطبوع عام ١٩١١ للانتحال فى الشعر الجاهلى وأسبابه عرضاً تفصيلياً[1] .

٦ ــ وكذلك عرض الدكتور أحمد ضيف فى كتابه « مقدمة لدراسة بلاغة العرب » لأصول نظرية الانتحال فى الشعر الجاهلى وأسبابه ، مستدلا بكلام ابن سلام ، وسائرا فى ضوئه[2] .

٧ ــ وممن أثار البحث فيها من المستشرقين : « نولدكه » ، « بسّيه » عميد كلية الآداب بجامعة الجزائر سابقا ، فى رسالة له عنوانها « الشعر العربى الجاهلى » طبع باريس عام ١٨٨٠ ؛ وكذلك « نيكلسون » فى كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية »[3] .

٨ ــ وذهب « مرجليوث » إلى أن الشعر الجاهلى منحول كله بعد الإسلام ، وأضيف إلى أسماء جاهلية[4] ، ويقول : إن فى لغة القرآن مشابه

---

(١) ٣٦٥ ــ ٣٨٥ تاريخ آداب العرب للرافعى .

(٢) ٥٠ ــ ٦٤ مقدمة لدراسة بلاغة العرب لضيف ــ ط ١٩٢١ بالقاهرة .

(٣) ص ١١٣ و ١٢٨ و ١٣١ ــ ١٣٥ طبعة عام ١٩١٤ .

(٤) مادة محمد من دائرة معارف الاديان والعقائد .

كثيرة من لغة الشعر الجاهلي[١]. كما يرى أن الشعر الجاهلي في معظمه مصنوع، وضع على مثال القرآن[٢] . وقد أكد ذلك في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية عام ١٩١٦[٣] . وقد تصدى لارد عليه السير « تشارلس جيمس ليال » في مقدمة ترجمة « المفضليات للإمام المفضل الضبي — ١٨٩ م » المطبوعة عام ١٩١٨ ، ثم عاد مرجليوث وكتب في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية عام ١٩٢٥ مقالا ذكر فيه أدلته على انتحال الشعر الجاهلي[٤] .

هذه هي جملة الآراء التي قيلت عن انتحال الشعر الجاهلي قبل أن يصدر الدكتور طه حسين كتابه « في الشعر الجاهلي » ، ويبني هذه النظرية ويفصلها، ويتوسع في ذكر أدلتها في كتابه « الأدب الجاهلي » .

— ٤ —

أهم أدلة الدكتور طه على نظريته :

أولا : لا يمثل الشعر الجاهلي حياة الجاهليين الدينية ، ولا العقلية ، ولا يصور لنا ما كان بينهم وبين غيرهم من الأمم المجاورة لهم من صولات سياسية ولا يصور لنا حياة العرب الاقتصادية[٥] .

وقد يكون رأي تولدكه المستشرق المعروف مناقضا كل المناقضة لرأي

(١) كتاب محمد وظهور الاسلام لمرجليوث ، المطبوع عام ١٩٠٥ .
(٢) راجع ص ٣٥٢ مصادر الشعر الجاهلي .
(٣) ص ٣٩٧ — راجع ص ١٧ من كتاب نقض كتاب في الشعر الجاهلي للشيخ الخضر حسين .
(٤) ٣٥٢ مصادر الشعر الجاهلي ، ١٧ نقض كتاب « في الشعر الجاهلي » للخضر حسين ، ٧٥ نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي للمسلوت .
(٥) ٧٠ — ٨١ الأدب الجاهلي لطه حسين .

الدكتور طه ، حيث ذهب إلى السبع الطوال أو المعلقات خالية بالتأكيد من التزييف أو التزوير فلا يشك فى صحتها .

ويؤكد ريتان صحة الشعر الجاهلى وثبوت صدقه بلا تيد ولا حصر ، فإن للمعلقات وديوان الحماسة وكتاب الأغانى وديوان الهذليين قد تبلها العلماء ، وسلموا بأنها سابقة فى معناها ومبناها لبعث محمد ، أى أن العلماء أقروا صحتها شكلا وموضوعاً ، وأقروا انحدارها إلينا من العهد المتقدم على الإسلام ، أما فيما يتعلق بالمعانى فلا يجوز الشك فيها لأن هذه الأشعار تمثل لنا الحياة الجاهلية ، كما تمثلها مرآة كاملة ، وهذه القصائد تتعلق بشخصيات وحوادث حقيقية .

ولا يوجد ما يبيح لنا أن نفترض — كما افترض شواتز — أن المسلمين قد أبادوا الأدب الجاهلى بسبب عداوتهم للوثنية ، فإن افتراضا كهذا يتنافر مع النتيجة الثابتة ، التى تدل على أن الكتابة لم يشع استعمالها عند العرب إلا قبل محمد بقرن واحد تقريبا ؛ ويجب علينا أن نمنح درجة أعلى من التصديق والصحة للمقطوعات الشعرية الصغيرة المثبتة فى كتب التاريخ والشعر الجاهلى ، فإن هذا هو فى الحق أقدم أنواع الشعر العربى . . ثم يقول ريتان أيضا : وفى الحق نعتقد أن العرب لم يغيروا فى الشعر الجاهلى شيئا عن قصد ، وأن الاختلافات التى وجدت هى من النوع الذى لا يمكن اتقاؤه فى حالة تداول النصوص بين أفواه الحافظين لها ، دون معونة التقييد بالكتابة(٥) .

وقال نيكلسون فى كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » ص ١٣١ : كان(٦)

---

(١) ٣٥٤ و ٣٥٥ تاريخ اللغات السامية لريتان نقلا عن ص ٣٠٢ من كتاب « الشهاب الراصد » .

(٢) ٣٦٢ المرجع السابق .

(٣) هذا النص منقول عن كتاب الشهاب الراصد ص ٣٠٤ .

الشعر الجاهلى محفوظا بالتواتر الشفوى ، وتساءل عن سر إمكان ذلك وأجاب عن هذا التساؤل فى قوة وتأكيد لصحة هذا الشعر .

والحياة الجاهلية فى كل صورها وألوانها لا يمكن أن نجد وثيقة كبيرة تدل عليها إلا الشعر الجاهلى .

يقول « تين » فى مقدمة كتابه « تاريخ فنون الأدب عند الإنجليز » : إن الأدب صورة كاملة صحيحة من الأشخاص والزمن الذى يعيشون فيه[1] . ويقول نيكلسون أستاذ آداب اللغة العربية فى جامعة أكسفورد سابقا ومؤلف كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » — ص ١١ — من مقدمة الكتاب المطبوع عام ١٩١٤ : (إن الشعر الجاهلى مرآة الحياة العربية) ، ويقول أيضاً فى ص ٢٦ : (مزايا العصر الجاهلى مرسومة صورها بأمانة ووضوح فى الأغانى والأناشيد التى نظمها الشعراء الجاهليون) — ويقول كذلك فى صفحة ٢٧ : (إن الأدب الجاهلى المنظوم منه والمنثور من تصوير حياة تلك الأيام — الجاهلية — تصويرا أقرب ما يكون من الدقة فى مظاهره الكبرى) .

ويقول ثوربيكة THORBECKE المستشرق الألمانى فى كتابه « عنترة أحد شعراء الجاهلية »[2] : « لا نملك مصادر موثوقا منها لتدوين تاريخ تلك الفترات البدوية سوى القصائد والمخطوطات المحفوظة عن شعراء الجاهلية » . وقال أيضاً فى كتابه ص ٧٩ : « يمكن تعريف الشعر الجاهلى بأنه وصف مزين بالشواهد لحياة الجاهلية وأفكارها » .

ويقول نولدكه المستشرق الهولندى فى « كتابه الشعر العربى القديم » —

(١) ص ٣٩ الشهاب الراصد — محمد لطفى جمعة .
(٢) راجع ص ١٤ من الكتاب .

الجاهلى ـ ص ١٧[1] : إن عادات العرب الجاهليين وأحوالهم معلومة لنا بدقة من أشعارهم ، وفى الشعر الجاهلى ما يعتبر الدارى من أوصاف الحياة والعادات فى البادية .

إن الشعر الجاهلى فى رأينا لمن وثيقة خطيرة تصور حياة الجاهليين وألوان معيشتهم ، وتصف البيئة الجاهلية بما فيها من حيوان ونبات وأرض وجبال وأشجار ووديان وقرى وصفا دقيقا ؛ وتعبّر تعبيرا واضحا عن الأمطار والرياح والجو ، وهى سجل لتاريخ الجاهليين وأيامهم وأخبارهم . يقول محمد لطفى جمعة فى كتابه « الشهاب الراصد »[2] : « يدل الشعر الجاهلى على نفوس ناظميه وحياتهم ، بل إنه أصدق مثال لحياة العرب أنفسهم » .

الشعر الدينى الذى يمثل الحياة الدينية عند الجاهليين كثير ومبثوث فى مختلف المصادر القديمة . ويرى جورجى زيدان أن منظومات العرب الجاهليين فى الناحية الدينية قد ضاعت فى أثناء الأجيال لعدم تدوينها لاشتغالهم عنها بالحماسة والفخر ، فلما جاء الإسلام أنصفى الرواة عنها لأنها وثنية والإسلام يمحو ما قبله .

وفى الشعر الجاهلى دلالات واضحة كثيرة على اتصال العرب بغيرهم من الأمم ، وعلى ألوان الحياة الاقتصادية التى كانت تظلهم ، ولكن هذا الشعر مفرق فى مختلف المصادر ، ولو ضم مجموعا فى كتاب واحد .

ثانياً : ما ذكره الدكتور طه من نفى وجود شعراء يمنيين ، ومن عكسه

---

(١) طبع عام ١٨٦٩ فى هانوفر ـ نقلا عن ص ٤٠ من كتاب الشهاب الراصد لمحمد لطفى جمعة .

(٢) ٤١ الشهاب الراصد .

لما ذهب إليه الباحثون القدماء حول نظرية تنقل الشعر فى القبائل . . وهو إنما يعتمد فى ذلك على أدلة هى تصورات لا ترتفع إلى درجة الحقيقة .

ثالثاً : الشعر الجاهلى واللغة :

يستدل الدكتور طه على انتحال الشعر الجاهلى بأنه لا يمثل اللغة العربية . فالدكتور يرفض الشعر المنسوب إلى شعراء من اليمن لأن لليمن لغة تخالف لغة قريش ، ويشك فى هجرة اليمنيين إلى الشمال ، وليس من المعقول عنده أن يكون كل الشعراء قد هاجروا من اليمن ، ويقول : إنه ليس لليمن فى الجاهلية شعراء ، وكل ما يضاف إلى « جرهم » وسواهم منحول . إن المأثور من شعر الشعراء القحطانيين مروى باللغة العدنانية الفصحى ، مع أنهم لم يكونوا يتكلمون بها ولم يتخذوها لغة أدبية لهم قبل الإسلام ، مما يدل — فى رأى الدكتور — على انتحال هذا الشعر على القحطانيين .

ولا نسلم مع وجود فوارق بين الحميرية والعدنانية أنهما لغتان متميزتان ، بل لا يزيد الخلاف بينهما على أنه اختلاف لهجات ، والفوارق الكبيرة التى يجسمها بعض العلماء بين الحميرية والعدنانية يمكن حملها على أنها صورة لحياة قديمة جداً قبل عمل عوامل التهذيب الأولى فى الجزيرة العربية . ولو سلمنا بهذه الفوارق الكبيرة بين اللغتين القحطانية والعدنانية ، فإنه لا يترتب على ذلك وجـــوب تمثيل القحطانية فى شعر الشعراء القحطانيين المروى شعرهم ، لأن القحطانيين فريقان : سبئيون ، وحميريون ، فالسبئيون[1] نزحوا من الجنوب إلى الشمال قبل الإسلام بعد سيل العرم ، كما تؤكد ذلك جميع الوثائق التاريخية ، ومصادر كتب اللغة والأدب ؛ ومنهم اللخميون المناذرة ملوك

(١) الدولة السبئية عاصمتها مأرب (٩٥٠ — ١١٥ ق م) .

الحيرة ، والغساسنة ملوك الشام ، والأوس والخزرج بسكان المدينة ، وسواهم .
أما « حمير »[1] فهى التى كانت بأرضها فى ظفار وصنعاء وما جاورها ، وهى التى قال فيها أبو عمرو بن العلاء (١٥٤ هـ) : ما لسان « حمير » وأقاصى اليمن بلساننا ، ولا عربيتهم بعربيتنا .

لقد تربت عوامل التهذيب اللغوى المتعددة بين لغات الجنوب والشمال ، وجعلت هجرة السبئيين إلى الشمال الأفة العدنانية لغة لهم ، وسكان الجنوب على أية حال إنما يرجع أكثرهم إلى هجرات شمالية ، فقد ثبت للباحثين من أمثال موار ، وجلازر أن المعينيين[2] أصلهم من عمالقة العراق بدو الآراميين الذين كانوا فى أعالى جزيرة العرب قبل الإسلام وقبل ظهور حمورابى بجملة قرون ، والدولة الحميرية حكمت ستة قرون ونصف قرن (١١٥ ق م ـ ٥٢٥ م) وعدد ملوكها ثلاثون ملكا ، وقد فتح الأحباش اليمن فى عهد الملك الحميرى ذى نواس (٥١٥ ـ ٥٢٥ م) وقد قام الأمير الحميرى سيف بن ذى يزن بتحرير اليمن بمساعدة الفرس .

أما دولة سبأ فهى التى كانت قبل الدولة الحميرية وقد عاشت قرونا طويلة قبل الميلاد حتى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد أيضاً ، وقد انتهت حضارة هذه الدولة وسيادتها بفعل عاملين كبيرين :

الأول — انتقال التجارة إلى الطريق البحرى وانقطاع مرورها بسبأ .

والثانى — « سيل العرم » الذى حطم « سدّ مأرب » فأغرق البلاد ، وهاجر أهلها منها ، وتفرقوا فى أرجاء الجزيرة العربية .

---

(١) الدولة الحميرية (١١٥ ق م ـ ٥٢٥ م) وعاصمتها ظفار .
(٢) الدولة المعينية قبل السبئية وعاصمتها القرن (١٢٠٠ ـ ٦٥٠ ق م) .

وقد كانت هناك عوامل عديدة قربت على أية حال لغة السبئيين والحميريين من لغة العدنانيين ، واستمرت هذه العوامل تعمل عملها إلى ما قبل ظهور الإسلام ؛ وإلا فكيف كان يفهم ولاة رسول الله على اليمن لغة أهل اليمن وكيف فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لغة وفد اليمن الذى قدم المدينة عام الوفود ليتكلم بين يدى الرسول صلوات الله عليه ؟

إن القحطانية والعدنانية فى الأصل لغة واحدة ، والخلاف بينهما لا يرتفع عن مستوى كونه خلافا فى اللهجات .

وإنكار شعر شاعر مثل امرئ القيس — بحجة أنه يمثل وأن لغته تغاير اللغة العدنانية التى روى بها شعره — لا يمثل لنا منطقا تاريخيا يرد على ما نعرف من الأصول العدنانية لقبائل اليمن ، ومن هجرة قبيلة كندة إلى الشمال ونشأة امرئ القيس فى مواطن بنى أسد العدنانيين ، وليس من المعقول أن يكون ملكا على الشماليين ويتكلم بلغة غير لغتهم وهو بين أظهرهم . ويقول « سيديو » فى كتابه المشهور « خلاصة تاريخ العرب »: كان بين الإسماعيلية — العدنانية — والقحطانية تناقس العاصرة المؤدى إلى اختلاف الكلمة ، ثم مالوا إلى الوحدة السياسية ؛ ورأوا الأشعار وسيلة لانتشار فخارهم ، وسبيلا إلى وصول مآثرهم وأعمالهم إلى أحفادهم فأحيوها وعكفوا عليها ، لكن كلام شعراء نجد والحجاز لم يفهمه شعراء اليمن ، بل لم تتفق قبائل بلد واحد على لغة واحدة .

رابعاً : الشعر الجاهلى واللهجات :

يؤكد الدكتور طه نظريته فى انتحال الشعر الجاهلى بأن اختلاف اللهجات أمر ثابت لا شك فيه ، ونحن لا نجد أثرا لهذا الاختلاف فى الشعر

الجاهلى المأثور ، مما يدل على انتحال هذا الشعر ، وأنه قد حمل حملا على هذه القبائل بعد الإسلام[1] ، ويرى أن شعر الشعراء الذين ينتسبون إلى ربيعة منحول لأنه لا يمثل لهجاتهم التى كانوا يتكلمون بها .

ونحن نرد على ذلك بأن اختلاف اللهجة لا يؤثر على وزن الشعر وقافيته ، لأن اللهجة هى طريق أداء الكلام إلى السامع ويتمثل ذلك فى التفخيم والترقيق والإمالة وعدمها ، والجهر والهمس ، مما لا يؤثر فى ذات الحرف ولا يستلزم العدول عنه أو عن الكلمة إلى غيرها ، والجملة الواحدة نستطيع النطق بها مختلفة الهيئة مع بقاء حروفها وكلماتها فى كل صورة من صور النطق ، كما فى تلاوة القرآن الكريم بالقراءات المتعددة .

على أن التباين المتناكر من اللهجات قد أزالته عوامل التهذيب اللغوى العديدة فى جزيرة العرب ، وسيادة لغة قريش ولهجتها قبل الإسلام ؛ وكان لمكانة قريش ولتنقلها بين القبائل والأمم ، ولشهودها مواسم الحج وأسواق العرب وكثيرا من حروبهم ؛ كان لكل ذلك أثره فى صفاء لهجة قريش ، وعذوبة لغتها ، وتخيرها من لهجات ربيعة وغيرها ، مما جعل لهجتها تسود قبل الإسلام جميع لهجات القبائل ، وصارت القبائل المختلفة وشعراؤها يحاكونها فى بلاغتها وفصاحتها وسمو لهجتها ، وكانت صلات المصاهرة والمجاورة والاختلاط بين القبائل تغطى على كل خلاف لغوى ، وتقضى على كل فرقة لغوية بينها .

إن اختلاف لهجات القبائل العربية أمر مسلم به ، ولكن هذا الاختلاف

(١) ص ٩٦ وما بعدها من كتاب الأدب الجاهلى .

لا أثر له إطلاقا على الشعر ولا يخرج القبائل عن وصفها بأنها ذات لسان واحد ولغة واحدة .

— ٩ —

وبعد : فإن نظرية الدكتور طه حسين فى انتحال الشعر الجاهلى تعدُّ من أعجب النظريات الأدبية الجديدة ومن أشدها نفاذا ، ومن أقواها إثارة ، وأكثرها حوارا وجدلا .

وقد أحدثت أثرها فى تطور الدراسات الأدبية والنقدية ، وفى التمهيد للمناهج الجديدة ، فى دراسة الأدب ونقده ، وفى قيام حركة حوار رائعة خصبة لم تشهد الحركة الأدبية الحديثة والمعاصرة مثيلا لها من قبل ولا من بعد .

ومهما قيل فى نقد هذه النظرية وفى التعليق عليها فإنها بلا ريب تعدُّ حدثا أدبيا فى تاريخنا الأدبى المعاصر ، وتعدُّ ظاهرة أدبية جديرة بالتسجيل والتفهم ، وتعد علامة على طريق البحث الأدبى والتجديد فيه .

وقد كان الدكتور طه عجيبا فى أسلوبه وتفكيره وجمعه بين الآراء المتباينة ليؤلف منها وحدة متسكاملة . وكان فى إثارته ، وفى جدله وحواره ، وفى نقده وتعليقه ، شيئاً غريبا .

وكان له من ملكاته ومواهبه وثقافته ، ومن ذكائه وأدبيته ، ومن ذوقه الأدبى الرفيع ، ما جعله يصعد إلى القمة ، ويسمو إلى الذروة ، ويجلس على أعلى مكان فى صرح الأدب ، حتى لقّب بعميد الأدب العربى ، وكان هو فى النثر الأدبى والدراسة الأدبية كشوقى بين الشعراء ؛ كل منهما احتل منزلة السيادة ، هذا فى النثر ، فصار عميده ، وذاك فى الشعر فصار أميره .

وعلى الجملة فإن طه حسين ونظريته فى انتحال الشعر الجاهلى سيظلان موضع الإثارة والاهتمام على مرور الأيام ، وتوالى العصور .

أسباب الانتحال فى رأى الدكتور طه حسين

١ — العامل السياسى :

السياسة قد خلقت خصومة حادة بين الأنصار وبين أهل مكة الذين آذوا الرسول صلى الله عليه وسلم وحاربوه وأخرجوه حتى اضطر إلى الهجرة منها إلى المدينة ، وهذه الخصومة هى التى أدت إلى الوضع والاختلاق بل هى التى دعت إليه دفعاً .

ويسوق الدكتور طه دليلا على ذلك قصيدة حسان بن ثابت فى مدح الزبير بن العوام وأسفه على ضياع إنصاف الأنصار وموالاة النبى لهم ، فقد حدث الرواة أن الزبير بن العوام مر بنفر من المسلمين فإذا فيهم حسان ينشدهم ، وهم غير حافلين بما يقول ، فلامهم على ذلك ، وذكرهم موقع شعره من النبى صلى الله عليه وسلم ، وأثر ذلك فى نفس حسان فقال يمدحه :

أقام على عهد النبى وهديه حواريه والقول بالفعل يعدل

أقام على منهاجه وطريقه يوالى ولى الحق والحق أعدل

هو الفارس المشهور والبطل الذى يصول إذا ما كان يوم محجل

إلى آخر ما قاله فى مدحه ..

وقد روى هذه القصة نفر من آل الزبير ومن أحفاد عبد الله بن الزبير ، أفتشعر أن تكون عصبية الزبيريين قد مدت هذه الأبيات وطوّلتها وتجاوزت بها ما كان قد أراده حسان من الاعتراف بالجميل إلى ما كانت تريده العصبية

الزبيرية من تفضيل الزبير على منافسيه ، أو على منافس ابنه عبد الله[1] .

كذلك يسوق الدكتور طه قصيدة النعمان بن بشير التي أنشدها وهو جالس بين يدى معاوية ، حين قال الأخطل فى هجاء الأنصار :

ذهبت قريش بالمكارم والندى والمؤم تحت عمائم الأنصار

فدخل النعمان على معاوية وأنشده القصيدة :

معاوى إلا تعطنا الحق نعترف على الأزد مشدود علينا العمائم

أيشتمنا عبد الأرقم صلة فماذا الذى تبدى عليك الأراقم

فما لى ثأر دون قطع لسانه فدونك من ترضيه عنك الدوائم

إلى أن يقول :

وإنى لأغضى عن أمور كثيرة سترقى بها يوما إليك السلالم

أصانع فيها عبد شمس وإنني لغلك الى فى النفس منى أكاتم

فما أنت والأمر الذى لست أهله ولكن ولى الحق والأمر هاشم

إليك يصير الأمر بعد شتاته فمن لك بالأمر الذى هو لازم

بهم شرع الله المهدى اهتدى بهم ومنهم له هاد إمام وخاتم

فظاهر جدا أن هذه الأبيات الثلاثة الأخيرة على أقل تقدير قد حملت على النعمان بن بشير حملا ، ثم يخلص من ذلك إلى أن العصبية قد دفعت كل قبيلة إلى أن تعود إلى جاهليتها وتعتز بقديمها وتنشر مفاخره ، وتردد من أمجاده ،

(١) فى الأدب الجاهلى .

وكانت فى حاجة إلى الشعر تقدمه وقوداً لهذه العصبية المضطرمة ، فاستكثرت من الشعر ، وقالت منه القصائد الطوال وتحلتها شعراء القدماء[1] .

٢ — العامل الدينى :

وكان للعامل الدينى أثره القوى كذلك فى انتحال الشعر وإضافته إلى الجاهليين — فيما يراه الدكتور طه حسين — إذ كان القصاص يلجأون إليه لتفسير ما يجدونه مكتوباً فى القرآن من أخبار الأمم القديمة البائدة كعاد وثمود ومن إليهم ، فالرواة يضيفون إليهم شعراً كثيراً . وقد كفانا ابن سلام نقده وتحليله حين جد فى طبقات الشعراء فى إثبات أن هذا الشعر وما يشبهه مما يضاف إلى تبع وحمير موضوع منتحل ، وضعه ابن إسحاق ومن إليه من أصحاب القصص .

ومن ذلك أيضاً شعر الشواهد الذى اخترعه الرواة حين عمد الدارسون إلى دراسة القرآن لغوياً وإثبات صحة ألفاظه ودلالتها على معانيه فقد حرصوا على أن يستشهدوا على كل كلمة من كلمات القرآن بشىء من شعر العرب يثبت أن هذه الكلمة عربية لا سبيل إلى الشك فى عربيتها .

٣ — القصص : فقد وجد الفن القصصى وازدهر فى عصر غير قصير من عصور الأدب العربى الراقية . ازدهر أيام بنى أمية وبدأ من أيام بنى العباس ، حتى إذا كثر التدوين وانتشرت الكتب ، واستطاع الناس أن يلهوا بالقراءة دون أن يتكلفوا الانتقال إلى مجلس القصاص ضعف أمر هذا الفن وأخذ يفقد صفته الأدبية الراقية شيئاً فشيئاً ، حتى ابتذل وانصرف عنه الناس[2] .

---

(١) فى الأدب الجاهلى ١٢٥ — ١٣٢ وراجع : الأدب العربى بين الجاهلية والاسلام للدكتور المنلوطى ص ٢٠٨ .

(٢) فى الأدب الجاهلى راجع من ص ١٤٨ — ١٥٩ ، الأدب العربى بين الجاهلية والاسلام د. المنلوطى ص ٢٠٩ — ٢١٦ .

كان قصاص المسلمين يتحدثون إلى الناس فى مساجد الأمصار فيذكرون لهم قديم العرب والعجم وما يتصل بالنبوات ، ويخوضون معهم فى تفسير القرآن والحديث ورواية السير والمغازى والفتوح إلى حيث يستطيع الخيال أن يذهب بهم لا حيث يلزمهم العلم والصدق أن يقفوا ، وكان الناس كافين بهؤلاء القصاص مشغوفين بما يلقون إليهم من حديث ، وما أسرع ما فطن الخلفاء والأمراء لقيمة هذه الأداة الجديدة من الوجهة السياسية والدينية فاصطنعوها وسيطروا عليها واستغلوها استغلالا شديداً ، وأصبح القصص أداة سياسية كالشعر .

وكان هذا القصص الذى سيطر على الحياة فى العصر الأموى فى أمس الحاجة إلى شعر يزينه من حين إلى حين ، ومن هنا عمد القصاص إلى وضع الشعر لمزدان به قصصهم من ناحية وليستغلها القراء والسامعون من ناحية أخرى، ومن ذلك أخبار المعمرين الذين مدت لهم الحياة إلى أبعد مما ألف الناس .

٤ — الشعوبية : ثم يتحدث الدكتور طه عن الخصومة بين العرب والموالى فى الإسلام فيقول[1] : « أما نحن فنعتقد أن هؤلاء الشعوبية قد نحلوا أخباراً وأشعاراً وأضافوها إلى الجاهليين والإسلاميين ولم يقف أمرهم عند نحل الأخبار والأشعار ، بل هم قد اضطروا خصومهم ومناظريهم إلى النحل والإسراف فيه » ويقول أيضاً : « كانت الشعوبية تنحل من الشعر ما فيه عيب للعرب وغض منهم وكان خصوم الشعوبية ينحلون من الشعر ما فيه ذود عن العرب ورفع لأقدارهم » .

---

(١) فى الأدب الجاهلى ص ١٦٠ — ١٦٧ .

٥ — الرواة : والرواة فى رأى الدكتور طه حسين « بين اثنين : إما أن يكونوا من العرب ، فهم متأثرون بما كان يتأثر به الوالى من تلك الأسباب العامة وهم على تأثرهم بهذه الأسباب العامة متأثرون بأشياء أخرى هى التى أريد أن أقف عندها وقفات قصيرة ، ولعل أهم هذه المؤثرات التى عبثت بالأدب العربى وجعلت حظه من الهزل عظيما : مجون الرواة وإسرافهم فى اللهو والعبث ، وانصرافهم عن أصول الدين وقواعد الأخلاق إلى ما قد أباه الدين وتنكره الأخلاق » .

هذه هى الأسباب التى رآها الدكتور طه حسين داعية للوضع والانتحال فى الشعر الجاهلى .

الفصل الرابع

صور من الشعر الجاهلى ، نقدها

النص الأول

— ١ —

امرؤ القيس يصف الليل من معلقته الرائعة

وليل كموج البحر أرخى سدوله ... على بأنواع الهموم ليبتلى[1]

فقلت له لما تمطى بصلبه ... وأردف أعجازا ونا بكلكل[2]

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى ... بصبح وما الاصباح منك بأمثل[3]

فيالك من ليل كأن نجومه ... بكل مغار الفتل شدت بيذبل[4]

كأن الثريا علقت فى مصامها ... بأمراس كتان إلى صم جندل[5]

روعة الصورة :

إن القارىء يقف أمام هذه القطعة الفنية الجميلة متأملا معجبا مشدوها ،

---

(١) سدوله : ستوره ، شبه الليل بموج البحر فى تراكمه وشدة ظلمته .

(٢) تمطى : امتد ، صلبه : متنه وظهره ، ويروى (بجوزه) أى وسطه ، الأعجاز جمع عجز : وهو مؤخر الحيوان ، ناء بكلكله : نهض بصدره .

(٣) انجلى : انكشف ، والباء فيه من صلة الكسر ، امثل : أحسن ، ويروى (وما الاصباح منك بأمثل) أى انا أبدا مغموم فى الليل وفى الصباح .

(٤) المغار : الشديد الفتل ، يذبل : اسم جبل .

(٥) المصام : المكان الذى يقام فيه ، ولا يبرح منه كمصام الفرس ، وهو مربطه ، ومصام النجم : معلقة ، والامراس جمع مرس وهو الحبل .

من روعة البيان وجمال التصوير ودقة وقوة التأثير ومن الشخصية الفنية الكاملة التي تبرز في هذه الأبيات في وضوح وجمال .

الليل رهيب ، ظلماته كالموج الهجي ، وقد أقبل على الشاعر فأثار في نفسه الذكريات ، وهاج كوامن الاحزان وبعث الهموم من مرقدها ، وترك النفس موزعة حيرى ممزعة .

واستعرت صور الماضي وأحداث الحاضر تتراءى أمام عينيه ، يتذكرها ويذكرها ، يتذكر حياته اللاهية العابثة ، وهذه الآمال والآلام التي تعتلج في صدره وذكريات الحب ، والأحباب الخالدة التي لا تبلى ملامحها .

وطال الليل على الشاعر ومال ، وامتد ، فرسم لطوله هذه الصورة البارعة التي نجدها في البيت الثاني ، فكأنه يتمطى بصلبه ، وكأن أعجازه وأواخره يمد بعضها بعضا ، وكأنه يتم بصدره على المهمومين والمحزونين ليوسعهم ألما وشقاء .

ويتمنى الشاعر أن يذهب الليل بقاتمته ورهبته ، وأن يشرق الصبح بضوئه وجماله ولكنه يعود فيتذكر أحزانه كامنة في نفسه ، فلن يسري عنه الهم إشراق الصباح ولا ضجيج الحياة في أول النهار .

وتستمر الصور والذكريات تطوف بخيال الشاعر وأمام عينيه اليقظتين ، والليل كما هو ، لم يذهب ، ولم يطلع الصباح الجميل ، وكأنه لا يريد أن يذهب ، بل كأنه مشدود بحبال قوية شدت بصخرة من صخور هذا الجبل الغليظ .

صور جميلة لا يعدل جمالها جمال ، وخيال يقظ ، مشبوب لا يناله في استنباط دقائق التصوير خيال .

وهكذا كان امرؤ القيس وبحق ما كان زعيم الشعراء في الجاهلية ..

موازنة بين امرىء القيس والنابغة فى وصف الليل

١ — قال المرزبانى فى كتابه الموشح : تشاجر الوليد بن عبدالملك ومسلمة أخوه فى شعر امرىء القيس والنابغة فى وصف الليل : أيهما أجود ؟ فرضيا بالشعبى ، فأحضر فأنشده الوليد للنابغة :

كليني لهم يا أميمة ناصب ... وليل أقاسيه بطيء الكواكب

تطاول حتى قلت ليس بمنقض ... وليس الذى يرعى النجوم بآيب

وصدر أراح الليل عازب همه ... تضاعف فيه الحزن من كل جانب

وأنشده مسلمة أبيات امرىء القيس فى وصف الليل فلما وصل إلى آخر أبيات امرىء القيس ضرب الوليد برجله طربا ، فقال الشعبى : بانت القضية ، قال الصولى : إن النابغة جعل صدره مأتما للهموم ، وجعلها كالنعم العازبة بالنهار عنه ، الرائحة مع الليل إليه ، كما تريح الرعاة إبلهم بالليل إلى أماكنها . . والشعراء على هذا المعنى متفقون ولم يشذ عنه ، ويخالفه منهم إلا أحدثهم بالشعر والمقتدى بالإحسان فيه ، أما امرؤ القيس ، فإنه يحذقه ، وحسن طبعه ، وجسودة قريحته كره أن يقول إن الهم يخف عنه فى نهاره ، أو يزيد فى ليله ، فجعل النهار والليل سواء عليه فى قلقه وهمه ، وجزعه وغمه ، فقال :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى ... بصبح وما الاصباح منك بأمثل

٢ — أن ليل النابغة طويل كواكبه بطيئة ، ولكنه عند امرىء القيس ثابت الكواكب ، فالثريا مشدودة بأمراس كتان إلى صخر قوى لا تتحرك ، وبهذا تفوق النابغة ، ولهذا تنازع الوليد ومسلمة ، ثم التفت الوليد إلى معنى

امرىء القيس فى وصف الليل بأنه ثابت الكواكب لا يطيّها فحسب ، فضرب الأرض برجله طربا ، وقال الشعبى لهما : بانت القضية .

والليل وحده مسكان الهموم عند النابغة ، وهو أول من ثرر هذا المعنى ، وهو تزايد الهموم وتجمعها بالليل ، أما امرؤ القيس فليله ونهاره سيان ، ولو كنا بسبيل وصف الهم لتفوق امرؤ القيس ، ولكنا بسبيل وصف الليل ، ومن هنا تفوق النابغة على امرىء القيس حتى قيل : ليل نابغى .

أما امرؤ القيس فله إلى جانب ما سبق روعة تصوير الليل بجعله كأمواج البحر ، وتصويره فى صورة المتمطى ذى الصلب والصدر والاعجاز ، وإن كان يعاب عليه التضمين وهو أنه أتى بقول فى بيت وبمقوله فى بيت آخر .

شاعرية امرىء القيس فى رأى النقاد :

وفى امرىء القيس يقول الآمدى : وفضلوا امرؤ القيس لأن الذى فى شعره من دقيق المعانى وبديع الوصف ولطيف التشبيه وبديع الحكمة ، فوق ما استعار سائر الشعراء منه فى الجاهلية والإسلام . ولولا تطيف المعانى واجتهاد امرىء القيس فيها وإتعابه عليها لما تقدم على غيره ولكان كسائر شعراء أهل زمانه . ألا ترى أن العلماء بالشعر إنما احتجوا فى تقديمه بأن قالوا هو أول من شبه الليل بالهموم وذكر الوحش والطير وأول من قال قيد الأوابد إلخ . فهل هذا التقديم إلا لاجل معانيه[1] .

ولقد سئل جرير رأيه فى امرىء القيس فقال : اخذ اطيب الشعر تعليق ، وهذا رأى يمثل اقتدار امرىء القيس على الشعر وشدة تمكنه منه .

---

(١) ٨٠ الموازنة للآمدى .

وقيل للفرزدق : من أشعر الناس يا أبا فراس ؟ فقال ذو القروح ، قيل حين يقول ماذا ؟ قال حين يقول :

وقاهم جـــدهم بـــبنى أبيهم وبالأشـــقين ما كان العقـــاب

وقال ابن يحيى ، سمعت من لا أحصى من الرواة يقولون أحسن الناس ابتداء فى الجاهلية امرؤ القيس حيث يقول : ألا عم صباحا أيها الطلل البالى ، وحيث يقول : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ، وفى الاسلام القطامى حيث يقول : إنا محيوك فاسلم أيها الطلل ، ومن المحدثين بشار حيث يقول :

أبى طلـل بالجزع أن يتكلما وهلا علیه لو أجـــاب متيما

شعر امرئ القيس :

أجمع الأدباء على أنه رأس الشعراء الجاهليين ، وزعيم الطبقة الأولى منهم ، على الرغم من أنه مسبوق بأمثال أبى دؤاد الأيادى ، وخاله المهلهل بن ربيعة لأنه برز عنهم ، وفاق عليهم ، وطرق كثيرا من الأبواب ، وأفاض فى نواح متعددة وأجاد فى الحديث عن النساء ، ووصف الخيل والليل ، وإيراد الاستعارة واستعمال التشبيه ، ومن قصائده يشم الإنسان رائحة النبل ، ويلمح شارات السيادة والسؤدد . . وهو وإن ظهرت فيه البداوة فى جفوة التعبير ، وخشونة الألفاظ ، وتجهم المعانى ، فإنه تظهر فيه — أيضاً — الحلل السندسية ، والديباجة الخسروانية ، وجمال المعنى ، ورقة التسيب ، مما كان منه لمن جاء بعده أروع مثال يحتذى ، وأحسن حلة ينسج الشعراء على منوالها . . . ومع كونه يفحش فى غزله فى بعض الأحايين ، وتبدو فى شعره صور واضحة لا ستهتاره ولذاته ، ولهوه ومجونه ، فقد كان لرحلاته المتنوعة إلى الشام والحبش وغيرها أثر فى سعة

خياله وحسن تصويره . واستعمال ألفاظ جديدة .. وقد ورث عنه الأدب العربى أبياتاً كثيرة يتمثل بها كقوله . .

وقد طوفت فى الآفاق حتى ... رضيت من الغنيمة بالإياب[1]
وإنك لم يفخر عليك كفاخر ... ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب[2]
كذلك جدى لا أصاحب صاحباً ... من الناس إلا خاننى وتغيرا[3]

ويظهر من تتبع حياته وقراءة ديوانه أن شعره قبل مقتل أبيه حيث كان غارقاً فى اللهو ، سابحاً فى الجنون ، مشتغلا بالسكر والعربدة ، ومنادمة المستهترين ، ومصاحبة الأشرار ، كان شعرا يمثل حياة شاب مترف عابث لا يلوى على الحوادث ولا يتأثر بالخطوب ، ولا يعنيه سوى حاضره الباسم ، ويومه الميمون ، يغنم فيه الصفو ، ويستبق اللذة ، من غير تجهم ولا عبوس .. أما شعره بعد ذلك ففيه شكوى من الزمان والأخوان وسوء الحظ . . ومعلقته أشهر ما قال من الشعر وهى صورة لشبابه الذى كان مليئا باللذة والخلاعة والانطلاق والجرى وراء الشهوة الجامحة .

وقد يبتدأها بالوقوف على الأطلال ليبكى على أصحابها الذاهبين الذين كان من أثر فراقهم له ، وبعدهم عنه ، أنه صار يقاسى الشدة ، ويعانى الألم . .

كأنى غداة البين يوم تحملوا ... لدى سمرات الحى ناقف حنظل[4]

---

(١) طوفت بمعنى طفت وارتحلت وتنقلت ، الاياب الرجوع ..
(٢) مغلب مغلوب مرارا ، والمعنى لم يغلبك مثل الضعيف الذى تابى عليك مروءتك وشرفك أن تنازله .
(٣) الجد : الحظ .
(٤) تحملوا ارتحلوا ، سمرات جمع سمرة وهى شجرة الطلح ، ناقف الحنظل الذى يشقه ليستخرج « بذره » وعينه تدمع من مرارة الحنظل .

وقـوفا بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل(١)
وإن شفائي عـبرة مهراقـة فهل عند رسم دارس من معول(٢)

وينتقل من هذا الوصف لحاله ، والحديث عن وجده ، إلى أن ذلك دأبه من أم الحويرث وجارتها أم الرباب ، ويذكر أياما له معهما ، ومع غيرهما « ألا رب يـوم منهما لك صالح » وعقره للعذارى مطيته ، وارتماءه بلحمها في أنس وبهجة ، وفرح ولذة ، واقتحامه الخطر على عنيزة ، وفرقها من ذلك ، وطلبه منها جنادا للعلل ، في شيء من الإغراء الداعر ، لأنه كم دخل على مثلها من حيل أو مرض .

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق وتحتي شقها لم يحـول(٣)
ويوما على ظهر الكثيب تعذرت علي وآلت حلفـة لم تحلل(٤)
أفاطم مهلا بعض هذا الدليل وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

ويستمر في هذه الصورة الغزلية الرائعة ، ثم ينتقل من حديث الحبيب إلى النساء واحدة بعد أخرى ، ودلالهن عليه ، وبذله لهن أو بذلهن له ، في وصف يغري ، ونعت يهيج .

---

(١) تجمل من الاحتمال ، أو تجمل بمعنى ترفق بنفسك .
(٢) مهراقة مصبوبة ، معول بمعنى تعويل واعتماد ، يقول : لايفيدك أن تبكي على طلل دارس ارتحل أهله وخلفوه أثرا بعد عين .
(٣) بشق : بناحية أو جانب وتحتي منها جانب آخر لم يتحول وهو من الفحش القول .
(٤) الكثيب جميع الرمل ، تعذرت امتنعت ، آلت حلفت ، لم تحلل لا مخلص منها ، صرمي قطيعتي وفراقي ، أجملي ارفقي .

إلى مثلها يرنو الحليم صبابة إذا ما اسبكرت بين درع ومجول[١]

ولا يزال هكذا إلى البيت الثانى والأربعين من أبيات المعلقة البالغ عددها الثمانين ثم يأخذ فى وصف الليل حتى إذا بلغ غايته منه أخذ فى وصف واد مقفر كجوف البعير تعوى به الذئاب ، وينتقل منه إلى وصف فرسه بما لا مزيد عليه من البيان الرائع ، والبلاغة الساحرة .

له أيطلا ظبى وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

ولمناسبة وصفه للفرس فى سرعة انقضاضه وتشبيهه له بالبرق يتحدث عن البرق .

أصاخ ترى برقا أريك وميضه كلمح اليدين فى حبى مكلل[٢]

يضىء سناه أو مصابيح راهب أهان السليط بالذبال المفتل[٤]

ولما كان البرق قد جاء بعده المطر فلابد من وصفه والحديث عنه كذلك :

كأن ثبيراً فى عرانين وبله كبير أناس فى بجاد مزمل[٥]

---

(١) يرنو يطيل النظر ، صبابة شوقا ، اسبكرت تطاولت بقامتها بين اترابها اللاتى يلبسن الدرع أو المجول وهو الثوب .

(٢) السرحان الذئب ، والتتفل ولد الثعلب ، والأيطل الخصر ، والارخاء والتقريب نوع من السير .

(٣) لمح : لمع والحبى السحاب المتراكم ، والمكلل الذى يشبه الاكليل .

(٤) السليط الصباح والذبال : خيط « شريطه » المفتول ، اهان أو أمال السليط بالذبال كناية عن عدم بخله ليشتد الضوء .

(٥) ثبير جبل ، وعرانين الوبل أو المطر أوائله ، والبجاد الثوب المخطط ، والتزميل التلفيف ، يشبه الجبل وقد كساه المطر من رأسه جلالا وروعة بزعيم القوم تزمل بالبجاد .

كأن ذرى رأس المجيمر غدوة من السيل والغثاء فلكة مغزل[1]

وبعد رسمه تلك الصورة الجميلة للمطر برأسي هذين الجبلين « ثبير والمجيمر » ينتقل إلى ختام المعلقة منوهاً بطرب الطيور لصفاء الجو ، وطيب الهواء وروعة الطبيعة بعد أن صنع بها الغيث هذا الصنيع :

كأن مكاكي الجواء غدية صبحن سلافاً من رحيق مفلفل[2]

ويعلق محمد هاشم عطية في كتابه الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي على معلقة امرئ القيس بعد عرضها فيقول : فأنت ترى أنه بدأ القصيدة بما عده الأدباء بحق أجود مطالع الشعر الجاهلي جملة . وضربوا بحسنه المثل ، وقد جمع في شطر هذا المطلع « قفا نبك من ذكر حبيب ومنزل » بين أشياء عدها الناس من أولياته ، لأنه وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، وذكر الحبيب والمنزل ، ثم جعل يذكر حبائبه ، ويصفهن بالطيب والنعمة في عذوبة ورشاقة ، ويتحدث عن ناقته معهن في يوم الغدير — ويرجح أنه نظم قصيدته هذه بسبب تلك القصة — وما كان من مخالفه المزوج بمطاوعة الشباب ، ونيل الملوك ... وكان في مثل عذوبة السلاف حين رقق الغزل في قوله : « أغرك مني » إلى قوله : وما ذرفت عيناك البيت ، وحين وصل إلى وصف الذيب والاستبسال في الحب ، والتعرض لهلكة في مخاتلة الأحراس بعزمهم على قتله .. ثم انتهى نحواً آخر في وصف الليل ، ووصف الفرس بما هو فيه أول الواصفين بالإجماع ، ثم وصف البرق والمطر ، وجعل الطيور — المكاكي — من شدة

---

(١) ذرى : أعالي ، المجيمر : جبل أبيض ، الغثاء : ما يحمله السيل من الحشائش والحطب ، فلكة المغزل رأسه .

(٢) المكاكي : الطيور ، سلاف خمر ، مفلفل عليه فلفل .

سرورها بصفاء السماء بعد المطر الذى غرقت فى أفاصيه السباع ، كأنما شربن رحيقاً مفلفلا . وكل هذا مفرغ فى ذوب من ماء العربية بين الجزالة والعذوبة ، تستطيع بعد ذلك أن تحكم على هـذه المعلقة بأنها أجل أثر تاريخى لتلك الفصاحة العربية فى العصر الجاهلى ، وهى فى جملة أغراضها وأوصافها وتشبيها وكناياتها المثل الذى احتذاه الشعراء بعده وجعلوه رئيس فحولهم ، والمقدم عليهم .

ألوان من النثر الجاهلى

الحكم الجاهلية :

يقصد بالحكمة القصد والصواب ، وإصابة الهدف ، ووضع الأشياء فى مواضعها ، والاعتدال فى الرأى ، والبصر بالعواقب ، والاتزان فى السلوك ، والحكيم من الناس الذى تكامل عقله ، ونضج تفكيره ، وتم رشده ، وثقل ميزانه ، وبعد نظره ، فلا تزلق به رجله ، ولا يعونه صوابه ، ولا تتخبل عنه بصيرته ، ولا يطيش به رأيه ، ولا يضع الدواء إلا فى موضع العلة ... والحكمة على هذا كلمة جامعة تتناول الصواب والصدق والقصد والاعتدال وحسن الدخول فى الأمر والخروج منه ... وفى القاموس : الحكمة العدل والعلم والحلم والنبوة والقرآن . وأحكمه أتقنه ومنعه من الفساد ... إلا أن الأدباء يقصدون بالحكمة القول الرائع الذى يصيب به صاحبه كبد الحقيقة بعبارة موجزة قد اكتست من البلاغة ثوباً جميلا ، وصادفت من القبول رغبة حارة ، ومن الذيوع ما تصادفه شمس النهار بنورها الساطع ، ودفئها الجميل . وحرارتها النافعة ، يتوامى الناس بحفظها وتناقل ألفاظها ، وتضمين كلامهم لها ، لأنها تجرى على الميزان الصحيح . والقول الصدق ، والحكم العدل ، والنطق والصواب ، والبرهان السليم والفطرة المستقيمة . . واحتفال الناس بها ، وإيلامهم عليها ، لا يرجع إلى قيمتها البلاغية بمقدار ما يرجع إلى أنها تتجاوب مع وجداناتهم وعواطفهم ، وتتلاقى مع رغباتهم وأهوائهم ، وتشفى غليل نفوسهم ويحسون أنها التعبير الذى كانوا بحاجة إليه ، لو أسعفهم البيان ، وساعدهم اللسان .

والحكمة قول رائع يتضمن حكما صحيحاً مسلماً به وكما تكون نثراً تكون نظما ، ولكنها فى النثر أوفى عدداً ، وأكثر دورانا . . ولقد فاضت الحكمة على ألسنة كثيرين من العرب لسلامة الفطرة ، ورجحان الفكر ، وتضوج العقل ، وعرف فيهم الحكماء الذين تنصاع إليهم السادة وتنزل على حكمهم العلية ، يفضون الخصومات ويحسمون النزاع ، وكان قولهم مرضياً . ورأيهم فاصلاً : ومن هؤلاء : أكثم (١) بن صيفى التميمى وعامر (٢) بن الظرب العدوانى ... وكما تكون الحكمة فى النثر — كقولهم : خير الموت تحت ظلال السيوف ، مصارع الرجال تحت بروق الطمع ، من سلك الجدد أمن العثار ، كلم اللسان أنكى من كلم السنان ، خير الغنى القناعة ، قطيعة الرحم تورث الهم ، رضا الناس غاية لا تدرك ؛ أول الحزم المشورة ، رب عجلة تهب ريثاً ، يكفيك من شر سماعه — تكون أيضاً فى النظم ، كأبيات زهير بن أبى سلمى المبدوءة بـ « ومن » ، ومثل :

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه ... فليس على شىء سواه بخزان

ولست بمستبق أخاً لا تلمه ... على شعث أى الرجال المهذب

إذا المرء لم يبتذل من لؤم عرضه ... فكل رداء يرتديه جميل

الأمثال الجاهلية :

المثل لا يعتمد على الروعة البيانية ، ولا يهتم بالأناقة فى اللفظ ، ولكنه جملة تصدر فى حادثة ، أو تقال فى مناسبة ، وامل من أسرار الجمال فيه اقتران

(١) كان أكثم من حكماء تميم وحكامها ذا فصاحة وعلم بالانساب والاخبار .
(٢) عامر من حكام قيس ، وذوى المكانة فيها .

حالين متشابهتين ، وارتباط معنيين متقاربين ، لأنك حين تحكى قول القائل « الصيف ضيعت اللبن » لمن يطلب شيئاً قطع على نفسه أسبابه ، وفوت أوانه ، ثم يذهب عن ذهنه أن المفرط أولى بالخسران : إنما تجمع له فى حزمة واحدة صورتين إحداهما الأخرى ، صورة المرأة التى طلبت من زوجها الطلاق فى الصيف ، ثم جاءت إليه فى الشتاء — وقد ضاقت عليها الأرض بما رحبت — ترجو أن يمد لها يد المعونة بشىء من اللبن تروى به ظمأها ، وتطالب به جوعها وتمسك رمقها . . . وصورة الرجل — أو المرأة — الذى يطلب معونة من إنسان لم يكن بينه وبينه من الود ما يشفع له بعطفه عليه ، ولم يسبق منه من المعروف ما يحمله على الاستجابة إليه . ولاقتران النظير بالنظير روعة وخلابة ، ولاستحضار الصورة للصورة جمال وسحر ، ولهذا يرى علماء البلاغة أن الأمثال لا تغير ، وأن المثل يحكى كأصله على ما كان عليه من الافراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث لأن من تمام الحسن للمثل المحافظة على صورته الأصلية كما هى . . والمثل نوعان حقيقى وافتراضى . . فالحقيقى تسجيل لواقعة حدثت ، والافتراضى تسجيل لواقعة منتزعة من الخيال لا أساس لها من الصحة .

فمن الأمثال الحقيقية التى جاءت نثراً :

رمية رمية من غير رام ؛ جوع كلبك يتبعك ؛ استفرق الجمل ، إن العوان لا تعلم الخمرة ، سبق السيف العذل ، ما يوم حليمة بسر ، مواعيد عرقوب .

ومن الأمثال الحقيقية التى جاءت شعراً :

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار[1]

(١) العرار نبت طيب الرائحة والمثل يضرب فى التمتع من الزائل .

أن ترد الماء بعد أوفى ... لا ذنب لى قد قلت للقوم اسقوا[1]

لا تقطعن ذنب الأمعى وترسلها ... إن كنت شهماً فأتبع رأسها الذنبا[2]

كناطح صخرة يوما ليوهنها ... فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل[3]

ومن المثل نوع فرضى وهو قول ينتزع من الخيال انتزاعا ويتوهمه القائل توهما ، من غير أن تكون له حادثة معروفة ، أو قائل معين . وأغلب ما يكون منسوبا للحيوانات والطيور ، كتلك التى تضمنها كتاب « كليلة ودمنة » فى الأدب العباسى . وأغلب الظن أن الناس يلتجئون إلى هذا اللون من الأمثال حينما يستبدهم ضغط السياسة ، وظلم الحكومة ، وعسف السلطان ، وكبت الحرية ؛ فلا يجدون متنفساً يتنفسون منه ، ولا مخرجاً ينفذون إليه ، سوى ذلك التصوير الذى يسكنون به عما يرزحون تحته من نير ، ويحتملونه من عنت ... ومنه :

« إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض » التى تروى على لسان ثور أحمر كان معه ثوران آخران — أبيض وأسود — وكان يعيش معهما الأسد فى الغابة ! فقال ذات يوم للثورين — الأسود والأحمر — إن الأبيض يدل علينا بلونه ! وهو مع هذا يلفت نظر الصياد إلينا بشدة بياضه ! فلو أذنتما لى فى أكله لتأمن شره فقالا له : دونيكه ، وما هو إلا أن أكله ، حتى احتال بالأحمر يستأذنه فى أكل الأسود لأنه بينهما غريب ، ولونه فيهما شاذ ، فلما وصل إلى

(١) تضرب فى الاحتياط للشر حتى لا يقع المرء فيه .. والمعنى : ان ترد الماء ومعك الماء لتوفق لنجح قصدك ، وبلوغ غايتك ، فان أصبت مما وردته فيها وإلا فانت فى غنى عنه .

(٢) يضرب للشر تبقى له بقايا فيتولد منها آخر يكون له ضرره .

(٣) الثور الوحشى والمثل يضرب لمن يحاول شيئا لا يستطيعه .

غايته من أكله ووجد أن الجو قد خلا له وأن الثور الأحمر لا يستطيع مقاومته قال له: إن الجوع اشتد على وليس من أكلك بد، فقال الثور الأحمر للأسد: دعنى لأنادى بأعلى صوتى ثلاثاً « إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض » فذهبت مثلا لمن يسلم فى أعوانه فيكون فى هذا التسليم هلاكه ...

ومنه كذلك قولهم:

« كيف أعاودك وهذا أثر مأسك » وأصله — كما يقولون — على لسان حية عظيمة كانت فى واد موحش، وقد صادفت رجلا فنهشته فمات، فذهب أخوه إليها ليأخذ بالثأر، فضربها بفأسه فأدمى بعض جسدها ولم تمت، فصالحته على أن يتركها فى مقابل إعطائها له كل يوم ديناراً، ومكثا على ذلك طويلا من الزمن ولكن الرجل كان قد تذكر عار عدم أخذه بثأر أخيه كما كان قد أثرى فلم يصبح بحاجة إلى المال بعد، فصمم على قتل الحية، فذهب إلى جحرها ليقتلها ولما أهوى بفأسه وأخطأها قطعت عنه الدينار، وعلى طول الأيام وإحساسه بالحرمان، ندم على ما بدر منه، فرجع إليها وأبدى رغبته فى عودة صداقتهما، ولما وقف على باب الجحر وناداها وقال لها هل لك أن نتوافق ونعود إلى ما كنا عليه، قالت: « كيف أعاودك الخ » فذهبت مثلا لمن لا يجاب إلى عهد لظهور آثار غدره.

ومن الحوادث الفرضية — كذلك — ما يستدعى عدة أمثال تجىء فى ثنايا القصة ثم يكون كل منها مثلا بنفسه، وذلك كما يحكى أن أرنباً التقطت تمرة فاختلسها الثعلب فأكلها فذهبا يختصمان إلى الضب فلما جاءت إليه الأرنب وكان فى داخل جحر، قالت له يا أبا الحسل فقال لها: « سميعاً دعوت » قالت أتيتك لتختصم إليك فقال « عادلا حكمتا » قالت فاخرج إلينا فقال لها « فى بيته يؤتى الحكم » قالت إنى وجدت تمرة، فقال « حلوة فكليها » قالت

اختلسها الثعلب ، فقال « لنفسه بغى الخير » قالت فلطمته فقال : بحقك أخذت ، قالت إنه لطمنى فقال : « حر انتصف لنفسه » قالت فاقض بيننا فقال « قد قضيت » :

فهذه أمثال كلها وردت فى كتاب الأمثال للميدانى وغيره فى قصة المثل « فى بيته يؤتى الحكم » ، وكل واحد منها يضرب لما يناسبه من الأحوال .

خطب جاهلية :

١ — من خطب العظة والاعتبار للمأمور الحارثى فى نادى قومه :

« أرعونى[١] أسماعكم ، وأصغوا إلى قلوبكم ، يبلغ الوعظ منكم حيث أريد . طمح[٢] بالأهواء الأشر ، وران[٣] على القلوب الكدر ، وطخطخ[٤] الجهل النظر . إن فيما ترى لمعتبرا لمن اعتبر ، أرض موضوعة ، وسماء مرفوعة ، وشمس تطلع وتغرب ونجوم تسرى فتغرب[٥] ، وقمر تطلعه النحور ، وتمحقه أدبار[٦] الشهور وعاجز مثر[٧] وحول مكد[٨] ، وشاب مختضر[٩] ويفن

(١) أرعاه سمعه أصغى اليه .
(٢) علا وارتفع وتجاوز الحد ، والأهواء الميول ، والأشر البطر وكفران النعم .
(٣) غلب وغطى .
(٤) أظلم .
(٥) تبعد .
(٦) أواخر .
(٧) غنى كثير المال .
(٨) الحول الذى يحتال للأمور فيحجب منها بعقله وحزمه ورأيه ، والمكدى فى الأصل الذى يحفر فتصادفه الكدية وهى الحجارة الغليظة فتحول بينه وبين الاستمرار فى غرضه .. ومنه « أعطى قليلا فأكدى » والاكداء الحرمان .
(٩) ميت فى صغر سنه ، أما اليفن فكبير السن .

قد غير ، وراحلون لا يؤوبون ، وموقوفون لا يفرطون[١] ، ومطر يرسل بقدر ، فيحيى البشر ، ويورق الشجر ، ويطلع الثمر ، ويخبث الزهر ، وماء يفجر من الصخر فيصدع الدر عن أفنان الخضر ، فيحيى الأنام ؛ ويشبع السوام ؛ إن فى ذلك لأوضح الدلائل على القدر البارئ المصور ، يا أيها العقول النافرة ، والقلوب النائرة[٢] ، أنى تؤفكون ، وعن أى سبيل تعمهون ، وفى أى حيرة تهيمون ، وإلى أى غاية تونضون[٣] ، لو كشفت الأغطية عن القلوب ، وجلت الغشاوة عن العيون ، لصرح الشك عن اليقين ، وأفاق من نشوة الجهالة ، من استولت عليه الضلالة .

٢ — ومن خطب التهنئة والسفارات ما قاله عبد المطلب لسيف بن ذى يزن ملك اليمن بعد انتصاره على الحبشة :

إن الله تعالى أحلك محلا رفيعا ، وسما منيعا ، باذخا شامخا[٤] ، وأنبتك منبتا طابت أرومته ، وعزت جرثومته[٥] وبسق فرعه ، فى أكرم معدن ، وأطيب موطن ، فأنت « أبيت اللعن » رأس العرب ؛ وربيعها الذى به تخصب ، وملكها الذى به تنقاد ؛ وعمودها الذى عليه العماد ؛ ومعقلها[٦] الذى إليه تلجأ العباد ، سلفك خير سلف ، وأنت لنا بعدهم خير خلف . ولن يهلك من

---

(١) يقدمون .
(٢) النافـــرة .
(٣) بالياء للمجهول من الافك بمعنى الكذب أو من الافك بمعنى الحمق .. وهذه الخطبة فى الأمالى للقالى الجزء الأول طبعة دار الكتب المصرية ص ٣٧٢ .
(٤) مرتفعا والباذخ والشامخ بمعنى واحـد .
(٥) الأرومة والجرثومة بمعنى الأصل .
(٦) المعقل : الحصن وعقل الدابة ربطها ومنه سمى المعقل عقلا لانه يمنع الانسان عن الاسقاف ويحفظه من الشرور .

أنت خلقه ، ولن يخمل[1] من أنت ساقه ، نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمته، وسدنة بيته . أشخصنا[2] إليك الذى أبهجنا[3] ، بكشف الكرب الذى فدحنا[4] فنحن وفد التهنئة ، لا وفد المرزئة[5] .

٢ — ومن خطب الإملاك « الزواج » ما قاله أبو طالب بن عبد المطلب حين تزوج النبى صلى الله عليه وسلم بالسيدة خديجة بنت خويلد الأسدية :

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بلدا حراما[6] ، وبيتا محجوجا ، وجعلنا الحكام على الناس . ثم إن محمد بن عبد الله ابن أخى - من لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح عليه برا وفضلا ، وكرما وعقلا ، ومجدا ونبلا ، وإن كان فى المال قلا ، فإن المال ظل زائل وعارية مسترجعة ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه كذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلى[7] .

وصايا ونصائح :

١ — من الوصايا ما قالته أعرابية لابنتها عند زفافها إلى زوجها :

أى بنية إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة للعاقل ، ومعونة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها

(١) خمول الذكر عدم اشتهاره ويقابله نباهة الذكر والشان .
(٢) أشخصنا إليك والشخوص : الوقوف بين يديه .
(٣) من البهجة بمعنى الفرح والسرور .
(٤) أثقلنا .
(٥) المصيبة والرزية .
(٦) محرما على الناس أن يسفكوا فيه دما أو ينتكبوا محظورا .
(٧) الصداق المهر .

وشدة حاجتها إليه ، كنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ، ولهن خلق الرجال . أى بنية إنك فارقت الجو الذى منه خرجت ، وخلقت العش الذى فيه درجت إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك رقيبا ومليكا ، فكونى له أمة يكن لك عبداً وشيكا[1] ، يا بنية احفظى عنى عشر خصال تكن لك ذخرا[2] وذكرا ، الصحبة بالقناعة ؛ والمعاشرة بحسن السمع والطاعة . والتعهد[3] لموقع عينه ، والتفقد لموضع أنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح ، والكحل أحسن الحسن ، والماء أطيب الطيب المفقود ، والتعهد لوقت طعامه ، والهدوء عند منامه . فإن حرارة الجوع ملهبة[4] وتنغيص النوم مغضبة ؛ والاحتفاظ ببيته وماله ، والإرعاء[5] على نفسه وحشمه[6] وعياله ، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التدبير ، والإرعاء على الحشم والعيال جميل التقدير ، ولا تفشى له سراً ، ولا تعصى له أمراً ، فإنك إن أفشيت سره لم تأمنى غدره ، وإن عصيت أمره أوغرت[7] صدره . ثم اتقى مع ذلك الفرح إن كان ترحا ، والاكتئاب عنده إن كان فرحا ، فإن الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير ، وكونى أشد ما تكونين له إعظاما ، يكن أشد ما يكون لك إكراما ، وأشد ما تكونين له موافقة ، يكن أطول ما تكونين له مرافقة ، واعلمى أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك ، وهواه على هواك ، فيما أحببت وكرهت .. والله مقدر لك ...

---

(١) سريعا .
(٢) الذخر بمعنى المذخور المصون المحفوظ والمعنى حرز وحصن .
(٣) التعهد الرعاية للشىء والعناية به .
(٤) مشعلة لنار الغضب والغيظ .
(٥) من الرعاية .
(٦) الخدم .
(٧) أوغر صدره ووغره أغراه بحقده وكراهيته .

٢ — ومن وصية عامر بن الظرب العدوانى لقومه ، . .

يا معشر عدوان ، إن من جمع بين الحق والباطل لم يجتمعا له ، وكان الباطل أولى به ، وإن الحق لم يزل ينفر من الباطل ، ولم يزل الباطل ينفر من الحق ... يا معشر عدوان لا تشمتوا [١] بالقلة ، وتفرحوا بالعزة ، فيكل جيش يجيش الفقير مع الغنى ، ومن يرى يوماً يريه ، إن مع السفاهة الندامة ، والعقوبة نكال[٢] وفيها دمامة ، ولبيد العليا العاقبة ، والقود[٣] راحة ، لا لك ولا عليك ، وإذا شئت وجدت مثلك ، إن عليك كما أن لك ، وللكثرة الرهب ، وللصبر الغلبة ، ومن طلب شيئاً وجده ، وإن لم يجده يوشك أن يقع قريباً منه ...

٣ — والوصايا كالخطب إلا أن الخطب أوسع دائرة ، وأبعد مدى لأنها للشاهد والمجامع والأيام والمواسم والتفاخر والتناظر ، ومن الوفود فى كل مهم لدى الملوك والأمراء . والسادة والكبراء . بينما الوصايا لا تعدو قوماً مخصوصين فى أمر مخصوص كأن تصدر من سيد لمشيرته ، أو أب لبنيه ، أو امرأة لابنتها ، وأكثر ما تكون عند الإحساس بدنو الأجل ، أو توقع الفرقة . وقد سما بالخطابة إلى الذروة ، ورفع من شأنها إلى الغاية أنها كانت فى السادة والرؤساء وزاد فى قدرها انتشار الأمية ، وكثرة الدواعى الباعثة عليها ، والدافعة إليها ، مثل المفاخرات والمناقرات والأخذ بالثأر ، والدعوة إلى السلم ، أو التحريض على القتال ، أو الترغيب فى الخير والتنفير من الشر ، وكذلك استعملوها فى السفارات وفى التهانى ، وفى الإملاك ـ الزواج ـ .

---

(١) الشماتة اظهارك السرور للمكروه يصيب غيرك .
(٢) عبرة ، والدمامة قبح المنظر .
(٣) القصاص .

وأسلوب الخطابة يتميز بالجزالة الفخمة ، والوضوح البين ، وتجنب الغلاة والبعد عن السوقى[1] من الألفاظ ، والميل إلى الازدواج أو السجع ورعا اهتموا بالبراهين يستعينون بها على الالزام والإقناع ، والتسليم والإذعان ، كما اهتموا بالخيال الذى يثير الوجدان ، ويوقظ العاطفة ، وكانت رغبتهم فى القصار أكثر ، وميلهم إلى الإيجاز أشد ، وبخاصة بعد ظهور التكسب بالشعر ، الذى أزرى به ، لمكون ذلك أعون على تناقلها وتداولها ، ورواياتها وحفظها ، وجريانها على الألسنة ، وانتشارها بين الناس .

---

(١) السوقة والدهماء بمعنى واحد والالفاظ المنسوبة اليهم والكلام الذى عنهم نازل فى فصاحته ، مبتذل فى بلاغته ، نائباء السادة ، وتتفاداه الخاصة .

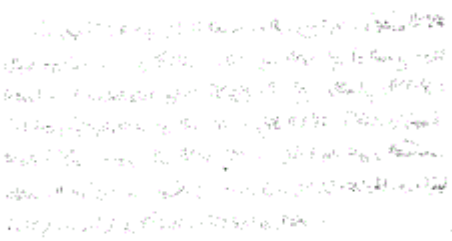

الفصل الخامس

الشاعر المصوّر

النابغة فى الاعتذار

النابغة يعتذر إلى النعمان بن المنذر ؛ ويمدحه :

أتانى أبيت اللعن أنت لمتنى ... وتلك التى أهتم منها وأنصب[1]

فبت كأن العائدات فرشْنَ لى ... هراسا به يُعْلى فراشى ويقشب[2]

حلفت فلم أترك لنفسى ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب[3]

لئن كنت قد بلغت عنى خيانة ... لمبلغك الواشى أغش وأكذب[4]

ولكننى كنت امرأ لى جانب ... من الأرض فيه مستراد ومذهب[5]

ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم ... أحكّم فى أموالهم وأقرب[6]

كفعلك فى قوم أراك اصطنعتهم ... فلم ترم فى مدح ذلك أذنبوا[7]

---

(١) أبيت اللعن : من تحية الجاهلية : أى أبيت أن تأتى ما تلعن عليه أو ابيت ان تلعن لكرمك - وأبيت أن أكون فى جهد وعناء .

(٢) الهراس كسحاب : شجر كثير الشوك - والعائدات : الزائرات فى المرض - وفرشن لى : بسطن لى - يقشب : يخلط أو يجعد .

(٣) الريبة : الشك .

(٤) الواشى : النمام المعتاد الكذب .

(٥) لى جانب : متسع من الارض وتمكن - مستراد : اقبال وادبار ، يعنى سعة المكان وأمنه وهو يصف حاله عند الغسانيين ، وتمكنه منهم .

(٦) ملوك : هم الغسانيون الذين اكرموا وفادته لما حل بهم ، وهرب اليهم من النعمان .

(٧) يقول اذا استقنت قوما فشكروا ، فمن تراهم تبين ؟ فهذا حالى مع هؤلاء الملوك الذين مدحتهم وهذا من جيد الاعتذار .

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب[1]

فلا تتركني بالوعيد كأنني إلى الناس مطلي به القار أجرب[2]

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب[3]

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب[4]

فإن أك مظلوما فعبدا ظلمته وأن تك ذا عتبى فمثلك يعتب[5]

مغزى هذا النص :

هذا النص في جملته أثنا عشر بيتا ، كلها في الاعتذار ، وهو الفن الذي أجاد فيه النابغة إجادة عالية ، وأتى فيه بأروع المعاني وأروع الأخيلة . . ونتبع ... هذا النص بيتا بيتا يقول الشاعر :

١ — بلغني أيها الملك العظيم أنك غضبت إلي لذنبا أتيته ، وجرما ارتكبته وهذا ما أهمني وأقلقني وتركني في غضب وشقاء ، ويدل البيت على أن النابغة أتى بسبب حقد الواشين الذين وشوا به إلى النعمان .

٢ — لم أستطع النوم ولكن الأرق والقلق لازماني وبت حزينا كئيبا .

---

(١) المعنى : أنت بين الملوك كالشمس بين النجوم ، فإذا ظهرت غمرتهم بنور وجهك .

(٢) الوعيد : التهديد . القار : القطران .

(٣) السورة : بفتح السين وضمها ، ومعناها على الأول السطو : وعلى الثاني المنزلة والرفعة والشرف . ويتذبذب يضطرب .

(٤) استبقاء : حفظ عن زلله فبقيت مودته . والشعث : الفساد والتفرق وتلم : تجمع وتلم .

(٥) العتبى : الرضا . اعتبه : أعطاه العتبى وترك ما كان يغضب عليه ، من أعتبه وحقيقته أزال عتبه . والهمزة فيه للسلب ، كما في اشكاه أي أزال شكايته .

كما في سقيم قرش له عوادة هذا الشجر الكثير الشوك يطرق به فراشه ويرفعونه به .

٣ — يقسم النابغة لممدوحه قسماً مؤكداً لا يترك في نفس النعمان شكا ولا يبقى بعده في قلبه ريبة وليس بعد القسم بالله طريق لنفي التهمة وإزالة الشك .

٤ — يقسم الشاعر أن الخيانة التي تنسب إليه والذنب الذي يتهم بارتكابه إنما هو من تلفيق الوشاة وكيد الحاسدين الكاذبين العائبين ولا نصيب لشيء ذلك من الصحة والواقع والحقيقة .

٥ — فإن الأمر لا يعدو أن يكون من جانب الشاعر رحلة إلى الغساسنة الذين يولون الشاعر كل عطف وخير وأمن .

٦ — وأمراء الغساسنة ملوك لكنهم أصدقاء الشاعر الذين يكرمون وفادته حين ينزل ضيفاً عليهم فيقربونه منهم ويحكمونه في أموالهم .

٧ — وهذا كما يفعل الملك النعمان نفسه مع بعض الشعراء ممن اصطفاهم لنفسه واصطفاهم لمجلسه ووقفوا حياتهم قصائدهم على مدحه فهم في ذلك غير مؤمنين ولا مدفوعين .

٨ — والنعمان عظيم المنزلة بين الملوك والأمراء فهو فيهم كالشمس وهم بالنسبة له كالكواكب إذا ظهر بضوئه وتجلى تلألأوا مع شمسه كوكب ولا تقاس قدرتهم بجانب قدرته .

٩ — لا تتوعدنى أيها الملك وتتركنى أمشى بين الناس قلقا حائرا منبوذا كأننى بينهم بعير أجربت طى جلده بالنار فهم يتجنبونه ويتأون عنه .

١٠ — لقد أعطاك الله أيها الملك شرفاً ونبلا وقدرة كبيرة ، يخشاه السفوك ويهابونه إذا أردت فيهم أمرا ، فكيف يكون حالى بالنسبة لهم وأنا الضيف الذليل .

١١ — ولو حاولت أن تبعد عنك كل من يذنب فى حقك ، دون أن تحاول إصلاحه وتربيته ، لما أبقيت لك صديقا ، فمن من الناس لا يخطىء ؟ .

١٢ — وهبنى مظلوما أفلست غير عبدك ظلمته ، وهبنى أعدتنى إلى مثل مكانتى عندك فمثلك يفعل ذلك ويعفو عمن أساء فى حقه .

تعريف بالشاعر :

النابغة هو زياد بن معاوية بن غيظ بن مرة بن ذبيان بن قيس من مضر (٥٢٥ — ٦٠٤ م) ، وكنية النابغة أبو أمامة ، ولقب بالنابغة لنبوغه فى الشعر وهو كبير[1] دفعة واحدة ، بعد أن أحكمته التجارب ومشى به السن . وهو أحد الاشراف الذين غض الشعر منهم ، ويعد من شعراء الطبقة الأولى مع امرىء القيس وكانت تضرب له قبة بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء تعرض عليه أشعارها فيفاضل بينهم .

وكان النابغة من أشراف قومه ، ومع تكسبه بالشعر فإنه كان يعتز

(١) راجع ٣٦ الجمهرة .

بنفسه لا كما صنع الأعشى . وكان يقصد الملوك ويمدحهم فى غير ذلة فيجزلون له العطاء .. اتصل بالنعمان بن المنذر أبى قابوس ملك الحيرة الذى تولى الملك من عام (٥٨٠ — ٦٠٢ م) ومدحه بقصائد رائعة كثيرة فقربه النعمان إليه ، وصار أميرا عنده ومن ندمائه وغمره بعطائه الجزل حتى صار النابغة يأكل فى صحاف الذهب والفضة ثم غضب عليه فهرب من الحيرة قبل أن يقع فى قبضته .

وأيا ما كان سبب غضب النعمان عليه فقد كان لوشايات خصوم النابغة آثارها فى تغيير قلب النعمان وسخطه فهرب وأتى قومه ، ثم شخص إلى ملوك غسان بالشام وكانوا أعداء لملوك الحيرة فاتصل النابغة بعمرو بن الحارث الأصغر ملك غسان ومدحه ومدح أخاه النعمان وظل لديه حتى مات وملك أخوه النعمان فأقام عنده أثيرا لديه . ولكنه كان يحن إلى بلاط النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، ويرسل إلى الملك قصائد من اعتذارياته الرائعة ، يتبرأ فيها مما رمى به ويعتذر مما كان وتوالت اعتذارياته على النعمان فعفا عنه وعاد إليه وعاشره فى الحيرة .. ويقال إن النابغة استجار ببعض المقربين لدى النعمان فكلموه فى شأنه ، حتى أمنه وأمر له بمائة بعير ، ويقال إن النابغة عاد يعرضه فلم يملك صبره وسار إليه فألفاه فى مرضه فمدحه ثم عفى عنه النعمان فأمنه وأقام عنده وظل النابغة عقليا مشرفا مكرما عند الملوك والأمراء ، حتى توفى عام ٦٠٤ م .

شعره وشاعريته :

شعر النابغة لطيف رقيق إذا تملكته عاطفة قوية من إشفاق أو حماسة أو رهبة كما ترى فى أهاجيه ومدائحه واعتذارياته وقيل عنه : أشعر الناس

إذا رهب وهو فى اعتذارياته حزين عميق الحزن قلق مضطرب يداخله التشاؤم واليأس الشديد ذلك كله لأن خيال الشاعر دقيق واسع يسمو إلى درجة عالية فى إكمال الصورة وإيضاح الشابهات ، يتوسع بالتشبيه ويفسح له خياله المجال فى التصوير كما فى وصفه للفرات أو غيره . ويمتاز شعره ببلوغه غاية الحسن والجودة وتنزاوته من العيوب وبجودة مطالع قصائده وأواخرها وكان البدو من أهل الحجاز يحفظون شعره ويفاخرون به لحسن ديباجته وجمال رونقه وجزالة لفظه وقلة تكلفه وليس له نظير فى وصف الاحساسات النفسية كالخوف وما شابه ذلك .

وتمتاز معانيه بالدقة والانسجام والتآلف والصدق والقرب من العقل والبعد عن التعقيد والغموض مع مراعاة المخاطبين ومع اليسر بموانع الكلام .

وقد أجاد النابغة فى المدح والاعتذار والغزل والفخر إجادة بالغة كما أجاد الوصف والرثاء والحكمة إجادة دون ذلك .

وأسباب إجادته المدح معروفة ، منها حب المال وخصب الخيال وقوة الذكاء ومعيله إلى التجويد والتنقيح والتهذيب إلى غير ذلك من الأسباب وإجادته فى الاعتذار كذلك كان الباعث عليها الرهبة والخوف مع الرهبة والأمل أما الوصف فقد أجاد فى بعض الأوصاف دون البعض الآخر ، فأجاد فى وصف الثور والوحش والفرات وما إلى ذلك .

وقال الأصمعى : لم يكن النابغة وزهير وأوس يحسنون صفة الخيل ولكن طفيلا الغنوى أحسن فى صفة الخيل غاية الإحسان :

وقد عده بعض العلماء من شعراء المعلقات ومعلقته فى رأى بعض العلماء هى :

يادار ميـة بالعلياء فالسـند أقوت وطال عليها سالف الأمد

وتقع فى واحد وخمسين بيتا . وهى من قصائد الاعتذاريات ، بدأها ببكاء الاطلال كالألوف من أشعار الجاهلية ، ثم انتقل من ذلك إلى وصف ناقته ثم خلص إلى الاعتذار بأسلوب رائع .

ويروى عن حسان قصة تدل على مكان النابغة عند النعمان ، وفضله لديه على جميع الشعراء ، وحسان منهم[1] .

حضر النابغة سوق عكاظ مرة فأنشده الأعشى ثم حسان ثم شعراء آخرون ثم الخنساء ، فقال لها لولا أن أبا بصير أنشدنى لقلت إنك أشعر الجن والإنس ، فقال له حسان : أنا أشعر منك ومن أبيك فقال له النابغة يا ابن أخى إنك لا تحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ومن روائع شعره قصيدته :

كليني لهم يا أميمه ناصـب وليل أقاسيه بطيء الكواكب

ومن معانيه المبتدعة قوله :

نبئت أنـ أبا قابوس أوعدنى ولا قرار على زأر من الأسد

وقوله :

فلو كفى اليمين بنتك خوفا لأفردت اليمين عن الشمال

---

(١) ٣٥ و ٣٦ جمهرة اشعار العرب .

أخذه عنه الملقب العبدى فقال :

ولو أنى تخالقنى شمالى بشر لم تصاحبها يمينى

وقول النابغة :

فمالق ذنب امرىء وتركته كذى العر يكوى غيره وهو راتع

أخذه الكميت فقال :

ولا أكوى الصحاح برائعات بهن العر قبلى ما كوينا

وقال النابغة وهو أحسن ما قيل فى المعنى :

رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب

ومن حكمه :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب

ومما سبق إليه قوله :

نظرت إليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه العود

أخذه أبو نواس فقال :

ضعيفة كر الطرف تحسب أنها قريبة عهد بالافاقة من سقم

ومما يستحسن قوله :

حسب الخليلين تأى الأرض بينهما هذا عليها وهذا تحتها بال

القيمة الفنية لهذا النص :

هذا النص فى الاعتذار يعد من أروع ماتظمه شاعر معتذر إلى أمير من وشايات ألصقت به والنابغة يجيد فى فن الاعتذار ويجيد هنا خاصة إجادة لا يلحقه فيها أحد .

فالمعانى مختارة وحجيجه فى الاعتذار مهذبة كل التهذيب وعالية الدرجة فى البلاغة فهو يبدأ فيتذكر وشايات الوشاة وأثرها فى نفسه ثم يحلف للملك بكل يمين بأنه ما خانه ولا أخطأ فى مقامه وأن الذين أبلغوه ما أبلغوه فى حقه وشاة كاذبون غشاشون لا يضمرون الخير للملك نفسه ثم يعتذر عن قصده لأعداء النعمان وخصـــومه بأنهم أولوه برهم فمدحهم كما يفعل الملك مع من يقصده بالمدح والثناء وهناك يبلغ النابغة غاية الاجادة فى تهذيب الحجة وترتيبها ترتيبا منطقيا سليما ثم يدعو الملك إلى أن يقيس نفسه بغيره من الملوك منوهـــا بقدرته وسلطانه فهو كالشمس وهم الكواكب ويستعطفه غاية الاستعطاف فيصور نفسه بالبعير الأجرب المنبوذ بسبب تهديد النعمان ووعيده هذا التهديد الذى لا يقر عليه الملوك فكيف بأمن معه النابغة على حياته .

ثم يرتفع النابغة إلى قمة التجربة الإنسانية بحكمته الرفيعة ولمست بمستبق إلخ » ويصور عظمة الملك ودلة نفسه فى بيته الأخير تصويرا رائعا .

إنها معان رائعة فى الاعتذار لم يهتد إليها شاعر غير النابغة ولأجل ذلك قيل أشعر الناس النابغة إذا رهب ، أى فى مقام الاعتذار .

ويحمل النص خصائص شعر النابغة كلها ، من قوة الأسلوب ، وقوة الحجة

وروعة الحكمة وعظمة التجربة وصدق الاحساس والشعور وبساطة التعبير وهو من أجل ذلك الشاعر المحلق وبلاغته فى الذروة .

ومع ذلك فالنص يحمل كثيرا من خصائص الشعر الجاهلى، الفنية والعقلية، ورعة هـــذا الاعتذار هى دليل صدق على أن النابغة أعظم شعراء الاعتذار فى الأدب العربى قديمه وحديثه على السواء .

نقد القصيدة :

١ — لا شك أن الطابع الجاهلى ظاهر فى أبيات القصيدة بوضوح ، فالجملة ، أبيت اللعن ، وتعبيره بالفراش ، وبقوله ، يشب وتشبيه نفسه وقد تجنبته الناس لوعيد النعمان إياه باليمين الأجرب للطلى بالقار ، كل ذلك صور جاهلية ترشد إلى عصر هذا النص .

٢ — عندما نعلم أن النص فى الاعتذار وأنه على أى حال من أجود ما قاله الشعراء فى هـذا الفن ، ندرك أننا لا بد أن نكون بين يدى شاعرية النابغة ، وخاصة أن سمات شعر النابغة هى كل سمات هذا النص الذى بين أيدينا والنابغة يمتاز شعره بصفاء الديباجة وإشراق الأســـلوب وجزالة اللفظ وقلة السقط والتكلف ، وموافقته لهوى النفوس ، ولهذا لم يفن بشعر أحد مثل ما غنى به من شعره ، واعتذاره ومدحه يسكثر فيهما الرقة والعذوبة وتظهر روعة شعر النابغة وتجلى قوته حين تتملكه عاطفة قوية من حماسة أو اشفاق أو رهبة كما نرى فى اعتذارياته طابع الحزن والقلق والحيرة ، وحسن التخلص وجميل الأدب فى الاعتذار وفى شعر النابغة صور كثيرة من بديع الكناية وجميل التشبيه ، ورائع الاستعارة ، ودقيق الخيال .

ولقد تهيأت للنابغة ولا ريب كل أسباب الشاعرية : من نشأة بدوية فى الصحراء التى تفسح الخيال ، وتلهب العاطفة ، وتذكى الشعور ، بين قوم مفطورين على البلاغة مفتونين بالفصاحة واللسن ، ومن خوضه المعارك والحروب وشهوده الكثير من الخصومات القبلية وتصدره فى ميدان النقد والشعر ، ومن رحلاته ومعيشته فى بلاط الملوك . . . كل ذلك مما غذى شاعريته ، وأجج ملكته وفتق أكمام موهبته ، وجعله من أعلام الشعر الجاهلى ، ولقد كان النابغة من جملة الشعراء الذين كانوا يهذبون أشعارهم ويختارون ألفاظهم ويعودون قصائدهم عامداً فى حضاير الممدوحين ورغبة فى عطائهم ومن ثم كان هو وزهير والأعشى ثم الحطيئة « من عبيد الشعر » ومن المصنعين فيه .

مصادر لدراسة النابغة

١ — الأغانى ٩ : ١٦٢

٢ — الشعر والشعراء لابن قتيبه

٣ — أشعار الشعراء الستة الجاهليين

٤ — الروائع عدد ٣٠

• — رجال المعلقات العشر

٦ — النابغة الجعدى لجميل سلطان .

٧ — النابغة لعمر الدسوقى .

٨ — النابغة لسليم الجندى .

٩ — النابغة الجعدى لعمر — من سلسلة الطرائف عدد ١٢ .

١٠ — الأدب الجاهلى .

١١ — الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى للمؤلف .

١٢ — تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان .

الفصل السادس

شاعر الحرب والنزال

عنترة فى وصف المعركة

يقول عنترة فى وصف المركة والحرب :

لما رأيت القـوم أقبل جمعهم ... يتذامرون كررت غير مذمم[1]

يدعون عنتر والرماح كأنها ... أشطان بئر فى لبان الأدهم[2]

ماولت أرمـيهم بثغرة نحره ... ولبانـه حتى تسربل بالدم[3]

فازور من وقـع القنا بلبانه ... وشكى إلى بعبرة وتحمحم[4]

لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى ... ولكان لو علم الكلام مكلمى[5]

ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها ... قيل الفوارس ويك عنتر أقدمى[6]

والخيـل تقتحم الغبار عوابسا ... من بين شيظمة وأجرد شيظم[7]

---

(١) يتذامرون : يحض بعضهم بعضا على القتال .

(٢) عنتر : أى يا عنتر على حذف التاء للترخيم ، والاشطان جمع شطن ، وهى الحبال الطويلة الشديدة الفتل ، واللبان : الصدر ، والادهم فرسه .

(٣) ثغرة النحر : هى النقرة التى تكون فى أعلى الصدر ، تسربل : تغطى .

(٤) الغيرة تردد البكاء فى الصدر قبل ان تفيض الدمعة ، التحمحم الصوت المتقطع دون الصهيل .

(٥) المحاورة : الخطاب .

(٦) ويك كلمة مركبة من وى وكاف الخطاب ووى للتعجب كأنهم قالوا عجبا لك أقدم أو هى مخففة من ويلك .

(٧) الغبار : الأرض الليئة ، الشيظمة : الطويل من الخيل .

منزلة هذا النبض من معلقة عنترة :

معلقة عنترة التي معلقها :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟[١]

هي أجود شعره وكانت العرب تسميها الذهبية والذهبة ، وهي من روائع الشعر العربي القديم .

بدأها عنترة بالغزل الذي أبدع فيه غاية الإبداع كما في قوله :

يا دار عبـــلة بالجواء تكلمي وعمي صباحا دار عبلة واسلمي

ثم يستطرد إلى وصف الروضة فيقول فيما يقول :

وخلا الذباب بها فليس يبارح غردا كفعل الشارب المترنم

ثم يصف ناقته في أبيات غريبة كأبيات طرفة ، وينتقل إلى الفخر بنفسه وشجاعته :

أثني علي بما علمت فانني ســـهل مخالطتي إذا لم أظلم

فإذا ظلمت فإن ظلمي باسل مر مذاقته كطعم الحنظـــل

ويختمها بتهديد أبي ضمضم الذين كانوا قد غدروا دمه وتربصوا له لأنه قتل أباهما في الحرب :

(١) غادر بمعنى ترك - المتردم : اسم مفعول من تردم ثوبه بمعنى أصلحه رقعه - التوهم : الظن -

الشـــاتمى عرضى ولم أشتما والناذرين إذا لم ألقهمـــا دمى
إن يفعلا فلقد تركت أباهما جزر السباع وكل نسر قشعم[١]

والذى يتناول معلقة عنترة بالدراسة يصادفه أبيات من أروع ما يكون الوصف ، وأجود ما يكون التصوير . . منها فى وصف الروضة :

ولقد مررت بدار عبـــلة بعدما لعب الربيع بربعهـــا المتوسم
جادت عليه كل عـــين ثرة فتركن كل قـــرارة كالدرهم[٢]
سحاً وتسكابا فكل عشية يجرى عليها المـــاء لم يتصرم
وخـــلا الذباب بها فليس ببارح غردا كفعل الشـــارب المترنم
هزجاً يحك ذراعه بذراعه قدح المكب على الزناد الأجذم[٣]

ويصف فرسه الذى خاض به المعركة فيقول :

مازلت أرميهم بثغرة نحـــره ولبانه حتى تسربـــل بالدم
فازور من وقـــع القنا بلبانه وشكا إلى بعـــبرة وتحمحم[٤]
لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى ولـــكان لو علم الـــكلام مكلمى
والخيل تقتحم الخبـــار عوابساً ما بين شيظمة وأجرد شيظم[٥]

---

(١) جزر السباع أى فريسة لها . القشعم من النسور : النسر الكبير .
(٢) كالدرهم فى استدارته ولمعانه فيه .
(٣) الأجذم : الذى به مرض الجذام فهو ناقص طول اليد .
(٤) لبانه : صدره ، تحمحم : عطف ورقة لأمله فيه .
(٥) الخبار الأرض اللينة ، والشيظم الطويل من الخيل .

مغزى النص :

فى هذا النص يصف عنترة المعركة والتحام الجيوش فيها ، وموقفه بفرسه منها ، وإقدامه فى وسط المعمعة شجاعا مقداما جريئا لا يهاب ولا يخاف ، وصفا رائعا جميلا دقيقا مصورا ؛ ومن الخماسة ، أو الشعر الخماسى ، هو الفن الذى أجاده عنترة وبلغ فيه الذروة ، وارتفع فيه إلى قمة البلاغة ، يقول الشاعر فى هذا النص :

١ — حين شاهدت جيش الأعداء مقبلا يحض بعضهم بعضا على القتال أسرعت بفرسى إلى خوض غمار المعركة غير هياب ولا خائف ولا جبان .

٢ — وإن الأبطال والجنود فى وسط النضال ليعرفون عنترة ، ويعرفون حماسته وشجاعته ، فهم ينادونه ويهتفون باسمه ، ويتعجبون لفرط شجاعته ، وهو على فرسه الأدهم تمتد إليه الرماح مشرعات طوالا كأنها حبال البئر البعيدة القاع ، فتصل إلى صدر فرسه ، ولكن عنترة بشجاعته يجعلها لا تناله ، وهو لا يهابها كذلك .

٣ — ولم أزل مشرع الرمح والسيف وسط المعركة أرمى الأعداء برأس الأدهم وصدره حتى خضبته الدماء من كل جانب . . وذلك كله كنايات ساذجة عن اشتداد النضال ، واحتدام القتال .

٤ — ولقد سار الفرس معى فى المعركة طويلا حتى فزع طولها ، واضطرب لشدتها ، ورأى بصدره من شدة ما وقع عليه من ضرب بالسيوف والرماح ، بل أخذ يشكو بصهيله إلى والدموع تدور فى مآقيه ، وصوته الحزين يخرج من فيه المكلوم .

٥ ــ ولو كان الفرس يعرف كيف يخاطبني لا شتكى إلى ما هو فيه ، ولو كان يعرف الكلام لتكلم باكيا شاكيا حزينا .

٦ ــ ولكن الشيء الذى كان يعزيني في المعركة هو تقدير الأبطال وحتافهم باسمى ، ونداؤهم لى ، وقولهم عجبا لك يا عنترة ولحلستك وشجاعتك وقلبك الجرىء ، استمر فى بسالتك ، وفى إقدامك وفرط شجاعتك .

٧ ــ والخيل فى المعركة تصول وتجول وتكر وتفر من إناث وذكور ، فهى تقتحم الرمال البيدة فى الصحراء اقتحاما ليس مثله اقتحام ؛ عابسة مكشرة عن أنيابها ، لا تكل ولا تمل ، دون خوف أو اضطراب .

دلالة النص :

والنص يمثل عنترة تمام التمثيل فى حماسته وشجاعته وإقدامه وبسالته ، وحبه للحرب ، واقتحامه لأهوالها ، ومخاطراته بنفسه فيها ، دون تردد أو وجل ، والصورة صورة القتال فى العصر الجاهلى ، هذا القتال الذى يدور حول اقتحام الجنود والقواد وسط أرض المعركة دون نظام أو ترتيب أو تصفيف ، وقائد كل فريق من فرق المقاتلين يحارب فى أرض المعركة ببسالة ، دون جزع أو فزع أو خور . . والنص يمثل كذلك روح العرب الجاهلى وعقله الساذج ، وبساطته فى الفهم والتصور ، فهو يدخل المعركة لأن أعداءه دخلوها ، وهو يقف فى وسطها لأن المحاربين يهتفون باسمه ويدعونه حين احتدامها ، وهو يكر عليهم بفرسه مقدما جريئا غير هياب ولا مذعور ، والفرس يجول ويدور فى أرض المعركة حتى أضناه النصب وأتعبه القتال فشكا وبكى وحطم بصوته حمحمة المناضل المكدود ، والفرس لو استطاع الحديث لتحدث ، ولو استطاع

الكلام لتكلم عن هول المعركة وما قاساه فيها . ولكن الشيء الذى يبعث السرور والنشاط فى قلب الشاعر البطل فى أرض المعركة هتاف الفوارس باسم عنترة وإعجابهم بشجاعته ، ودعاؤهم لعنترة بأن يستمر فى إقدامه ونضاله .

صور كلها ساذجة ملائمة للعقل العربى فى جاهليته ولطبيعة الفن العسكرى الذى كان سائدا فى أرض العرب آنذاك .

وهى صور كلها تدل على العصر الجاهلى ، وعلى عنترة بالذات شاعر الحماسة والقتال والمعارك والنزال .

وعنترة هـــو القائل يصور حبه للحرب وإقدامه فيها فى عذوبة وسهولة نادرتين :

دعنى أجد إلى العلياء[1] فى الطلب	وأبلغ الغاية القصوى من الرتب
لعـــل خيلة تضحى وهى راضية	على سوادى وتمحو صورة الغضب
إذا رأت سائر السادات[2] سائرة	تزور شعرى بركن البيت فى وجب
يا خيل قومى انتظرى فعلى ولا تصلى	على الحسود الذى يغريك بالكذب
إن أقبلت حدق[3] الفرسان ترمقنى	وكل مقدام حرب مال للهرب
فما تركت لهم وجهـــا لمهزم	ولا طريقا ينجيهم من العطب[4]

(١) أصل العلياء المكان المشرف ويقصـــد بها ما وراء المـــوده والشـرف من الأمور المكلسبة بالجد والتحصيل .
(٢) جمع سادة وهم رؤوس الناس وسرائهم .
(٣) واحدتها الحدقة ، والرمق النظر .

فبادرى وانظرى طعنا إذا نظرت ... عين الوليد إليه شاب وهو صبى
خلقت للحرب أحميها إذا بردت ... وأصطلى نارهـا فى شدة اللهب
بصارم (١) حيثما جردته مسجدت ... له جبابرة الأعجـام والعرب
وقـد طلبت من العلياء منزلة ... بعـــارى لا بأبى لا ولا بأبى
فمن أجاب نجا ممـــا يحاذره ... ومن أبى ذاق طعم الحرب والحرب (٢)

عنترة الشاعر :

قال صاحب الأغانى : هو عنترة بن شداد ، وقيل : ابن عمرو بن شداد ، وقيل عنترة بن شداد بن عمرو بن معاوية من بنى عبس بن بغيض من غطفان ابن سعد من قيس عيلان بن مضر . وأمه أمة حبشية يقال لها زبيبة ، وقد كان شداد نفاه مرة ، ثم اعترف به فألحقه بنسبه ، وكانت العرب تفعل ذلك تستعبد بنى الاماء ، فإن أنجب اعترف به ، وإلا بقى عبدا . ورث عنترة لون السواد من أمه زبيبة ، ولذلك عدوه من أغربة العرب وسودانها ، وكان يلقب بعنترة الفلحاء : لتشقق الشفة . وكان من فرسان العرب المعدودين المشهورين بالنجدة ، وكان يقال له عنترة الفوارس . قال ابن قتيبة : كان عنترة من أشد أهل زمانه ، وأجودهم بما ملكت يداه . وقال وقد سأله بعضهم : أنت أشجع العرب وأشدها ؟ فقال : لا : قال فلم شاع لك هذا ؟ قال : كنت أقدم إذا رأيت الاقـدام عزما ، وأحجم إذا رأيت الأحجام حزما ، ولا أدخل

(١) الصارم : السيف .
(٢) الحرب بفتح الحاء والراء : الهلاك .

موضعا لا أرى لى منه مخرجا ، وكنت أعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة ، يطير لها قلب الشجاع ، فأثنى عليه فأقتله . وكان عمرو بن معد يكرب يقول : ما أبالى من لقيت من فرسان العرب مالم يلقنى حراها وعبداها يعنى بالحرين : عامر بن الطفيل ، وعتبة بن الحارث بن شهاب . وبالعبدين : عنترة والسليك بن السلكة : قال ابن قتيبة : وهو قتل ضمضما المرى فى حرب داحس والغبراء .. وكان من حديث عنترة أن أمه كانت أمة حبشية تدعى زبيبة فوقع عليها أبوه ، فأتت به ، فقال لأولاده : إن هذا الغلام ولدى . قالوا : كذبت ، أنت شيخ قـــد خرفت ، تدعى أولاد الناس . فلما شب قالوا له اذهب فارع الإبل والغنم ، وأحلب وصر . فانطلق يرعى ، وباع منها ذودا ، واشترى بثمنه سيفا ورمحا ، وترسا ودرعا ومغفرا ، ودفنها فى الرمل ، وكان له مهر يسقيه ألبان الإبل .

وجاء عنترة ذات يوم إلى الماء فلم يجد أحدا من الحى ، فبهت وتحير ، ثم عمد إلى سلاحه ، فأخرجه وإلى مهره فأسرجه ، وأتبع القوم الذين سبوا أهله ، فكر عليهم ، ففرق جمعهم ، وقتل منهم ثمانية نفر ، فقالوا له : ما تريد ؟ قال أريد العجوز السوداء والشيخ الذى معها ، يعنى أباه وأمه ، فردوهما عليه ، فقال له عمه : يا بنى كر . فقال : العبد لا يكر ، لكن يحلب ويصر . فأعاد عليه القول ثلاثا ، وهو يجيبه كذلك . قال له : إنك ابن أخى ، وقد زوجتك ابنتى عبلة ، فصرع منهم عشرة . فقالوا له ما تريد ؟ قال : الشيخ والجارية ، يعنى عمه وابنته ، فردوهما عليه . ثم قال : إنه لقبيح أن أرجع عنكم وجيرانى فى أيديكم ، فأبوا فكر عليهم حتى صرع منهم أربعين رجلا : قتلى وجرحى ، فردوا عليه جيرانه ، فأنشد هذه القصيدة :

وكان عنترة من أشجع الفرسان ، وأجود العرب بما ملكت يداه ، وكان لا يقول من الشعر إلا البيتين والثلاثة ، حتى سبه رجل فذكر سواده أمه وأنه لا يقول الشعر : فقال عنترة : والله إن الناس يرفدون الطعام فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك مرفد الناس ، وإن الناس ليدعون فى الغارات فيعرفون بشمويتهم فما رأيتك فى خيل مغيرة فى أوائل الناس قط ، وأن الناس ليكون بيننا فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك خطة فصل ، وإنى لأحضر اللبس وأوفى الفتم وأعف عند المسألة وأجود بما ملكت يدى وأفصل الخطة الصماء ، وأما الشعر فستعلم ، فكان أول ما قاله معلقته المشهورة : (هل غادر الشعراء) . وحضر عنترة حرب داحس والغبراء ، وحسن فيها بلاؤه ، وحدث مشاهده ، وعاش طويلا حتى كبر ومات نحو عام ٦١٥ م .

بواعث شاعريته :

كانت البيئة العربية ، والخصومات القبلية والحروب المستعرة ، والمنافسة بين عنترة وأقرانه من الشعراء ، وحبه لعبلة ابنة عمه ، وغير ذلك من الأمور ، من بواعث شاعريته ، وملهمات قريحته ، حيث هاج كل ذلك من ملكاته ، وفجر ينابيع الشعر فى نفسه .

ويمتاز شعره بعذوبة الأسلوب وسهولة اللفظ ورقة المعنى ، ومعلقته تسميها العرب الذهبية ، وهى من أجود المعلقات ، وأكثرها انسجاما وأبدعها وصفا وأشدها حماسة ، وفخرا ، وله متانة الفخر ، وحلاوة الغزل .

وقد ذكره أبو عبيدة فى الطبقة الثالثة من شعراء الجاهلية ، وعده صاحب

الجهرة ثانى أصحاب المجمهرات ، قال : وقد أدركنا أكثر أهل العلم يقولون : إن بعدهن (أى بعد السموط والمعلقات) سبعا ما هن بدونهن ، ولقد تلا أصحابهم أصحاب الأوائل فما قصروا وهى المجمهرات : لبيد بن الأبرص ، وعنترة ، وعدى بن زيد ، وبشر بن أبى خازم ، وأمية بن أبى الصلت وخداش بن زهير ، والنمر بن تولب .

ومن روائع شعر عنترة قوله :

ولقد أبيت على الطوى وأظله ... حتى أنال به كريم المأكل

وأنشد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا البيت فقال : ما وصف أعرابى قط فأحببت أن أراه إلا عنترة . ومما سبق إليه ولم ينازع فيه قوله :

إنى امرؤ من خير عبس منصبا ... شطرى وأحمى سائرى بالمنصل

وإذا الكتيبة أحجمت ولاحظت ... ألفيت خيرا من معم مخول

ومن مبالغته الشديدة قوله :

وأنا للبيسة فى المواطن كلها ... والطعن منى سابق الآجال

مصادر الدراسة عنترة

١ — أشعار الشعراء الستة الجاهليين .
٢ — الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى للمؤلف .
٣ — الأدب الجاهلى لطه حسين .
٤ — بحوث فى الأدب الجاهلى .
٥ — شرح ديوان عنترة .
٦ — الأغـــانى ٧ : ١٤٨ .
٧ — فارس عبس حسن قرشى .
٨ — شعراء النصرانية .
٩ — الجمهـــرة .
١٠ — تاريخ الآداب العربية لجورجى زيدان .
١١ — شرح القصائد العشر .
١٢ — رجال الملقات العشر .
١٣ — الروائع عدد ٢٧ لفؤاد البستانى .
١٤ — الشعر والشعراء لابن قتيبة .

الفصل السابع

شاعر المجد العربى

ليد يفتخر بقومه وباحسابهم

قال لبيد العامرى من معلقته :

من معشر سنت لهم آباؤهم ... ولكل قوم سنة وإمامها
لا يطبعون ولا يبور فعالهم ... إذ لا يميل مع الهوى أحلامها (١)
فاقنع بما قسم المليك فانما ... قسم الخلائق بيننا علامها
وإذا الأمانة قسمت فى معشر ... أوفى بأوفر حظنا قسامها
قبسى لنا بيضا رقيقا سمكه ... فعما إليه كهلها وغلامها
وهم السماة إذا العشيرة أظلمت (٢) ... وهم فوارسها وهم حكامها
وهم ربيع للمجاور فيهم ... والرملات إذا تطاول عامها
وهم العشيرة إن يعلى حاسد ... أو أن يميل مع العدو لئامها

موضع هذا النص من معلقة لبيد :

هذا النص هو للبيد العامرى من شعراء الجاهلية وفرسانهم قال الشعر فى كل غرض ، وأدرك الإسلام وأسلم وهجر الشعر وأقام بالكوفة إلى أن مات عام ٤١ هـ .

(١) يطبعون : يدنسون : يبور : يخيب .
(٢) أى وقعت فى أمر فظيع من داهية أو شدة أو سواها .

وهو من أصحاب المعلقات ، ومعلقته التي منها هذا النص مطلعها :

عفت الديار محلهـــا فمقامهـا بمنى تأبد غولهـــا فرجامها(١)

وهي مشهورة ، وقد بدأها بوصف الديار والاطلال ثم تحدث عن حبيبته نوار :

بل ما تذكر من نوار وقد نأت وتقطعت أســبابها ورمامها(٢)

ثم يأخذ في وصف ناقته في ألفاظ غريبة ، حتى إذا ما انتهى من هـــذا الوصف الطويل عاد إلى نوار معاتبا لائما غاضبا :

أو لم تكن تدرى نـــوار بأنني وصال عقد حبائل جذامها(٣)

ثم يتحدث عن نفسه ولهوه وشجاعته، وكرمه ، ويفخر : بقومه وأحسابهم ومآثرهم في نهاية القصيدة إلى خاتمتها .

ومعلقة لبيد حافلة بغريب اللغة ، ونادر الألفاظ ، وعجيب الصور . وهذه القصيدة بدأها بقوله يذكر عفاء الديار ورسومها :

عفت الديـــار محلهـــا فمقامها بمـــنى تأبد غولها فرجامها(٤)

---

(١) عفت : درست ـ المحل والمقام : موضع الحلول والاقامة . منى موضع . تأبد : توحش . الغول : ماء معروف . الرجام : مكان .

(٢) نوار : اسم حبيبته . الرمام : جمع رمة وهي قطعة من الحبل البالي . يريد أن الوصل تقطعت به الأســباب .

(٣) أي قطاعها : مبالغة في القطـع .

(٤) تأبد : توحش ، والغول والرجام جبـــلان .

قد دافع الريان عرى رسمها خلقا كما ضمن الوحي سلامها(١)
وجلا السيول عن الطلول كأنها زبر تجد متونها أقلامها(٢)
فوقفت أسألها وكيف سؤالنا صما خوالد ما يبين كلامها(٣)

ثم يصف رحيل أحبابه عنها حتى يقول :

بل ما تذكر من (نوار) وقد نأت وتقطعت أسبابها ورمامها(٤)
مربة حلت بفيد ، وجاورت أهل الحجاز ، فأين منك مرامها(٥)

ويرى أن يقطع أمله منها ويترك رجاءه فيها ما دامت نوار قد تغير وصلها ،

ثم يصف الناقة : فيشبهها تارة بحمار الوحش ، فيقول :

يطلبن أسفار تركن بقيـــة منها فأحنق صلبها وسنامها(٦)
وإذا تغالى لحمهـــا وتحسرت وتقطعت بعد الكلال خدامها(٧)

---

(١) مدافع الريان : مساقط المياه ، والريان جبل . الوحي : الكتابة جمع وحي ، والسلام بالكسر جمع سلمة بكسر اللام : الحجارة .
(٢) الزبر : الكتب .
(٣) خوالد : بواقي .
(٤) نوار : اسم حبيبته . الرمام جمع رمة وهي القطعة من الحبل البالي ، يريد ان الوصل تقطعت به الاسباب .
(٥) مربة : تنسب الى مرة بن عوف وفيد موضع في طريق مكة ، مرامها منالهـــا .
(٦) طليح اسفار : ملازم لها ، أحنق ضمر .
(٧) تغالى ارتفع الى رؤس العظام تحسرت عريت عن اللحم ، الخدام جمع خدمة وهي سيور تشد بها النعال الى أرساغ الابل .

فلها هبات فى الزمام كأنها صهباء خف مع الجنوب جهامها(١)
أو ملمح وسقت لأحقب لاحه طرد الفحول وضربها وكدامها(٢)
يعلو بها حدب الأكام مسجج قد رابه عصيانها ووحامها(٣)

ثم يصف رحيل أحبابه عنها حتى يقول :

يا ما تذكر من «نوار» وقد نأت وتقطعت أسبابها ورمامها(٤)
مرية حلت بغيد ، وجاورت أهل الحجاز ، فأين منك مرامها(٥)

ويرى أن يقطع أمله منها ويترك رجاء فيها ما دامت نوار قد تغير وصلها :

فاقطع لبانة من تعرض وصله ولشر واصل خلة صرامها(٦)

ثم يصف الناقة : فيشبهها تارة بحمارة الوحش ، فيقول :

بطليح أسفار تركن بقية منها فأحنق صلبها وسنامها(٧)

---

(١) الهبات ، المنشاط ، الصهباء سحابة حمراء خف : أسرع . الجهام ، السحاب الذى لا ماء فيه .

(٢) الملمح ، الاتان التى استفسل طبياها باللبن . الاحقب الغير فى وركيه بياض . لاحه غيره وأهزله ، أى أنها تشبه الاتان التى يسوقها عير أحقب شديد الغيرة عليها من الفحول المطاردة .

(٣) مسجج أى مخدوش . الوحام اشتهاء الحبل .

(٤) نوار : اسم حبيبته . الرمام جمع رمة وهى القطعة من الحبل البالى ، يريد أن الوصل تقطعت به الاسباب .

(٥) مرية ، تنسب الى مرة بن عوف ، قيد موضع فى طريق مكة ، مرامها مطالبها .

(٦) اللبانة الحاجة ، تعرض ، تغير . الخلة بضم الخاء الصداقة .

(٧) طليح أسفار : ملازم لها . أحنق ضمر .

وإذ تغالى لحمها وتحسرت وتقطعت بعد الكلال خدامها(١)

فلها هبات فى الزمام كأنها صهباء خف مع الجنوب جهامها(٢)

أو ملمع وسقت لأحقب لاحه طرد الفحول وضربها وكدامها(٣)

يعلو بها حدب الأكام مسجح قد رابه عصيانها ووحامها(٤)

وتارة يشبهها بالبقرة الوحشية التى افترس السبع ولدها ، فأسرعت فى السير تطلبه فيقول :

أفتلك أم وحشية مسبوعة خذلت وهادية الصوار قوامها(٥)

خنساء ضيعت الفرير فلم يرم عرض الشقائق طوفها وبغامها(٦)

صادفن منها غرة فأصبنها إن للنايا لا تطيش سهامها

ثم خلص إلى الفخر بنفسه والتحدث إلى (نوار) حيث يقول :

---

(١) تغالى ارتفع الى رءوس العظام ، تحسرت : عريت عن اللحم ، الخدام جمع خدمة وهى سيور تشد بها النعال الى أرساغ الابل .

(٢) الهبات ، النشاط . الصهباء سحابة حمراء . خف : أسرع . الجهام ، السحاب الذى لا ماء فيه .

(٣) الملمع ، الأتان التى احتفل طبياها باللبن . وسقت : حملت . الأحقب العير فى وركية بياض . لاحه ، غيره وأهزله . أى أنها تشبه الأتان التى يسوقها عير أحقب شديد الغيرة عليها من الفحول المطاردة .

(٤) مسجح أى مخدوش . الوحام : اشتهاء الحبل .

(٥) مسبوعة : أصابعها السبع . الهادية المتقدمة والصوار القطيع من البقر .

(٦) الخنساء من الخنس وهو تأخر فى أرنبة الأنف . الفرير ولدها . الشقائق أماكن صلبة من الأرض .

أو لم تكن تدرى نوار بأننى وصال عقد حبائل جذامها(١)
تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يعتلق بعض النفوس حمامها
بل أنت لاتدرين كم من ليلة طلق لذيذ لهوها وندامها(٢)
أغلى السباء بكل أدكن عاتق أو جونة قدحت وفض ختامها(٣)

ثم يصف نفسه بالشجاعة :

وكثيرة غرباؤها مجهولة ترحى نواقلها ويخشى ذامها
غلب ، تشذر بالذحول ، كأنها جن البدى رواسيا أقدامها
أنكرت باطلها ، وبؤت بحقها عندى ، ولم يفخر على كرامها(٤)

ثم يصف نفسه وخلقه :

---

(١) الجذام ، القطاع ، والحبائل جمع حبالة : مصيدة الصائد وشركه . وهذا البيت وما بعده من الأبيات يتحدث بها عن مفاخر نفسه ومآثر قومه :

(٢) التفت فى كلامه الى نوار وقال ! (بل لذت ... البيت) والليلة الطلق التى لا حروولا برد فيها يؤذيان ، واللذلم ! المخادمة .

(٣) السباء ، شراء الخمر وجلبها ، ولا يستعمل لشراء غيرها . والأدكن : يريد به زق الخمر لأنه الغير ، والعاتق القديم والجونة (بفتح الجيم) السوداء يريد بها الخابية ، وقد حت وفض ختامها ، واحد .

(٤) فى هذه الأبيات الثلاثة يصف نفسه بالشجاعة والانتصاف من الاعداء الأقوياء قال (وكثيرة غرباؤها مجهولة) أى ورب كتيبة كثيرة الغرباء لما يحضرها من ألوان الناس مجهولة العاقبة ، ونواقلها غنائمها والنصر فيها ، وذامها عيبها وعار هزيمتها ، وغلب جمع أغلب وهو الغليظ العنق كناية عن قوة البدين ، بالدخول تتهدد وتتوعد بالاحقاد والثارات . والبدى هنا : واد لبنى عامر يحسب انه كان موطنا ، وبؤت بحقها انصرفت به .

وجزور أيسار دعوى لحتفها بمغالق متشابه أجسامها(١)

أدعو بهم لعاقر أو مطفل بذلت لجيران الجميع لحامها(٢)

فالضيف والجار الجنيب كأنما هبطا تبالة مخصبا أهضامها(٣)

تأوى إلى الأطناب كل رذية مثل البلية قالص أقدامها(٤)

ويكللون إذا الرياح تناوحت خلجا ، تمد شوارعا أيتامها(٥)

ثم يفتخر بقومه ومآثرهم وشرفهم ومجدهم فيقول :

من معشر سنت لهم آباؤهم ولكل قوم سنة وإمامها

إلى آخر القصيدة :

مغزى هـذا النص :

وللنص الذى اخترناه هنا هو موضع الحديث :

---

(١) يصف فى الأبيات الخمسة الآتية نفسه بأنه متلاف للمال يلعب الميسر بالجزور ويطعم لحومها الجيران والضيفان والارامل والايتام وكان ذلك عندهم من الكرم والفتوة . والمغالق : القداح .

(٢) (لعاقر أو مطفل) أى نلعب بها على جزور عاقر فتكون سمينة أو لجذور ذات طفل فتكون أغلى ثمنا ولحامها جمع لحم .

(٣) تبالة بلد بين اليمن والحجاز .

(٤) الاطناب جمع طنب وهى حبال الخيام ، والرذية المرأة الضعيفة جوعا أو الارملة البائسة ، والبلية فى الأصل الناقة يموت صاحبها ، والاهدام جمع هدم وهو الثوب الخلق البالى .

(٥) الخلج هنا الجفان الكبيرة ، وتمد أى يزاد فيها ، وشوارعا نعت للخلج والشوارع النوق ترد الشريعة وهى منهل الماء ويريد بها هنا اليتامى من الناس .

(أ) فمن حيث ذاتية الشاعر نجد أنه يفتخر فيه بقومه وأحسابهم بعد أن افتخر بنفسه . .

ويغلب على الظن أن الفخر هو الغرض الأصيل من المعلقة ، وأن الشاعر نظمها ليفتخر فيها بنفسه وعشيرته ، ومن ثم بدأها بذكر الاطلال ثم بالغزل ، ثم استطرد إلى وصف الناقة التى يسرى بالارتحال عليها عن نفسه الهموم والاحزان ، ثم عاد إلى الحديث عن حبه وشجاعته وكرمه ، ثم افتخر بأحساب قبيلته فى نهاية القصيدة .

(ب) ومن حيث المدلول القبلى للنص فإن الفخر بالقبيلة واحسابها جزء من كيان الشاعر الجاهلى وأخلاقه وطبعه وتقاليده ، لأن ذلك أساس الحياة الاجتماعية لديهم ، وكان لبيد من أرومة عظيمة ماجدة فى المجتمع العربى الجاهلى ، وهو أولى الشعراء بأن يفتخر بهذه الأرومة ، ويتحدث عن شمائل أهله المعطرة بأريج المجد والخلد .

(ج) ومن حيث المغزى البدوى الجاهلى لهذا النص ، فإن جو الأبيات وروحها ومحواها ، كل ذلك يرشد إلى البادية التى ولد ونشأ وعاش فيها لبيد ، وإلى العصر الجاهلى الذى أطل قبيل دخوله فى الإسلام ، فإن اتخاذ الحسب مادة للفخر دون الكفاية والذاتية والعمل والخلق عنصر أصيل فى المجتمع البدوى الجاهلى ، والعرب جميعا فى العصر الجاهلى كانت تظللهم روح البداوة سواء من عاش منهم فى البادية ، ومن عاش منهم فى القرى العربية كما يطلق عليها هذا الاسم ابن سلام فى كتابه طبقات الشعراء أو الحواضر العربية كما يسميها كثير من الباحثين . . . وأن كانت لا تصل إلى منزلة مدننا اليوم ، هذه المدن الجامعة لأسباب المدنية والحضارة مما لم يتوافر مثله لأى مجتمع قديم .

(د) ومن حيث المعنى الفنى لهذا النص ، فإن الشاعر يتحدث :

١ — فى البيت الأول عن أنه سليل هؤلاء الأقوام الكرام العظام ، الذين أرست لهم أجدادهم معالم التقاليد والأخلاق والطموح إلى المجد ، فهم الذين أناروا له الطريق ، وسنوا له الطموح إلى المجد والعزة ، ولكل قوم تقاليد طيبة سنيها لهم آباؤهم وأجدادهم وهدانهم ومرشدوهم .

٢ — وفى البيت الثانى يذكر الشاعر أن قومه ليسوا بخلاء ولا تخيب مساعيهم الجليلة ، وأعمالهم الكريمة ، ولا تميل عقولهم الراجحة مع الهوى والشهوات والأغراض الصغيرة .

٣ — وفى البيت الثالث يقول لكل إنسان من خصومه ومنافسيه .. اتبع أيها الرجل بقضاء الله فقد خلقك وقومك فى الطبقة التى أنت منها وخلقنى أنا وقومى من الطبقة التى تتحدث عنها إليك ، وقد قسم الله العلام الحظوظ والمنازل والدرجات بين الناس وهذا تفكير إقطاعى بلغتنا اليوم أو قل إنه تفكير جاهلى بعيد عن روح الإسلام وأصول دعوته التى تجعل الناس جميعا سواء فقيرهم وغنيهم وضعيفهم وشريفهم عجميهم وعربيهم .

وليس هذا بنظير الآية الكريمة .. « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات » إذ منشأ ذلك وسببه العمل والكفاية وليس فى تفاوت الأرزاق والحظوظ ووجوب الإيمان بأن ذلك من الله ، شىء يتصل بالبيت الذى نحن بصدده لأن الإسلام حرم الاذلال على الفقير بفضل الله وجعل أساس الفضل كله هو العمل .

٤ — وفى البيت الرابع يذكر الشاعر أن قومه أوفر العرب نصيبا من حفظ الإيمان والوفاء بها ، أو من المآثر العربية والمحافظة على ما يرهم من الناس ،

على تشبيه ذلك بالأمانة على معنى قريب أو بعيد من معنى الامـــانة فى الآية الكريمة « إنا عرضنا الإمانة على السموات والأرض والجبال » إذ الأمانة فى معناها : الشريعة أو تحمل مسئولية الحياة أمام الله عز وجل .

• — وفى البيت الخامس يذكر الشاعر أن الله عز وجل رفع من شأن قومه ومنحهم وحدهم الشرف والحسب والمجد ، فبيت مجدهم العظيم هو بانيه ورافعه ، هـذا البيت الذى يسمو إليه من القبيلة الشيخ الهرم والطفل والغلام على حد سواء ، والبيت شبيه بقول الفرزدق . .

إن الذى سمك السما. بـــنى لنا بيتا دعائمـه أعز وأطـــول

وإن كان بيت الفرزدق أعلى منزلة فى البلاغة من بيت لبيد ، إذ قدم الفرزدق ذكر عظمة مجدهم وسر هذه العظمة ، لأن الذى صنع هذه العظمة وخلقها هو الذى خلق السماء ورفعها ، وبالغ الفرزدق فى وصف هذا البيت بأن دعائمه عزيزة طويلة ، فهو أثبت فى مجال الحمد والفخر والشرف ، وأكثر سمودا للحوادث والمحن والأيام ، ولا يوجد ذلك فى بيت لبيد ، وزاد لبيد على الفرزدق بأن هذا البيت يسمو إليه الشيخ والطفل من القبيلة .

٦ — وفى البيت السادس يذكر لبيد أن قومه هم العاصون بأمر القبيلة والعشيرة إذا هى وقعت فى مشكلة أو أصيبت بمحنة وشدة ، وهم كذلك قوادها وحكامها .

٧ — وفى البيت السابع يصفهم بأنهم الربيع للناس الذين يجاورونهم من العامة والفقراء ومن النازلين فى جارهم كذلك ، بكل ما تحمله كلمة الربيع من

خير وخصب وكرم وسخاء ، وهم الربيع كذلك للأرامل واليتامى إذ تطاولت عليها أوقات الجدب والفقر .

٨ — وفى البيت الثامن يذكر أن قومه مجتمعون متحدون ، لا يؤخر خطاهم إلى المجد تيطى حاسد ، وتثبيط حاقد ، وليس فيهم لئيم يميل عليها مع أعدائها وخصومها .

شاعرية لبيد ومميزات شعره :

ويرشدنا هذا النص إلى شاعرية قوية لشاعرنا لبيد ، تماها وقواها فى نفسه وراثات الشاعر الأدبية ، ومواهبه الفطرية ، وبيئته البدوية الشاعرة ، وكثرة الخصومات والمنافسات والحروب التى اشترك فيها ، والمجتمع الأدبى الحافل بالنشاط فى مجمع الجزيرة العربية فى نجد وكذلك يتمه المبكر الذى فقد بسببه عطف الوالد ، وحزنه الشديد لفقد أربد أخيه .

وشعر لبيد من حيث ألفاظه بدوى فحشلته يمزع إلى الإغراب والوحشية وقد ينجح حينا إلى سهولة اللفظ وسماحة المفردات وخاصة فى رثائه ، وهو من حيث الأسلوب يجزل القول ويتأثر روح البداوة . . ومعانيه ساذجة صادقة واقعية وأشهر أغراض شعره : الوصف والفخر .

وقد عده ابن سلام من شعراء الطبقة الثالثة ، وجعله أبو عبيدة من شعراء الطبقة الثانية الجاهليين مع لبيد وطرفة والأعشى ، ووافقه على ذلك أبو زيد القرشى صاحب الجمهرة ، ويشبهه الأصمعى شعر لبيد بالطيلسان الطيرى يعنى أنه جيد الصنعة وليست له حلاوة(١) .

(١) ٧١ الموشح للمرزبانى .

مصادر لدراسة لبيد

١ — أشعار الشعراء الستة الجاهليين .

٢ — أعلام الأدب العربي .

٣ — الشعراء الجاهليون .

٤ — رجال المعلقات العشر .

٥ — الحياة الأدبية في العصر الجاهلي .

٦ — ديوان لبيد العامري .

٧ — الأدب الجاهلي لطه حسين .

٨ — الأدب وتاريخه في العصر الجاهلي لمحمد هاشم عطية .

٩ — الشعر والشعراء لابن قتيبة .

١٠ — طبقات الشعراء لابن سلام .

١١ — الأغاني طبع بولاق ١٤ : ٦٠ .

١٢ — جمهرة أشعار العرب ص ١٤ طبعة ١٩١١ القاهرة .

١٣ — المعلقات العشر لزوزني .

١٤ — المعلقات الدكتور بدوي طبانة .

١٥ — تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ترجمة الدكتور النجار جـ ١

الفصل الثامن

شـــاعر الحـــكمة

زهير فى الحكمة

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ... ولكننى عن علم ما غد عمى(١)

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب ... تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم(٢)

ومن يجعل المعروف من دون عرضه ... يفره ومن لا يتق الشتم يشتم(٣)

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله ... على قومه يستغن عنه ويذمم(٤)

ومن يوف لا يذمم ومن يهد قلبه ... إلى مطمئن البر لا يتجمجم(٥)

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... وإن يرق أسباب السماء بسلم(٦)

---

(١) عمى : أى أعمى ويقصد به فاقد البصيرة أو المعنى : اعلم ما فى يومى لأنى مشاهده ، وما كان بالأمس لأنى شهدته ، وأما علم ما فى غد فإنى أعرف منه شيئا - وإذا وازنا الشطر الثانى بقول الله تعالى (وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا) عرفنا الفرق بين بلاغة العرب وبلاغة القرآن الكريم .

(٢) المنايا : جمع منية وهى الموت . خبط عشواء : أى تخبط خبط العشواء وهى الناقة لاتبصر ما أمامها ليلا والمراد السير على غير هدى .

(٣) وفرت الشىء أفره : أى كثرته والضمير للمعروف أو للعرض أى من يذل المعروف صان عرضه .

(٤) أى من يك ذا تفضل ومال فيبخل به استغنى عنه وذاله الذم .

(٥) يوف : من الوفاء بالعهد . مطمئن البر : خالصه . لا يتجمجم أى لا يتردد .

(٦) أى لمن يخاف أسباب المنية ذلك لا محالة ولو صعد السماء بمرقاة . وقول الله تعالى : (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة) أبلغ وأشمل .

ومن يجعل المعروف فى غير أهله ... يكن حمده ذما عليه ويندم(١)
ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه ... يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم(٢)
ومهما يكن عند امرئ من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تعلم(٣)

حكمة زهير ومصادرها :

هذه الأبيات فلها زهير فى الحكمة ، وكانت حكمته خليطا من عقله ، وفيضا من تجاربه وحدى مرددا خبرته بالناس والحوادث والأيام ، وقد اشتهر زهير بالحكمة وعد ممهدا للشعراء الذين نظموا فيها من بعد ، كصالح بن عبد القدوس وأبى العتاهية وأبى تمام والمتنبى والمعرى .

دراسة النص :

(أ) فى هذا النص روح الجاهلية وبداوتها ، فيه من الطابع الجاهلى سذاجة الفهم والتصور لحقائق الأشياء : ويتجلى هذا واضحا فى حديثه زهير عن الموت وأنه يجىء إلى الناس خبط عشواء ، فيلا تدبير وحكمة يجىء إلى فلان فيميته ويخطئ الطريق إلى فلان فيعمر ويهرم . ويتجلى كذلك فى دعوته إلى تخصيص الأهل بالمعروف ، ونحن نعلم أن شعار الاسلام وضع المعروف فى كل موضع واليد بوضعه فى الأهل ، ثم وضعه بعد ذلك فى غير الأهل بقدر الإمكان كما يتجلى كذلك فى دعوته إلى حمل السلاح دائما للدفاع عن الشرف ومفاخر

---

(١) المعنى : اختر لمعروفك من يحفظه ولاصطناعك من يؤثر فيه .
(٢) الذود : الدفع وفيه دعوة الى الغيرة ، والحوض : الحرم .
(٣) الخليقة : الخلق ، والمعنى من كتم أخلاقه عن الناس وظن انها تخفى عليهم فلا بد أن تظهر عندهم بما يجرون منه .

القبيلة ، بلا قانون ولا نظام ولا حكومة بل أنه يؤكد أن من يسالم الناس يظلم ، وهذا خلاف دعوة الإسلام وشعاره الجليل ، شعار السلام والوئام والمحبة أليس ذلك كله طابعا معروفا للعصر الجاهلي الذي يبعد عن شعار الاسلام ودعواته النبلي الكريمة ؟ ويدل كذلك على الطابع الجاهلي قوله : وإن يرق أسباب السما بسلم ، وكأن الشاعر يفهم أنه قد يتصور أن يرقى السما بسلم .

(ب) والأسلوب أيضاً يرشدنا إلى أننا أمام نص جاهلي ، فالمفردات وطرق تأليفها ، وكذلك المعاني وعدم ترتيبها ، واستمداد هذه المعاني من طريق التجربة لا من طريق الثقافة والفهم لحقائق الحياة ونواميسها الصالحة ، كل ذلك يرشد إلى أن النص جاهلي ، وانظر إلى قول زهير : خبط عشواء ، لا بتجمعهم وغيرها من مفرداته .

(ج) وجملة مغزى حكم زهير هذه هي :

١ ــ الإنسان يقف أمام لغز الحياة حائرا فهو يعلم الحاضر والماضي ولكنه يعمى عن معرفة أحداث المستقبل .

٢ ــ والموت هذا اللغز الكبير أنه يغبط في الناس خبط عشواء ، من يقصله مات ومن أخطأه عمر حتى يهرم .

٣ ــ ولكن الانسان يجب عليه أن يعرف طبيعة الناس أنه إذا بذل المعروف ليحفظ به عرضه منهم صان عرضه ومجده ، وإن أساء معاملتهم وعرض نفسه لشتمهم شتموه والمقابلة هنا بين الشطر الأول والثاني لا تعتمد على منطق إنما هي مقابلة اتفاقية محضة بديلة عن التفكير وحقائق العقل ، مقابلة بدوية غريبة .

٤ — إن الرجل الغنى الذى لا يبذل ماله لأهله بخلا وشحا يستغنى عنه أهله ويذمونه .

٥ — والذى يحافظ على الوفاء بعهوده لا يناله ذم ، ومن يهتد إلى طريق البر والخير لا يتردد فى سلوكه ، وكأن زهيرا مع الذين يقولون : إن المعرفة هى الفضيلة ، فكل من عرف الخير لا بد أن يسلك طريقه .

٦ — والذى يتقى الوقوع فى أسباب الموت لا بد أن يدركه الموت وأن صعد إلى طريق السماء بمعارج ، والفرق بعيد جدا بين كلام زهير وحكمة القرآن الكريم الخالدة : أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة . .

٧ — إن الذى يضع المعروف فى غير أهله ينقلب حمده ذما عليه ويصبح نادما . . وكأنه يدعو إلى تخصيص وضع المعروف فى الأهل والعشيرة .

٨ — الذى لا يحمل السلاح دائما ليدافع عن شرفه ومجده يهدمه الناس ، ومن لا يقاوم الناس ظلمه الناس ، وهو هنا يدعو إلى القوة التى دعا إليها نيتشه فى العصر الحاضر ، ولكن الاسلام يدعو إلى الحق والعدل والاحسان ، وفرق بين شعار القوة ، وشعار الحق والعدل والاحسان .

٩ — الرجل مهما أخفى طباعه وأخلاقه وظن أن الناس تجهل ذلك كله لا بد أن ينكشف أمره للناس إن قريبا أو بعيدا .

كل هذه الأفكار الصحيحة منها والخاطئ، تمثل لنا تفكير الجاهليين ، تمثل عقلية زهير ، وتمثل شخصيته كذلك فى وضوح لا لبس فيه .

شاعرية زهير وبواعثها :

كان زهير شاعرا مجيدا معدودا من فحول الشعراء فى الجاهلية ، وكان النقاد يضعونه مع امرىء القيس والنابغة والأعشى فى طبقة واحدة هى الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية وكان الذى بلغ به إلى هذه المنزلة الكبيرة فى الشعر ، ووفق أسباب شاعريته عدة أسباب منها :

أولا : هذه البيئة العربية البدوية الشاعرة .

ثانيا : تلك النهضة الأدبية فى الشعر التى كانت تموج بها نجد والقرى العربية فى عصر زهير .

ثالثا : وراثته الشعر عن أسرته ، فقد كان خاله بشامة بن الغدير شاعرا ، وكانت أسرة زهير من آبائه وذريته من المجيدين فى الشعر ، قالوا : لم يتصل الشعر فى أهل بيت من العرب كما اتصل فى بيت زهير : فأبوه وأبناؤه وأحفاده وأخته الخنساء كلهم من الشعراء المجيدين .

رابعا : اشتراك زهير فى الملاحم الحربية فى الجزيرة العربية وفى حرب داحس والغبراء . والحروب تثير الشاعرية ، وتهيج الخيال ، وتحرك الشعور وتبعث على الكلام .

خامسا : المنافسات الأدبية بين زهير والشعراء المعاصرين له ، كانت سببا أيضاً من أسباب نضوج شعره وشاعريته .

سادسا : قصد زهير بشعره إلى المدح كان يدفعه إلى الإجادة والتهذيب فى شعره مما رفع من مكانته ، وقوى أسباب الرغبة فى نفسه وشاعريته .

أثر حياة زهير فى شعره :

أولا : نشأته فى أسرة شاعرة جعلته يجوه من شعره ويهذب من شاعريته .

ثانياً : اتصاله بهرم وتوالى أيادى هرم عليه جعلاه يجود فى المدح .

ثالثاً : مشاهدته حرب داحس والغبراء الطاحنة ، ومآسيها الدامية ، دفعه إلى نظم الشعر فى التنفير من الحرب والدعوة إلى السلام .

رابعاً : تجارب زهير وخبرته بالحياة أفضجت شعر الحكمة عنده .

خامساً : التنافس الأدبى بينه وبين الشعراء ، وتلمذته على أوس بن حجر ، دفعاه إلى تجويد شعره والعناية بتهذيبه .

خصائص شعره :

أولا : من حيث الألفاظ :

كان زهير يختار ألفاظه اختيارا ، ويبالغ فى اختيارها بذوقه وفطرته الأدبية . وقد يسرف فى الغرابة حينا ، ولكن لا يخلو أغلب شعره من سهولة فى اللفظ حينا ، وجزالة وقوة غالبتين عليه أحياناً .

ثانياً : من حيث الأسلوب :

أسلوب زهير من أساليب الشعراء المجودين المصنعين فى شعرهم ، وأنتم تعلمون مذهب زهير فى الروية وتهذيب الشعر وتنقيحه للوصول به إلى منزلة الكمال الفنى فى النظم وإدراكه المنزلة السامية بين الشعراء . . . ومذهب

الرؤية فى شعر زهير واضح كل الوضوح فى جميع قصائده ويتجلى فى عدة مظاهر فى أسلوب زهير : من امعان فى تنقيح الأسلوب ونفى كل ما يعاب به ، واسقاط كل ما يؤخذ عليه ، ومن إدخال الرونق والبهاء والجمال على كل بيت من أبيات قصيدته ، ومن قصد السهولة والوضوح والامتاع واللذة الفنية التى تبعث على الإعجاب والروعة والتأثر .

يغلب على شعر زهير ألوان كثيرة من الصنعة ، ويدخلها فيه : من إستعارة وتشبيه وكناية وطباق ، ولكن هذه الألوان الفنية تجىء فى شعره عفو القريحة ، من غير قصد إليها وعمل لها وتكلف فيها وغلو فى طلبها : وإنما تنبعث من ذوق الشاعر وموهبته وروحه الصناع الموهوب ، وهذه الخصائص التى امتاز بها أسلوب زهير كانت هى السبب الأهم فى تقديم كثير من النقاد له .

ويجمع أغلبهم على وصف أسلوبه بالخلو من التعقيد والتكلف ، وبالسهولة والوضوح فى قسوة وجزالة ، وعلى أى حال فأسلوب زهير ينبع من شاعريته ومملكاته ، ويمثل مذهبه فى الصنعة الذى شعر به ، والذى أخذه عنه تلاميذه من أمثال : الحطيئة ، وكعب ابن شاعرنا زهير .

ثالثاً : من حيث المعانى :

معانى زهير — كما قلت — تنبع من نفسه ، وتصدر عن حسه ، وتتصل بمظاهر البيئة فى حياته لا يتمن فيها فى طلب المحال ، ولكنه يعمد إلى الصدق فإذا بالغ فى أداء المعنى اختار طريق المبالغة المقبول فقال مثلا :

فلو كان حمد يخلد الناس أخلدوا ولكن حمد الناس ليس بمخلد

وإذا أراد أن يجود فى المدح اختار ما هو ألبق به وأقرب إلى ذوق الناس فى عصره : من وصف ممدوحه بالبطولة والشجاعة واللسنة والنائل الكثير ، والنهال عند ورود الغاة ، ولكنه لا يزعم أبدا أن ممدوحه فعل المعجزات وصنع المستحيلات ونالت قدرته السموات : كما يزعم المحدثون من الشعراء وتشيع فى معانى زهير الحكمة الصادقة ، والتجربة الصحيحة ، والخبرة الواعية بالحياة وأحداثها ومشكلاتها . . ومن ثم عد من شعراء الحكمة فى العصر الجاهلى .

رابعاً : من حيث الخيال :

معانى زهير لا يسوقها سوق الحس والمشاهدة فحسب ، ولكنه يحكى فيها على خياله ، ليبرزها فى ألوان مجنحة من صنعه الخيال المتصرف فى ملكات النفس والشعور . وهذا الخيال عند زهير من صفته أن يقرب البعيد ، ويسهل الصعب من المعانى ، ويوضح الغامض ، وأجنحة هذا الخيال فى مبالغة مقبولة ، أو صادقة أو كناية قريبة ، أو تشبيه مستطرف فى ثنايا شعره .

خامساً : من حيث الأغراض :

أجاد زهير إجادة عالية فى الحكمة والمدح والغزل ، وقارب من الاجادة فى الوصف والفخر والعتاب كان متوسطا فى الهجاء ، والرثاء والاعتذار . وقد مضت نماذج لهذه الفنون من شعره ، ولكن الذى نريد أن نتحدث عنه هو أسباب تجويده فى المدح . وهذه الأسباب من أهمها :

أولا : حرص زهير على تسجيل بعض مآثر سادات العرب الذين كان لهم مكان مرموق فى الحياة الجاهلية ، وأثر واضح فى فض الحرب بين قبائلها .

ثانياً : الوفاء الذى طبعت عليه نفس زهير وشدة تأثره بأيدى ممدوحيه عليه .

ثالثاً : اعتزازه بمفاخر القبيلة ، ومجدها ومآثرها ، مما كان يدفعه إلى مدح قومه .

رابعاً : اتصاله بهرم وتوالى أياديه عليه . . . كل هذه الأسباب جعلته جيد المدح . ولذلك قالوا : (كان أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب والنابغة إذا رهب ، والأعشى إذا طرب) ، ويقصدون من ذلك أن أجود شعر امرئ القيس كان فى صف الخيل والصيد وأجود شعر زهير كان فى المدح ، وأجود شعر النابغة كان فى الاعتذار ، وأجود شعر الأعشى كان فى وصف الخمر .

تجويد زهير :

اشتهر زهير بالتجويد لشعره ، والروية فيه والإناة فى نظمه له ، وبخاصة معلقاته ، كالملحمة المشهورة .

وتظهر أناته وهدؤه فى رزانة تفكيره وتخيره للمعانى التى تناسب الموضوع الذى يأخذ فيه ثم انتخاب الألفاظ التى يستخدمها للتعبير والتى يصور بها الرفق حين يريد أن يكون رفيقا ، أو الشدة حين يريد أن يكون شديدا . . وقد قالوا إنه كان ينقح قصيدته فى شهر ويعرضها بعد ذلك على خواص إخوانه عرضا يستغرق عاما كاملا ، حتى إذا اطمأن إلى أنها خالية من الطاعن أعلن للناس ميلادها ، ولذلك سميت قصائده الحوليات ، وكما كان لزهير الطوال

من القصائد وكانت له للقطوعات الصغيرة ، وشعره وإن كان جيدا على الجملة ، فإن أكثره جودة ، وأحسنه ، وأروعه بيانا هو مدائحه . وما كان منه فى هرم كقوله يمدحه . . . .

قد جعل المبتغون الخير فى هرم ... والسائلون إلى أبوابه طرقا(١)

من يلق يوما على علاته(٢) هرما ... يلق السماحة منه والندى خلقا

وعلى الجملة فإن الحديث عن زهير بن أبى سلمى حديث عن الشعر الجاهلى فى طور تهذيبه أو فى مرحلة من مراحل نضوجه ، وفترة من فترات نموه ، وخطوة واسعة من خطوات تقدمه وازدهاره ، لأن الملامح التى بدت فيه ، والصفات التى ظهرت عليه ، والجهود الجبارة التى بذلها هذا الرجل الضخم سبيل الانتقال به من ذات الصدع إلى ذات الرجع جهود كلها تجعل زهيرا فى الخالدين . وقد صدق عمر بن الخطاب رضى الله عنه حينما سأل ابن زهير : بليت الحلل التى كساها هرم أباك ؟ فقال له : بليت ، إذ قال له : ولكن الحلل التى كسى بها أبوك هرما لم تبل . .

زهير فى الميزان :

نشأ زهير فى بيئة شاعره . هو وأبوه بنوه فى بنى عبد الله بن غطفان ، فى بادية نجد وتتلمذ على خاله بشامة بن الغدير — وكان من فحول الشعراء ومن ذوى الشرف والرأى فى قومه — ثم على زوج أمه أوس بن حجر ، وروى

---

(١) المبتغون الخير الذين يبغون جوده .
(٢) من غير استعداد وذلك معنى على علاته .

لها ، وتأثر بشعرها ، يقول ابن الاعرابي : لزهير في الشعر ما لم يكن لغيره : كان أبوه شاعرا ، وأخته سلمى شاعرة ، وأخته الخنساء شاعرة ، وابناه كعب وبجير شاعرين ، وابنه للضرب بن كعب شاعرا ومن ثم علت منزلته بين الشعراء .

يقول أبو عبيده : أشعر الناس أهل الوبر (البادية) ، وهم امرؤ القيس وزهير والنابغة ، ويقول النقاد لم أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب والنابغة إذا رهب .

وذكره الأصمعي فقال : كذلك من الشعراء أربعة ، زهير إذا طرب ، والنابغة إذا رهب والأعشى إذا غضب ، وعنترة إذا كلب(١) .

ويقول أبو العباس ثعلب في زهير : كان أحسن الشعراء ، وأبعدهم عن سخف ، وأجمعهم لكثير من المعنى في قليل من المنطق وأشدهم مبالغة في المدح، وأكثرهم أمثالا في شعره .

وذهب بعض النقاد إلى أن زهيرا أشعر العرب . . وعده عمر بن الخطاب أشعر الشعراء لأنه لا يعاظل بين الكلام ولا يتتبع حوشيه ، ولا يمدح أحدا بغير ما فيه ، وقد فضله الكثيرون على غيره من الشعراء كامرىء القيس والنابغة ، وأضرابهما .

منزلة الحكمة من معلقة زهير :

الحكمة غرض كبير من أغراض هذه المعلقة الرائعة ، وهو غرض أصيل

(١) ٢٣ الجمهرة .

كانت تدعو إليه عليه دعوة زهير فى معلقته ، هذه الدعوة التى نادى بها زهير ودعا إليها ، من أجل السلام والصلح بين المتحاربين .

كانت حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان تؤرق زهيرا وتضنيه ، وتثير شاعريته ، ولما سعى هرم بن سنان والحارث بن عوف الريان فى الصلح وحقن الدماء وتحمالديات القتل أنطقت تلك المأثرة زهيرا ، فنظم معلقته هذه هذين السيدين ، وبنوه بعملهما الجليل ويدعـــو إلى السلم وينفر من الحرب ويصف مآسيها وآلامها ، وهى قصيدة رائعة ، تمتاز بحكمها الكثيرة وكان زهير اذا حسكة فى شعره . . وقد بدأ معلقته بذكر الديار وزيارته لها ووقوفه فيها من بعد عشرين عاما طوالا ، يتذكر ذكريات حبه ووفائه ، قال :

أمن أم أو فى دمنـــة لم تكلم بحـــومانة الدراج فالمتثلم(١)
وقفت بها من بعد عشرين حجة فلأيا عرفت الدار بعد تـــوهم
فلمـــا عرفت الدار قلت لربعها ألا انعم صباحا أيها الربع واسلم

ثم أخذ يصف النساء اللاتى ارتحلن عنها . فيتيمهن ببصره كئيبا حزينا ، ويصف الطريق التى سلكنها ، والوادج التى كن فيها ، والمياه التى نزلنها ، فى عذوبة وسهولة وجمال ، إلى أن يقول :

فلما وردن المـــاء زرقا جمامة وضعن عصى الحـــاضر المتخيم
تذكرن الاحلام ليل ومن تعلف عليه خيالات الاحـــبه يحـــلم

ثم ينتقل إلى مدح ، هرم والحارث والاشادة بمنقبتهما الكريمة فى إنقاذ

(١) الحمة : ما بقى من آثار الدار . الدراج فالمتثلم : موضعان ، والحومانة : القطعة من الرمـــل .

السلام واطفاء الحرب بين عبس وذبيان وتحملهما ديات القتلى من مالهما ، وقد بلغت ثلاثة آلاف بعير قال :

سعى ساعيا ، (غيظ بن مرة) بعدما تبزل ما بين العشيرة بالدم(١)

فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله رجال بنسوه من قريش وجرهم

يمينا لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم(٢)

ثم ندد بالحرب ووصف ويلاتها ، ودعا إلى السلم وأكده أوجهه على المتحاربين ، قال :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم

ثم ينصح قومه بأن يبقوا على السلم ، ويندم بالحصين بن ضمضم وبآثار عمله فى تهييج الشر وإعادة نار الحرب ، وكان الحصين حين اجتمع للصلح قد حمل على رجل له عنده ثأر فى الحرب فقتله . . وبعد التنويه بالرجلين الذين احتملا ديات القتلى واحدا واحدا على غير جريرة كانت منهما .

ثم ينتقل من هذا المجال الرهيب مجال النصح والتوجيه وتأكيد السلام ، إلى مجال الحكمة الإنسانية العامة ، حكمة الحرب والحياة الذى ذاقها وخبرها ، وعاش فى خضمها ثم امتد به العمر فزهدها وانصرف عنها . . قال :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أبا لك يسأم

وأعلم ما فى اليوم والأمس قبله ولكننى عن ما فى غد عم

---

(١) تبزل : تشقق .

(٢) السحيل : الخيط أو الحبل يفتل فتيلا واحدا والمبرم : ما يفتل خطين ثم يفتلان ثانية — ويجعلان خيطا واحدا ، والمراد : حالا الرخاء والشدة .

وختمها بتأكيد معروف السيدين الممدوحين عليه فيقول :

سألنا فأعطيتم وعدنا فعدتم ومن يكثر القسآل يوما سيحرم

فجملة أغراض المعلقة هي : الغزل ـ الدعوة إلى السلام ومدح السيدين فيه والتنديد بالحرب وفظائعها ـ الحكمة .

ومن ذلك نرى أن الحكمة أحد أغراض ثلاثة أصلية تدور حولها المعلقة ، ونرى وحدة القصيدة في المعلقة ظاهرة لاخفاء فيها ، فهي في غرض واحد وفكرة متكاملة . . . وشاعرية الشاعر فيها لا يدب إلى جانب من جوانبها اضطراب أو تعقيد أو غموض .

مصـــادر لدراسة زهـــير

١ ـــ الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى للمؤلف .

٢ ـــ أشعار الشعراء الستة الجاهليين ـ جزآن بشرح الخفاجى .

٣ ـــ الأدب الجاهلى لطه حسين .

٤ ـــ ديوان زهير .

٥ ـــ الأغانى ٩ : ٤٨ ، ١٤٦ .

٦ ـــ الشعراء لابن قتيبة .

٧ ـــ جمهرة أشعار العرب .

٨ ـــ زهير لحنا نمر ـ من سلسلة الطرائف عدد ٣ .

٩ ـــ تاريخ آداب اللغة العربية لبروكلمان .

١٠ ـــ تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان .

١١ ـــ رجال المعلقات العشر لمصطفى الطلايلى .

١٢ ـــ حديث الأربعاء ١ : ٩١ .

١٣ ـــ دراسة الشعراء لابراهيم الأبيارى .

١٤ ـــ خزانة الأدب ١ : ٣٧٥ .

١٥ ـــ معلقة زهير بشرح النحاس طبعة هوسير برلين ١٩٠٥ .

١٦ ـــ شعراء النصرانية ١ : ٥١ .

١٧ ـــ مصادر الشعر الجاهلى .

١٨ ـــ بحوث فى الأدب الجاهلى للأستاذ إبراهيم أبو الخشب .

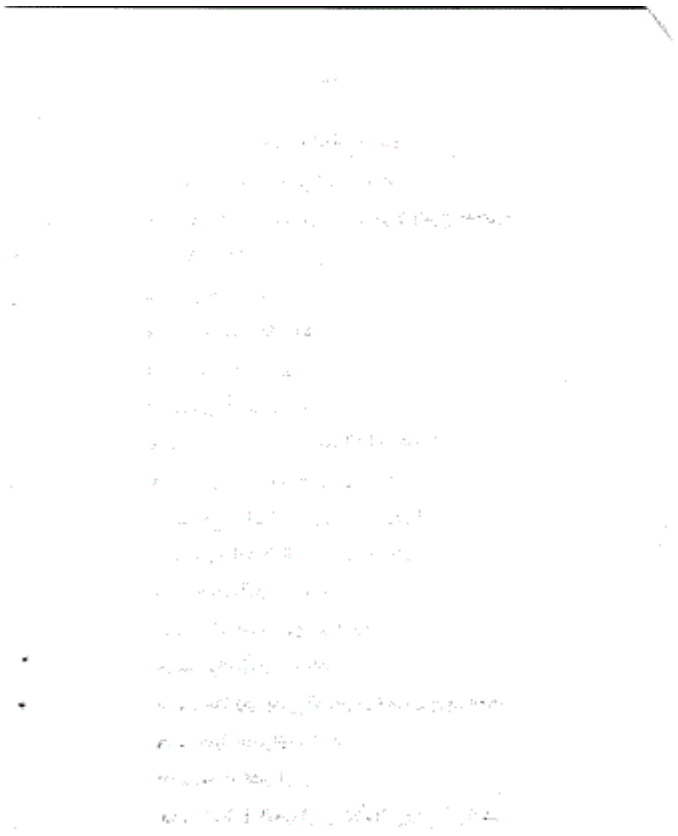

الفصل التاسع

لذات الشباب عند الشاعر الشاب

طرفة يصف لذات الشباب

وَلَسْتُ بِحَلاَّلِ التِّلاعِ مَخافَةً
وَلَكِنْ مَتى يَسْتَرْفِدِ القَوْمُ أَرْفِدِ(١)

وَإِنْ تَبْغِنى فى حَلْقَةِ القَوْمِ تَلْقَنى
وَإِنْ تَلْتَمِسْنى فى الحَوانِيتِ تَصْطَدِ(٢)

مَتى تَأْتِنى أُصْبِحْكَ كَأْساً رَوِيَّةً
وَإِنْ كُنْتَ عَنْها ذا غِنًى فَاغْنَ وَازْدَدِ(٣)

وَإِنْ يَلْتَقِ الحَىُّ الجَمِيعُ تَلاقَنى
إِلى ذَرْوَةِ البَيْتِ الشَّرِيفِ المُصَمَّدِ(٤)

---

(١) التلاع : جمعة تلعة وهى مجارى المياه من رؤوس الجبال الى الأودية حيث تشق فيها شقا ، استرفد : طلب الرفد وهو المعونة والعطاء ـ المعنى : لست ممن يستتر فى التلاع وشقوق الجبال مخافة الضيفان والمسترفدين ولكن متى يطلب القوم اعانتى أعينهم .

(٢) الحانوت : حانة الخمار ـ يعنى اذا طلبت معونتى تجدنى اما فى حلقة القوم عند المشورة وتبادل الرأى ، واما فى حانات الخمارين ، أى أنى رجل جد اذا جد الأمر ، ورجل لهو اذا فرغت للذاتى .

(٣) المعنى: اذا جئتنى اصبحك بشرب كاس ترويك ، وان كنت غنيا عنها بما عندك فاغن به وازدد بما عندنا .

(٤) ذروة كل شىء أعلاه . المصمد : الذى يصمد اليه فى الحوائج أى يقصد ـ المعنى . ان يجتمع الحى للمفاخرة بالأنساب تجدنى أنتمى الى بيت شريف يقصد فى الحوائج .

نداماى بيض كالنجوم وقينة
تروح علينا بين برد ومجسد(١)

إذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنا
على رسلها مطروقة لم تشدد(٢)

إذا رجعت فى صوتها خلت صوتها
تجاوب أظآر على ربع ردى(٣)

وما زال تشرابى الخمور ولذاتى
وبيعى وإنفاقى طريفى ومتلدى

إلى أن تحامتنى العشيرة كلها
وأفردت إفراد البعير المعبد(٤)

---

(١) الندامى : جمع نديم ، القينة : الأمة المغنية ، وقد تطلق على الأمة أيا كانت . تروح علينا : أى تأتينا عشية . المجسد : الثوب المصبوغ بالجساد وهو الزعفران أو الثوب الذى يلى الجسد وهو الشعار ـ المعنى : نداماى أحرار بيض ـ ليسوا مولدين من إماء سود ـ ، فهم مثل النجوم الوضاء ، ومن نداماى مغنية ـ تجىء إلينا عشية ـ عليها برد تحته قميص أحمر اللون أو تحته قميص على جسدها .

(٢) إذا نحن قلنا أى لها لهذه المغنية : أسمعينا غناءك ، اعترضت لنا وظهرت تغنى على رسلها هينة فى رفق وتؤدة مطروقة العين أى ساكنة الطرف لم تبالغ فى صياحها .

(٣) رجعت فى صوتها : كررت النغم . الأظآر : جمع ظئر وهى هنا الناقة المرضع . الربع : الفيصل الذى ولد فى الربيع .

(٤) تحامتنى : تجنبتنى . المعبد : المذلل المطلى بالقطران حتى ذهب وبرد ، أو الذى عبده الجرب أى ذلله ـ المعنى تحامتنى العشيرة لما رأتنى لا أكف عن إتلاف المال والاشتغال باللذات وأصبحت بلذتى منفردا كالبعير الأجرب .

وَأَيْتَ بَنِي غَبْرَاءَ لا يُنْكِرُونَنِي
وَلا أَهْلُ هَـذَاكَ الطِّرَافِ الْمُمَدَّدُ(١)

أَلا أَيُّهَذَا الزَّاجِرِي أَحْضُرَ الْوَغَى
وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَّاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِي(٢)

فَإِنْ كُنْتَ لا تَسْطِيعُ دَفْعَ مَنِيَّتِي
فَدَعْنِي أُبَادِرُهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِي(٣)

وَكَوْلا ثَلاثٌ هُنَّ مِنْ عِيشَةِ الْفَتَى
وَجَدُّكَ لَمْ أَحْفِلْ مَتَى قَامَ عُوَّدِي(٤)

فَمِنْهُنَّ سَبْقِي الْعَاذِلاتِ بِشَرْبَةٍ
كُمَيْتٍ مَتَى مَا تَعْلُ بِالْمَاءِ تَزْبِدِ(٥)

---

(١) الغبراء : اسم للأرض ، بنو غبراء : الفقراء أو الاضياف ، الطراف : القبة من الجلد يتخذها الموسرون والاغنياء ، الممدد : الذى مد بالاطناب ـ المعنى : ان اعتزلونى لا أكون مجهولا فان الفقراء يعرفوننى بعطائى لهم وكذلك الاغنياء لجلاء وشرف نسبى .

(٢) أحضر : رواه البصريون بضم الراء ، والكوفيون بفتحها على تقدير ان ، الوغى : الحرب وأصله اصوات المحاربين ـ المعنى : يامن يزجرنى من أجل حضورى الحروب وأنهما كن فى اللذات لان كلا منهما يجر الى الموت ، هـل أنت ضامن لى الخلود فى الدنيا ، فان كنت لا تستطيع دفع منيتى فدعنى أسبق اليها بانفاق ما ملكت يدى فى لذاتى .

(٣) استطاع : لغة فى استطاع .

(٤) وجدك : حظك وبختك ـ وأحفل : أبالى ، العود هنا جمع عائدة من العيادة وهى الزيارة .

(٥) سبقى : يروى : سبق .

كَرِيٌّ إِذَا نَادَى المُضَافُ مُحَنَّبًا
كَسِيدِ الغَضَا نَبَّهْتَهُ المُتَوَرِّدُ(١)

وَتَقْصِيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ وَالدَّجْنُ مُعْجِبٌ
بِمَهْكَنَةٍ تَحْتَ الخِبَاءِ المُعَمَّدِ(٢)

أَرَى قَبْرَ نَحَّامٍ بَخِيلٍ بِمَالِهِ
كَقَبْرِ غَوِيٍّ فِي البِطَالَةِ مُفْسِدِ(٣)

أَرَى المَوْتَ يَعْتَامُ الكِرَامَ وَيَصْطَفِي
عَقِيلَةَ مَالِ الفَاحِشِ المُتَشَدِّدِ(٤)

أَرَى العَيْشَ كَنْزًا نَاقِصًا كُلَّ لَيْلَةٍ
وَمَا تَنْقُصِ الأَيَّامُ وَالدَّهْرُ يَنْفَدِ(٥)

---

(١) كرى : عطفى . المضاف : المائل المذعور . المحنب : الذى فى قوائمه أو ضلوعه انحناء قليل ، ويروى بالجيم . سيد الغضا : ذئب خبيث .

(٢) الدجن : الماء الغيم ودوامه . بهكنة . المرأة الحسنة الخلق السمينة الناعمة . المعمد : المرفوع بالعماد .

(٣) النحام : الكثير الدحيم وهو الشحيح بخلا . والمراد بالغوى هنا : المسرف فى ماله المبدد له بانفاقه .

(٤) يعتام : يصطفى ويختار . عقيلة كل شىء . خيرته وأنفسه عند أهله فهم يعقلونه أى يمنعونه الناس لذلك . الفاحش المتشدد : الشديد البخل .

(٥) العيش هنا : العمر والحياة .

لَعَمْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى
لَكَالطِّوَلِ الْمُرْخَى وَثِنْيَاهُ بِالْيَدِ(١)

مغزى هذا النص :

يمثل هذا النص طرفة صاحب مذهب فى الحياة ، وفلسفة شخصية فى المجتمع ، يمثله مقبلا على الناس والحياة كريما سخيا معهم ، لا يضن بصوتهم ، فهو رجل رأى إذا استشير ، ورجـــل لهو إذا فرغ لنفسه ، وعندما يختبر المختبرون أحساب الناس كان فى ذروة الشرف ، وفى مجمع الفخر ، وفى السكان المرموق بحسبه ومجد قومه .

ويقبل طرفة على وصف مجالس الشراب التى ينشأها ، ومن يتادمونه فيها على الراح ، من أصدقاء ، وفيان يطربن بألحانهن ويسحرن بأنغامهن .

وطرفة يعلن أنه لا يترك الشراب واللهو ، فإن ذلك لذاته فى الحياة ، ومذهبه فى العيش ، مهما كلفه ذلك من مال ودين ، ومن عداوات أهله وخصومات عشيرته ، وتجنب قومه له ، فهو إن تجنبه قومه ، وتحامته عشيرته ، فإن الفقراء جميعاً يحبونه لأنه يخالطهم بنفسه ، ويعيش معهم عيشة السخى الجواد .

ويمحى طرفة باللائمة على عاذليه ولائميه ، الذين يطلبون منه الكف عن

---

(١) ما أخطأ الفتى : اى مدة اخطائه له بابقائه حيا دهرا طويلا .
والطول : الحبل . ثنياه : طرفاه المثنيان منه ـ المعنى : أن الموت اذا أغفل بعض الناس فطال عمرهم لا يخرجون عن قدرته وسلطانه ، فمثلهم كمثل من بيده طرفا حبل مربوط برأس فرس اذا شاء جذبه اليه فانقاد له ، وكذلك الانسان لا محالة ميت وان طال عمره .

خوض الحروب ، وعن شهود مجالس الجون ، وهو يرد عليهم رأيهم فى بساطة وسذاجة ، فيقول مخاطبا إياهم : «هل يطيل من عمرى تركى للحرب واللذات . وهل أنتم أيها اللائمون تضمنون لى لو أجبت نصحكم دفع الموت عنى ، والخلود فى الحياة ؟ لا ليس فى وسعكم أيها اللائمون ذلك ، إذن فدعونى أبادر منيتى بانفاق كل ما ملكت يدى ، وبالتمتع باللذات وخوض غمار المعارك ، فإن الحياة لا تستحق الاحتفاء بها ، والحب لها ، لولا لذات ثلاث ، هى الحياة كل الحياة ، هى سعادتها وجمالها وروحها ، الأولى منهن : تناول الكأس وشرب الراح ، والثانية : خوض المعارك لنجدة الظالمين والمظلومين فى الحياة ، والثالثة : التمتع بجمال الحياة مع امرأة جميلة فاتنة .

وهيوا أيها الناس كنت معكم فى مذهبكم ، فأسلك سبيلكم ، وأعمل مثلكم ، فما هى النتيجة لكل ذلك ، ألست سأدفن مع كل الناس فى التراب ، وعندئذ يستوى فى الموت البخيل والمسرف فى بذل ماله فى الغواية والبطالة ، إن قبر هذا سيكون مثل قبر ذاك ، لا يميزه عنه شىء . فعلام تنصلون المقتصد المسك الحريص على مثلى من المسرفين الباذلين لمالهم فى كل لذة .

أيها اللائمون : إن الموت أمامكم ، وهو مقبل ولو بعد حين عليكم ، وسوف يصيب الكريم ، ويبدد مال البخيل الحريص على حد سواء .

إن الموت لا بد آت ، فأيام الحياة لو حسبت حساب المال ، فإن كل يوم يمضى وكل ليلة تنتهى ، تنقص من حساب العمر ، وكل ما ينقصه مرور الزمن لا بد أنه إلى فناء .

وهنا عمرنا فى الحياة ، ألنا قدرة على النجاة من الموت ؟ كلا . . لا يخرج أحد من سلطان الموت وقدرته ، فالإنسان ميت لا محالة وإن طالت به الحياة .

نقـــد الشاعر :

إن طرفة فى جملة الأمر يستهين بكل القيم الإنسانية ويدافع عن الغواية والبطالة والمجون بكل حجة من حجج الشياطين ، ولكن لا يمكن لإنسان مهما قال أن يبرر انحرافه وإسرافه فى اعتناق اللذة واعتناقها مذهبا فى الحياة لا يمكنه ذلك أمام ضميره ولا أمام العقلاء من الناس .

ولو آمنا برأى طرفة لم تكن هناك للأخلاق والمبادىء والقيم والشرائع فائدة ولضـــاعت كل معنويات الحياة ، وما أشبه طرفة فى الماضى البعيد ، بالوجوديين والسادين بيننا فى حياتنا الراهنة ، ممن يعتنقون مبادىء إشباع رغبات النفس والكفر بكل القيم مذهبا وعقيدة لهم فى الحياة .

لا . لا . لا — لا يمكن أن تكون حجج طرفة السوفسطائية الفارغة حجة لأحد ، ولا يمكن أن يقبل مثل هذا الكلام عاقل ؛ ولأن يعتنقه إنسان من الذين فى قلوبهم خير ، وفى رؤوسهم تفكير .

ولو أردنا نقض حجج طرفة ، حجة حجة ، لطال بنا الحديث ، ولما فرغ الكلام ، ولما انتهينا بالرأى إلى نهاية ، فحسبنا ذلك .

منزلة هذه الأبيات من معلقة طرفة :

معلقة طرفة المشهورة :

لخولة أطـــلال ببرقة ثهمد تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

سارت مسير الشمس ، وعـــد بها طرفة من فحول الشعراء الجاهليين

ومشهوريهم ، واستحق من أجلها أن يضمه أبو عبيدة فى الطبقة الثانية ، وأن يذهب بعض النقاد إلى أنه أشعر الجاهليين .

وهى أطول المعلقات ؛ وعدد أبياتها خمسة ومائة بيت ، وتمتاز بكثرة معانيها وجزالة أسلوبها ، نظمها طرفة — على ما رجح — عتابا لابن عمه أولأخيه « معبد » ، وبدأها الشاعر بالغزل ، من مطلعها حتى البيت العاشر ، ثم يأخذ فى وصف ناقته التى يسير عليها ليسلى عن نفسه الهموم والأحزان :

وإنى لأمضى الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتدى(١)

ويستمر فى وصف الناقة من البيت الحادى عشر إلى البيت الأربعين ، ثم يفتخر الشاعر بنفسه ويصف فتوته وكرمه ولذاته وأمانيه من البيت الأربعين إلى السبعين ثم يأخذ فى عتاب ابن عمه :

فما لى أرانى وابن عمى مالكا متى إدن منه ينأ عنى ويبعد

وذلك من البيت الحادى والسبعين حتى البيت الرابع والثمانين ويختم قصيدته بوصف نفسه وبالحكم الرائع من مثل قوله :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ، ويأتيك بالأخبار من لم تزود

إلى نهاية القصيدة .

---

(١) المرقال : السريعة السير والعوجاء : الناقة الضامرة .

وقد جمع شعره فى « العقد الثمين فى دواوين الشعر الجاهليين » ، وأتم المستشرق سلفستر بشعره فنشر ديوانه بشرح الشنتمرى وجمع كل ما نسب له من شعر ، وترجم ذلك إلى الفرنسية مع دراسة قيمة عن طرفة وحياته ، وترجم دى سيلان بعض قصائده إلى الفرنسية وفندنهوف بعضها إلى اللاتينية — وطبع المستشرق « لا يل » فى كلكتا عام ١٨٩٤ معلقته مع باقى المعلقات بشرح التبريزى وطبع « ريشر » عام ١٩١١ المعلقة فى القسطنطينية بشرح الأنبارى .

وهذا الاهتمام الكبير بطرفه وبشعره يرجع إلى ما فى شعره من طرافة وجدة وصدق فى التعبير والتصوير .. إلى مذهبه الذى انفرد به وصوره فى شعره إذ كان داعية من دعاة اللهو ، ويكاد يشبه فى ذلك الخيام الشاعر الفارسى المشهور ، بل يكاد اهتمام المستشرقين به يعادل اهتمامهم بالخيام ورباعياته .. وفى معلقة طرفة المشهورة والتى طارت بها شهرته فى القديم والحديث ، أروع الصور والأوصاف لعصر الجاهلى ، ومنها يستدل الباحثون على أنه كان للعرب ملاحة وسفر يتنقلون بها فى الخليج العربى وفى دجلة ، وأنه كانت لهم صناعات من أهمها بناء السفن فى البحرين ، ودباغة الجلد فى اليمن ، وصناعة الورق واستعماله فى الشام ويستدلون كذلك بها على معرفة عرب الشام للكتابة ، وحذق الروم بالبنيان ، واستعمال العرب للمرداة ، وهى آلة حجرية يكسر بها غيرها من الحجارة .

وفى المعلقة نجد صوراً من عادات الجاهليين فى مجتمعاتهم ومجالس لهوهم وما تهم ومن أساطيرهم التى تتمثل فى معتقداتهم الخرافية فى الصدى وغيره إلى ما فيها من أمور معبرة عن الشاعر وأخلاقه فى الحياة وعن الموت . وتكاد ترى طرفة مرسوما أمامك نفسه لساوافت تقرأ أبيات المعلقة بيتا فبيتا ، وحكمه التى ذكرها فى المعلقة هى فلسفة حياته ، وثمرة تجاربه فيها ، وليس لها طابع

الشعر التعليمى فحسب ، وهى من هذه الجوانب قد آثرها المستشرقون بالعناية والتقدير أكثر من شعر أى شاعر جاهلى آخر . فشعر طرفة صورة واضحة لحياته كل الوضوح بما كان فيها من مطامع وآلام وأحداث .

كان كل شىء فى حياة طرفة يحرك فيه الشاعرية ، ويعمل عمله فى صقل مواهبه الفنية ، وملكته أو طبيعته الشعرية . . . الصحراء بروضها وجلاها ومفاخر القبيلة وأيامها وأحسابها وخصوماتها ، ووراثات الشعر فى أسرته الشاعرة ، التى كان من أعلام الشعرا فيها : المرقش الأكبر ، والمرقش الأصغر وللتلمس والحارث بن حلزة شاعر قومه « بكر » وسواهم ، ويتم الشاعر وهو طفل صغير ، ورحلاته فى الجزيرة العربية والحبشة ، وحدة عواطفه والتهاب مشاعره كل ذلك كان مما فجر شاعريته وأثار إلهامه وعبقريته .

ودعاة التعبير بالصورة الشعرية يذهلون عندما يجدون طرفة كان أسبق منهم إلى التعبير عن تجاربه بالصور الشعرية الرائعة ، التى تصورها موهبة صناع وذهن ذكى وشاعرية مجودة مجددة .

وانظر إلى هذه الصورة الشعرية المبرة فى معلقة طرفة :

رأيت بنى غبراء لا ينكرونى ... ولا أهل هذاك الطراف الممدد

ألا يهذا الزاجرى أحضر الوغى ... وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتى ... فدعنى أبادرها بما ملكت يدى

وهى صورة لا تنقصها الروح ولا الحياة ولا رعشة الفن وتوهجه ، ولولا خوف الإطالة لحللتها تحليلا واسعا .

وطرفة متوهج الشاعرية دائما ، ويقوده ذهنه الفاح إلى الخلق الفنى وهى ما ترادف العبقرية الفنية . فهو ليس شاعرا مبكورا كغيره من الشعراء بل هو شاعر مستقل النزعة والتجربة والأحساس الفنى . وهى مع تنوعها وخصبها تتصل بنفسه وحياته وقبيلته وبالصحراء والبادية التى كان يعيش فيها وبتاريخ قومه وأحسابهم ، وبالحياة العربية عامة ، اتصالا وثيقا .

وطرفة من ربيعة من بكر بن وائل ، وبكر قبيلة عربية عظيمة تنافس أختها « تغلب » فى الشرف والسيادة ، وربيعة من مضر فى الحسب والشرف والعدد والمنعة .

ومن شعراء بكر : الحارث بن حلزة والمرقش الأكبر والمرقش الأصغر وسواهم من مشهورى الشعراء .

أما أسرة الشاعر القريبة فهى سعد بن مالك من بنى قيس . والده هو العبد بن سفيان بن سعد بن مالك ، ووالدته « وردة » ذكرها فى شعره ، وهى أخت المتلمس ، فهى إذن بنت عبد المسيح من بنى ضبيعة من بكر بن ربيعة فصلة القرابة بين أبويه واضحة . . . والمرقش الأكبر عم طرفة . وكان جده سفيان موصوفا بالشرف والرياسة . وأبوه كان شابا قويا ظاهر الشجاعة والفتوة ، ومات وطرفة صغير . . وطرفة أخ من أبيه أسمه معبد وأخت من أمه أسمها الخرنق . وكانت شاعرة بليغة ولها ديوان شعر مخطوط فى دار الكتب المصرية وقد تزوجها ابن عمها عبد عمرو بن بشر .

وكان طرفة وقومه يعيشون فى البحرين على شاطىء الخليج الفارسى والبحرين قريبة من الحيرة يخضعون لنفوذها السياسى ، والقبائل التى تعيش فيها

والشعراء الذين نشأوا فى أرضها . لهم دلالات واضحة بملوك الحيرة الذين كانوا يعضعون لنفوذ أكاسرة الفرس . . وهذه البقعة من أرض الجزيرة العربية قريبة من العراق وإيران ، ويمر بها المسافرون بين هذه البلاد وهى خاضعة للحيرة والحيرة ملتقى الأفكار والديانات ولذا هى المختلفة وتعيش فى ظلال قسط من الحضارة فلا بدع أن يكون لكل هذه العوامل الظاهرة أثرها فى عقلية أبنائها وتفكير شاعرنا طرفة بوجه خاص .

ونشأ طرفة فى هذه البيئة يعيش بين حسب كريم ، وعدد كثير ، وحياة ظاهرة وفوضى . وهو طفل صغير يوفاة والده تترك يتمه أكبر الآثار والظلال فى نفسه وحياته وفى شاعريته أيضاً وكفله أعمامه وقاموا بواجب تربيته وأخذ طرفة يلهو بالشعر يقظمه فى مختلف الأغراض وأول شعر نظمه على ما روى الرواة هو هذه الأبيات التى أنشدها حين وجد أعمامه يقلمونه ويغتصبون حقا لأمه « وردة » :

ما تنظرون بحق « وردة » فيكم ... صغر البنون ورهط وردة غيب

قد يبعث الأمر العظيم صغيره ... حتى تظل له الدماء تصب

والظلم فرق بين حى وائل ... « بكر » تسالمها اللية « تغلب »

وعن سأم بالحياة وضجر منها وعدم اكتراث بها أخذ الشاعر يميل إلى اللهو ويسرف فيه ويعتنق البطالة والدعة والعبث ويهجو قومه وسواهم . وأخذ أهله يلومونه ويصحونه حتى ضاق ذرعا بعتابهم فاقتاد راحلته يفتتل بها بين الأحياء والبلاد ، ومر باليمامة واليمن ثم ركب البحر إلى الخيشة ثم عاد الحنين إلى الوطن فعاد إلى البحرين وهو يقول مخاطبا محبوبته :

تعيرنى سيرى فى البلاد ورحلتى الا رب دار لى سوى حر دارك
وليس المرؤ أفنى الشباب مجاورا سوى حيه إلا كآخر هالك

وتاسمه أخوه « معبد » ماله .

ثم عاد من جديد يفكر فى الرحلة إلى الحيرة فقصد ملكها عمرو بن للنذر الثالث المعروف بعمرو بن هند الذى تولى ملك الحيرة أربعة عشر عاما (٥٦٢ — ٥٧٦ م) ، فمدحه ، وأجزل المنذر له وخلاله للتلص العطاء وأحسن وفادتهما ، وجعلهما فى حاشية أخيه وولى عهده قابوس بن المنذر . . ولكن الوشايات سرعان ما اشتعلت نارها ، حقدا من الوشاة على طرفة لمنزلته الرفيعة فى بلاط ابن المنذر ووقعت لطرفة أحداث نقل بعدها فى البحرين بأمر ملك الحيرة ، وذلك عام ٥٦٥ م ، ولم يعش طرفة غير ستة وعشرين ربيعا ، ودع الحياة بعدها وداع الحكيم المؤمن بها ، القائم دنها ، الساخر من أحداثها . . وما أروع ما قال طرفة فى معلقته وكأنه يتنبأ لنفسه بمصرعها الدامى :

إذا مت فانعينى بما أنا أهله وشق على الجيب يا ابنة معبد
ولا تجعلينى كامرئ ليس همه كهمى ولا يغنى غنائى ومشهدى

ومن عجب أن تكون المقربة دائما قصيرة العمر ، وأن تكون حياتها كحياة الوردة ، تستكمل جمالها وروعة الحياة وبهجتها ثم تذبل وتذوى ، ولكنها تترك شذى معطرا ، وأريجا طيبا ، وذكرا خالدا لا يموت على مر السنين .

صادر لدراســـة طرفة

١ — الأغانى ١١ : ١٠٤ و ٥٠٥ .

٢ — الشعر والشعراء ٤٩ .

٣ — جمهرة أشعار العرب ٤١ — ٤٥ .

٤ — شرح المعلقات العشر للزوزنى .

٥ — تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان .

٦ — أعلام الشعر الجاهلى للمؤلف .

٧ — الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى لمحمد هاشم .

٨ — الأدب الجاهلى لطه حسين .

٩ — رجال المعلقات .

١٠ — بحوث فى الأدب الجاهلى .

١١ — أعلام الأدب العربى .

١٢ — طبقات الشعراء لابن سلام .

١٣ — سلسلة الروائع .

١٤ — الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى للمؤلف .

١٥ — الشعراء الجاهليون للمؤلف .

١٦ — شرح المعلقات للشنقيطى .

الفصل الحادي عشر

امـــــرؤ القيـــس

— ١ —

من كان يظنُّ أن امرأ القيس الشاعرَ الجاهلي الكبيرَ ، عندما قال قصيدته :

قِفَا نَبْكِ من ذكرى حبيب ومنزل
بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدخول فحَوْمَل

كان قد بَدَأَ عصرا جديدا فى تاريخ الشعر العربيِّ على مَرِّ العصور والأجيال ؛ وأنام أسس نهضة شعرية ضخمة ما كان العرب عهد بها من قبل ، وأعطى النموذجَ الأكمل للقصيدة العمودية التى توارثها الشعراءُ على مدى الأيام ؛ وصار اسمه مقرونا بأعلام الشعر الإنسانىّ ، الذين خلّدتهم عبقريّاتهم الموهوبة الخالدة .

ومن هنا أخذ الشعر العربى يحمل مواريث العرب الفكرية والإنسانية ؛ بل وصار يصير كذلك عن شخصيّتهم الفنية التى امتزجت بها أجيالهم ، جيلا بعد جيل .

ولكى نعى أثر هذا الدور الكبير ، الذى قام به امرؤ القيس ، علينا أن نتذكر أن العرب بدأوا فنهم الأدبى بالنثر الذى صاغوه فى جمل قصيرة ، كما نرى فى الأمثال العربية ، ثم داروا يوازنون كل جملة من النثر بالأخرى ،

حتى توصلوا رويداً رويداً إلى نظم البيت والبيتين ؛ وكان الشـــاعر فى هذه الأبيات القصار يعبر عن أحاسيسه وعواطفه من حب وغضب وحماسة ، وغير ذلك ؛ وأخذ الشعراء ينظمون هذا الشعر من بحر الرجز لسهولته وخفته ؛ ثم توعوا الأوزان وعددوها .

وبعد أن اكتملت لهم مقومات الشعر ، أخذوا يطيلون فيه ، ويعبرون عن أحاسيسهم ومشاعرهم النفسية ويصفون الوقائع والخيل والإبل والصحراء وغير ذلك مما يقع تحت أبصارهم .

ورأينا فى القرن الخامس الميلادى أشعاراً تصاغ فى أجمل لفظ ، وأرق نظم ، وأوسع خيال ، وأبدع صورة ، تدعى قصائد ، وواحدتها قصيدة ؛ وظهرت — أول ما ظهرت — على يدى مهلهل بن ربيعة ، نظمها حين قتل أخوه كليب ، ونهض بالأخذ بثأره .

واكتسب الشعر بهذا الجهد الفنى الذى وهبه إياه مهلهل صورة أرفع من الصورة القديمة التى كان عليها .

ثم جاء بعده امرؤ القيس ، فورث هذه القصيدة الشعرية ، بنغمها وشكلها الرتيب ، وأسلوبها التقليدى ، ولكنه أخـــذ يضيف إليها أغراضا أخرى ، ويهذبها تهذيبا أوسع ، ويقسمها فى أغراض أكثر ، ويجعل لها مقدمة غزلية جميلا خالصاً فى الغزل ، أو يخلط غزله بوصف الأطلال ، وذكر الديار ، والحديث عن مسارح الحب ، ومواطن الشباب ، ومنتجع الأحباب . وصار للقصيدة بهذا التهذيب شكلها الفنى الرفيع ، وصـــورتها الشعرية الرائعة ،

وصارت هي بذلك موضع إقبال الشعراء وعناية الناس ، والنقاد الأمة ، وإعجاب السامعين .

ومن كان يظن أن هذه القصيدة الهذبة المختارة ، التي قالها امرؤ القيس في شبابه ، ووصف فيها لذاته وحياته ، والبيئة والطبيعة من حوله ، وبكى الديار والأطلال في مقدمتها ؛ من كان يظن أن هذه القصيدة سوف تصبح النموذج الفني الكامل لشعر العرب ، بل العالم لأجيال وقرون طوال ، وأن النقاد سوف يطلقون عليها وعلى ما ماثلها وحاكاها من قصائد جاهلية اسم « معلقات » ؟ بل من كان يظن أن أوربا في مطلع نهضتها الأدبية الحديثة سوف تتخذ من قصيدة امرئ القيس « قفا نبك » وأخواتها نموذجاً جديداً تحتذيه في شعرها ، حتى ليجيء السير وليم جونز مؤسس علم الاستشراق الغربي في آخر القرن الثامن عشر فيقول : يُخَيَّل إلي أن الشعر الأوربي قد عاش طويلا على تكرار نفس الصور والتشبيهات ، وترديد نفس القصص والأساطير التي كان يردِّدها . وقد حاولت منذ سنوات أن ألفت النظر إلى هذه الحقيقة المهمة ؛ ولو أننا حقنا يطبع عيون الأشعار الشرقية ، مما تحفل مكتباتنا منه بمخطوطات كثيرة ، وزودناها بما يلزم لتفسيرها من هوامش وشروح ؛ ولو درست لغات الشرق في معاهد العلم عندنا ، لنتج عن كل هذا تجديد شامل في صور الشعر وتشبيهاته ، ولفتحنا الباب لمعرفة آداب عظيمة نجد فيها شعراؤنا نماذج وأمثلة للمحاكاة .

وأقبل جونز نفسه على ترجمة المعلقات من العربية إلى الانكليزية ، ونشر هذه الترجمة عام ١٧٨٣ ميلادية لأول مرة ، إذ كانت هذه هي أول ترجمة للمعلقات ، وفي صدرها قصيدة امرئ القيس « قِفَا نَبْكِ » ، إلى لغة

أوربية حديثة . وقد حرص جونز على إن يدرك القارىء الانكليزىُّ جلال اللفظ العربىّ وفخامته ، فنقل هـــذه القصائد بألفاظها العربية إلى الحروف اللاتينية ، ونشرها فى الصفحة المقابلة للنصّ المترجم ، لينقل للقارىء صورة مقرّبة من موسيقى الشعر الجاهلىّ وألفاظه .

وقرأ الشاعر الانكليزىُّ تينسون هذه القصائد ، ووقف مذهولا أمام قصيدة امرىء القيس « قفا نَبْكِ » ؛ فنظم على منوالها قصيدته « لوكسلى هول » ، ووجه الخطاب فيها إلى صديق له ، وهما يمران بأطلال قصر الحبيبة الغادرة ، كما صنع « امرؤ القيس » مع رفيقىْ سفره ، فقال « قفا نَبْكِ » ، وبكى تنسون على أطلال أحبابه وحبه كما بكى امرؤ القيس أطلال حبيبته .

وذهل النقادُ والشعراء لهـــذه الصور الجديدة التى أضفت على الشعر الانجليزىّ خيالا واسعاً ، وفناً جديدا رفيعاً .

وحسبنا ، لكى ندركَ أثرَ امرىء القيس فى شعرنا العربى ، ونحن نردّدُ قصيدته « قفا نَبْكِ من ذكرى حبيب ومنزل » أن نعلم أن هذه القصيدةَ قد حاكاها شعراء جاهليون آخرون ، فنظموا على منوالها قصائدهم ، وسُميتْ جيادُ هذه القصائد « معلقات » ، ثم صارت هذه القصيدة كذلك هى الصـــورة الفنية التى يجب أن تكون عليها القصيدة العربية على طول العصور ؛ وبذلك مَنَحتْ شعرنا طابعاً عموديا أصيلا ، صارت تقاليده الفنية كلها تسمى عمودَ الشعر العربى ، وصار الرجوع إلى هذا العمود الشعرىّ أرفع نظرية من نظريات نقدنا العربىّ منذ أوائل العصر العباسى ، حتى ليجىء ناقدٌ مشهورٌ مثل ابن قتيبة فى كتابه المشهور « الشعرُ والشعراء » فيحلل

هذا النموذج الفنى الكامل ، الذى حاكاه الشعراء ، وتمثله النقاد فى قصيدة امرئ القيس ، ورجعه إلى :

١ — بكاء الأطلال ، والحديث عن مسارح الحب والأحباب وما يستلزم ذلك من النسيب وتعداد الذكريات ووصف جمال المرأة .

٢ — وصف الصحراء والفرس والجمل ، وحياة الشاعر وهو يتنقل فى البهامه والقفار .

٣ — الإلمام بالغرض الرئيسى للشاعر فى قصيدته ، من مدح وفخر ، ورثاء وهجاء . .

فيجعل ابن قتيبة ذلك كله منهجاً فنياً ملزماً للشاعر والقصيدة الشعرية ، مهما عاش الشاعر فى مواطن الحضارة ، وتنقل بين مقاماتها ومشاهدها الجديدة ، ولا يجهل ابن قتيبة أن حياة الناس فى عصره تختلف عن الحياة التى صورها امرؤ القيس فى قصيدته « قفا نبك » . ولكنه يصر على أن الشعر تراث وموارث ، وأنه جملة التزامات فنية كاملة ، وأن حديث الشاعر فى قصيدته من خلال هذه الالتزامات الكثيرة . هو أوضح صورة لعمودية الشعر العربى ، وهو الوجه الحقيقى لعبقرية الشاعر ، ويصر كذلك على أن من واجب الشعراء أن يتجهوا فى قصائدهم إلى منهج أجدادهم العرب فى قصائدهم وشعرهم ، وأن ينظموا القصيدة كما كان الجاهليون ينظمونها .

وليس ذلك بعجيب ، ألم يقل هوراس الشاعر الرومانى : إن النماذج الإغريقية القديمة فى الشعر هى التى يجب أن نحفظ ليلا ونهارا ، وأن نضحى على منوالها ، وأن نعارض أبدا من الشعراء ، لكى ينتجوا شعرا حقيقيا . .

والشعر العربى نشأته فى نجد ، وحياته الأولى فيها ، وهو بدوىٌّ فى مرحلة طويلة من مراحل تطوره فليس عجيبا أن يلزمَ ابن نتيجةَ الشعراءَ بتمثلِ ومحاكاة هـذا النموذج البدوى الرفيع ، الذى أورثنا إياه امرؤ القيس ، بما صنعه من صور فنيـة معقدة فى قصيدته « قفا نَبْكِ » .

وكم لا مرىء القيس من يَد على الشعراء والشعراءُ وإذا جازَ أن يطلقَ الإغريقُ على نماذجهم الشعرية الرفيعة اسم أبولو ، فإن امرؤ القيس جديرٌ بنا أن نطلق اسمه على نماذجنا الشعرية البديعةِ العالية .

— ٢ —

وهذا نعودُ إلى امرىءِ القيس ، هذا الأميرِ المترفِ ، الذى عاش فى نجد آباؤه من بنى كندة ملوك بنى أسد ، والذى قضى صدر شبابه لاهياً عابثا ، كما يصوِّر ذلك فى قصيدتِه :

قفا نَبْكِ من ذكرى حبيب ومنزل
بِسِقْطِ اللوى بين الدخولِ فحَوْمل

وهو مطلعٌ جميلٌ ساحرٌ . ثم يستمرُ فى وصف الأطلال حتى يقول :

وقـــوفا بها صحبى علىَّ مَطِيَّهم
يقـــولون لا تهلك أسى وتجمـــل
وإن شفائى عَـــبْرَةٌ مُهَرَاقَةٌ
فهل عند رسمٍ دارسٍ من معوَّلِ ؟

ثم يصف ذكريات لهوه وشبابه ، ماضياً فى غزله الجميل ، فيقول :

أفاطمُ مهلا بعضَ هذا التدلُّل
وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي
أغرّكِ مني أنّ حبّك قاتلي
وأنكِ مهما تأمري القلبَ يفعل
وما ذرقتْ عيناكِ إلا لتضربي
بسهميْك في أعشار قلبٍ مقتلِ

إلى أن يقول :

تضيءُ الظلامَ بالعشيّ كأنها
منارةُ قسٍّ راهبٍ متبتلِ
تسلّتْ عمايات الرجالِ عن الصبا
وليس فؤادي عن هواكِ بمُقْسَلِ

وينتقل من ذلك إلى وصف طول الليل ، هذا الوصف الجميل ، الذي ليس له نظيرٌ في الشعر العربي ، فيقول في عذوبة ورقة وجمال :

وليلٍ كموجِ البحرِ أرخى سُدولَه
علي بأنواعِ الهمومِ ليبتلي
فقلت له لما تمطّى بصلبه
وأردف أعجازا وناءَ بكلكلِ
ألا أيها الليلُ الطويل ألا انجلي
بصبحٍ ، وما الإصباح منكَ بأمثلِ

فيالكَ من ليلٍ كأنَّ نجومَهُ
بكلِّ مغارِ الفتلِ شدَّتْ بيذبلِ

وهى صورة لا يرسمها إلا عبقريةٌ شاعرةٌ موهوبةٌ ، وقد جعل امرؤ القيس الليل والنهارَ سواءً فى الهمِّ والحزن والآلام ؛ أما النابغة الذبيانىُّ فى وصفه المشهور للليل ، والذى يقول منه :

كِلينى لهمْ يا أميمةَ ناصبِ
وليلٍ أقاسيه بطىءِ الكواكبِ

فقد جعل صدره مألفا للهموم ، وجعل الهموم ترد إليه ، وجعلها كالنَّعَم العازبة بالنهار عنه ، الرائحة مع الليل إليه .

وشعر امرئ القيس فى هذه المعلقة مفرَّغٌ فى ذَوْبِهِ من ماء العربية ، بين الجزالة والعذوبة ، مما جعل هذه المعلقة أجل أثر لتلك الفصاحة ، ومما جعل فنها المثل الذى احتذاه الشعراء بعد امرئ القيس ، واحتفوا به ، وجعلوه من أمتع نماذجهم فى الشعر ؛ ومن أجل عبقرية امرئ القيس الشاعرة قال فيه جريرٌ : « اتخذ هذا الخبيث الشعرَ نعلين » ؛ وقال بعض النقاد : أحسن الناس ابتداءً فى الجاهلية : امرؤ القيس حيث يقول : « قفا نَبْكِ » ، وفى الإسلام القَطَامىُّ حيث يقول : « إنا مُحيُّوكَ فاسلمْ أيها الطَّلَلُ » ، ومن المحدثين بشارٌ حيث يقول :

أبى طللٌ بالجزْعِ أن يتكلما
ومبادا عليه لو أجاب متيما

ويجمع النقاد على أن امرأ القيس رأس الشعراء الجاهليين ، وإمام الطبقة الأولى منهم ؛ ويقول الآمدى : إنه فضل الشعراء لأن الذى فى شعره من دقيق المعانى ، وبديع الوصف ، ولطيف التشبيه ، ورائع الحكمة ، فوق ما استجاد سائر الشعراء منه فى الجاهلية والإسلام .

— ٣ —

وقصيدته اللامية الأخرى مشهورة ، وهى التى يقول منها :

يُضِيءُ الفِراشَ وجهُها لضجيعِها
كمِصباحِ زيتٍ فى قنادِيلِ ذُبَّالِ

تَوَرَّتُها من أذرِعاتَ وأهلُها
بيَثْرِبَ ، أدنى دارِها نظرٌ عالِ

وهى مثل للعلقة فى بلاغتها وجزالتها .

— ٤ —

ويقال تصف الخطوب بالشاعر الأمير ، امرئ القيس ، فيحارب ملك البحرة المنذر (٥٠٥ — ٥٥٤ ميلادية) ملوك كندة ، ويقتل الكثير منهم ، ويبدد جمعهم ، ويثير بنى أسد عليهم ، ويقتل والد امرئ القيس ؛ فينهض للأخذ بثأر أبيه وقومه من بنى أسد ومن المنذر كذلك ، ويتجه أخيرا إلى قيصر يستنجد به ، لعينه فى الأخذ بالثأر ، ويصحب معه فى رحلته هذه

صديق شبابه ، عمرو بن قميئة ، ويقول له ، وهو سائر في بلاد الروم :

يَبكي صاحبي لما رأى الدرب دونه
وأيقنَ أنا لاحقان بقيصرا

فقلت له : لا تَبْكِ عينك إنّما
نحاول مُلكا أو نموتَ فنُعذَرا

ويسير خطوة ثم يردد في يأس مرير :

وقد طوّفتُ في الآفاق حتى
رضيت من الغنيمة بالإياب

وفي الطريق إلى أحلامه يموت الشاعرُ ، ويأفل نجمُ هذه العبقرية ، بعد أن ترك وراءه للشعر تراثاً خالداً ظلت الإنسانية تحتفظ به على مر الأجيال .

— ٥ —

وتمضي الأيام ، والشعراء في الجاهلية والإسلام ، يلوذون بمنهج امرئ القيس الفني في كتابة القصيدة العربية ، وتصبح قصيدة « قفا نَبْكِ » مَضْرب المثل ، ويقال لكل كلام بليغ رائع : أشهر من « قفا نَبْكِ » ؛ ويصبح امرؤ القيس شيخ الشعراء الجاهليين في نفار النقاد ، بل يقول عنه بعضهم : إنه أمير الشعر العربي على الإطلاق .

وهو على أية حال قد تنفذ في الشعر على خاله المهلهل وعلى أبي دؤاد الإيادي . ثم هو كما يقول النقاد أيضاً : أول من وقف واستوقف ، وبكى

والسبكي ، ووصف النساء بالظباء والمها ، وشبه الخيل بالعقبان والعصي ، وقرب مآخذ الكلام ، وقيد أوابده ، وأجاد الاستعارة والتشبيه والكناية ، ورتق الأسلوب ؛ ووشاه بالعذوبة والجزالة ؛ كما أنه أول من شرع لنا مذهب هذا الغزل القصصي الحلو ، وله فوق ذلك كله الطرد الجميل القوي ؛ ولا تزال كناياته : « قيد الأوابد » ، « نؤوم الضحى » ، وغيرها ، مما يبهر النقاد والشعراء والبلغاء ؛ بل إن لأمرئ القيس من دقيق المعاني وبديع الوصف والحكمة والتشبيه فوق ما استعار سائر الشعراء في الجاهلية والاسلام كما يقول الآمدي الناقد المتوفى عام ٣٧١ هـ .

— ٦ —

ولامرئ القيس — المتوفى نحو عام ٥٦٠ ميلادية — رفقاء من الشعراء ، عاصرهم وعاصروه ، من مثل : الرقش الأكبر ، والرقش الأصغر ، وعبيد ابن الأبرص ، وعلقمة الفحل ، وطرفة ، والأقيشر الأسدي ، وغيرهم .

ومع ذلك فهو إمام مدرسته ، بل رائد جميع الشعراء الجاهليين على الاطلاق ؛ وقد ترك دويا وشهرة وتراثا خالدا على مرور الأيام .

الفصل الثانى عشر

النـــابغة الذبيـــانى

— ١ —

شاعر رفيع من شعراء العصر الجاهلى وأعلامهم ، بلغ منزلة عالية فى قومه ، واحتل مكان الصدارة بين الشعراء الجاهليين .

وكان الحكم بين الشعراء فى سوق عكاظ ، يعرضون عليه قصائدهم ، ومآثر قريضهم ؛ ويحتكمون إليه عندما يزعم شاعر أنه فى قصيدته أشعر من غيره ، ممن حضروا السوق ، وكانت تضرب له قبة فيه ، فتأتيه الشعراء ، تعرض عليه أشعارها ، فيفاضل بينهم .

لقب بالنابغة لنبوغـــه فى الشعر كبيرا ، بعد أن أحكمته التجارب ، وسارت به الأيام . وقد اتخذ الشعر أداة للتكسب ، ومدح به الملوك والأمراء ، ونال جوائزهم ورفدهم وعطاءهم .

وكان النابغة مع تكسبه بالشعر يعتز بنفسه ، ويقدرها حق قدرها ، وكان من أشراف قومه ، ومن ذوى المنزلة العالية فى كل مكان فى الجزيرة العربية إبان ذلك العهد البعيد .

وصار من مؤيدة عبيد الشعر ، الذين يقصدون به الملوك يمدحونهم ، ينالوا به جزيل العطاء ، والذين يحكمون على تهذيب قصائدهم ، وتجويد مدائحهم ، حتى توفى على الغاية ، وتبلغ درجة عالية فى البلاغة ، فهو من مؤلاء المجودين ، من طبقة زهير وأضرابه ، ومن ثم كان شعره كله جيداً مختاراً مصنوعاً ،

الحرف والكلمة والجملة والمعنى والغرض والقسام ، كل ذلك بينها اتساق كبير .

اتصل النابغة بملوك المناذرة فى الحيرة ، وبملوك الغساسنة فى الشام ، وصار له عند هؤلاء وهؤلاء منزلة عالية يحسده عليها الشعراء .

كان النعمان بن المنذر أبو قابوس يتولى ملك الحيرة ، منذ عام ثمانين وخمسمائة ميلادية ، وظل ملكا عليها اثنين وعشرين عاما ، فمدحه النابغة بقصائد كثيرة ، كان يقصد إليه فى الحيرة ، ويجلس فى مجالسه ، ويتصرف إلى أعلام إمارته ، ويقربه النعمان إليه ، حتى صار أثيراً عنده ، ومن ندمائه وأصفيائه ، وغمره بعطائه الجزل ، ورفده الكثير ، حتى صار النابغة يأكل فى صحائف الذهب والفضة ، وما أكثر ما كان يهب له النوق العصافير .

وكان لذلك أثر فى كثرة الحساسدين والواشين بالنابغة لدى النعمان ، وقالوا فيما قالوه للملك إن النابغة يتصل بأعدائه من ملوك الشام ، ويمدحهم ؛ فغضب عليه النعمان ، وحذر النابغة صديق له فى قصر الملك ، فهرب من الحيرة ، قبل أن يقع فى قبضة حاسديه والنعمان الملك ؛ وأتى قومه الذبيانيين ، فأقام فيهم حينا ، ثم شخص إلى ملوك غسان بالشام ، وكانوا أعداء المناذرة ملوك الحيرة ، ومدح النابغة عمرو بن الحارث الأصغر ملك الغساسنة ، ثم ابنه من بعده ، النعمان بن الحارث ؛ وراء ملقاه النعمان ، وأقام النابغة عنده ، أثيراً لديه ، عزيزاً عليه .

ولكن النابغة كان يحن إلى ملك الحيرة النعمان بن المنذر ، وإلى أيامه الماضيات فى الحيرة ، وذكريات حياته الخالدات هناك ؛ فأخذ يرسل إلى الملك

القصائد الطوال من اعتذارياته الرفيعة ، يتبرأ فيها مما رمى به ، ويعتذر إليه مما كان ، إن كان ما كان صدقا .

يقول النابغة فى إحدى اعتذارياته :

أتانى — أبيتَ اللعنَ — أنك لمتنى
وتلك التى أهتم منها وأنصبُ
فبتُّ كأنّ العائداتِ فرشنَ لى
هراسًا به يعلى فراشى ويُنشَبُ
حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبةً
وليس وراءَ اللهِ للمرء مذهبُ
لئن كنت قد بُلّغتَ عنى خيانةً
لمبلغكَ الواشى أغشُّ وأكذبُ
ولكننى كنتُ امرأً لى جانبٌ
من الأرض فيه مستزادٌ ومهربُ
ملوكٌ وإخوانٌ إذا ما أتيتُهم
أحكّمُ فى أموالهم وأقرّبُ
كفعلكَ فى قومٍ أراكَ اصطنعتهم
فلم ترَهمْ فى شكرِ ذلكَ أذنبوا

فإنكَ شمسٌ والملوكُ كواكبُ
إذا طلعت لم يَبْدُ للناسِ كوكبُ
فلا تَحْرِمَنِّي بالوعيدِ كأنني
إلى الناسِ مطليٌّ به القارُ أجربُ
ألم تَرَ أنَّ اللهَ أعطاكَ سورةً
ترى كلَّ ملكٍ دونَها يتذبذبُ
ولستَ بمستَبْقٍ أخاً لا تلمُّهُ
على شَعَثٍ، أيُّ الرجالِ المهذَّبُ؟
فإنْ أكُ مظلوماً فبدءاً ظلمْتَهُ
وإن تكُ ذا عُتبى فمثلُكَ يَعْتِبُ

وليس هناك مذهب فى الاعتذار، ولا حجة من حجمه، أقوى ولا أروع مما ألم به النابغة، فى بيانه الساحر، وتريضه الباهر، واعتذاريته الجليلة.

وتوالت اعتذاريات النابغة، حتى عفا عنه النعمان، وأذن له بأن يعود إلى ماضيه، ومسرح ذكرياته فيه، حيث الحيرة وملك النعمان، وأصدقاء تابغة بنى ذبيان. فعاد الشاعر إلى الحيرة من جديد.

ويقول بعض الباحثين: إن النابغة وسط فى الأمر بعض المقربين إلى النعمان، فكلموه فى شأنه وقالوا له: شاعرك، وملاحك، والمعتذر إليك، والذى قال فيك ما قال، فاعف عنه، ومل بقلبك إليه.

ووقف النابغة يمدح مليكه ، والملك النعمان يكاد يطير مما يسمع من مدح واعتذار ونبل كلام وروعة قصيد ، فأمر له بمائة ناقة من نوقه العصافير ، وعادت إلى الشاعر منزلته الأولى فى عاصمة الملك .. ولكن الأيام لم تطاوله ، ولم يلبث الملك أن وقع فى أسر الملك الساسانى الفارسى خسرو الثانى ، فعاد النابغة إلى ديار بنى ذبيان .

وظل عظيما شريفا ، مكرماً عند الملوك والأمراء ، حتى توفى فى أوائل القرن السابع الميلادى ، تباركت النبوة .

— ٢ —

ويمضى شعر النابغة إلى غايته من التجويد فى المدح ، وكمال البلاغة فى الاعتذار ، وروعة التصوير فى الوصف ، وشدة التأثير والقرع فى الهجاء ؛ إلى إجادته فى الحكمة والفخر والرثاء .

وشعره رقيق لطيف ، إذا تملكته عاطفة قوية من إشفاق أو حماسة أو رهبة أو روعة حتى لقد قيل : أشعر الناس النابغة إذا رهب .

وقد رأيناه فى اعتذاريته المدية ، كيف كان حزينا عميق الحزن ، قلقا شديد الاضطراب والحيرة ، يداخله التشاؤم واليأس الشديد ، ويبالغ بخياله الشاعرى الرقيق فى الحجة ، والسعة فى المذهب ، حتى ليصعد إلى درجة كبيرة إكمال الصورة ، وإيضاح الشبه ، واستخدام التجسيم والتلوين والتصوير أداة لخياله الذى يفسح له المجال فى روعة الخيال .

وليس هناك شاعر يبلغ ما بلغه شعر النابغة ، فى حسنه ، وتهذيبه ، وجودته ،

ونقائه من العيوب ، وبلاغة أساليبه ، وبخاصة فى مطالع قصائده ونهاياتها .

وقد عبر النابغة فيما نظمه من شعر عن حاجات المجتمع البدوى فى العصر الجاهلى فى نجد ، ومع ذلك فقد شاع ذكره ، وذاع فى كل مكان ، وكانت بوادى الحجاز تفاخر به لحسن ديباجته ، وجمال رونقه ، وجزالة كلماته ، وعذوبة أساليبه وموسيقاه ، وليس للنابغة نظير فى وصف الأحاسيس النفسية ، كالخوف وما شابه ذلك .

وعندما نتأمل معانى الشاعر نجد فيها هذا الانسجام والتآلف والصدق ، وقوة الحجة ، والبعد عن الغموض وعن التعقيد ، مع البعد بتوافه الكلام ، ومراعاة الحال والمقام . ويجعل بعض النقاد من شعراء المعلقات ، ويجعلون معلقته هى هذه القصيدة من اعتذارياته ، وتبلغ الواحد والخمسين بيتاً :

يادار مَيّةَ بالعلياء فالسَّنَدِ
أقوت وطالَ عليها سالفُ الأمَدِ

ويبدؤها الشاعر ببكاء الأطلال ، على ما هو مألوف فى قصائد المعلقات . . ثم ينتقل بعد ذلك إلى وصف رفيقته فى السفر والحل والارتحال ، وهى ناقته التى أتعبها وكدها وأضناها ، ثم يخلص إلى الاعتذار بأسلوب مؤثر كعادته ، يقول منه فى مخاطبة النعمان :

مهلاً فداءً لك الأقوامُ كلُّهمو
وما أُومِّلُ من مالٍ ومن وَلَدِ
أنبئتُ أن أبا قابوسَ أوعدنى
ولا قرارَ على زأرٍ من الأسد

وهذه صورة أخرى من شعر النابغة ، وهي إحدى بكائياته لأطلال محبوبته نعمى ، تلمس فيها روعة الفن وتوهجه ورعشته ، ودقة الوصف وجماله ووضوحه ، يقول :

عوجوا فحَيُّوا لنعمٍ دِمْنَةَ الدار
ماذا تُحَيُّونَ من نؤيٍ وأحجار ؟
واسْتَعْجَمَتْ دارُ نعمٍ ما تكلمنا
والدار لو كلمتنا ذاتُ أخبار
فما وجدتُ بها شيئا ألوذ به
إلا الثُّمامَ وإلاَّ مَوْقِدَ النار
وقد أرانى ونعماً لا هَيْنَ بها
والدهرُ والعيشُ لم يَهْمُمْ بإمرارِ
أيامَ تخبرنى نُعْمَى وأخبرها
ما أكتم الناس من حاجى وأسرارى

ولا ينسى الشاعر أن يصور لنا موقف الوداع ، وآخر نظرة منه إليها ، والجمال مشدودة الرحال والأكوار ، والهوادج مرفوعات للرحيل تهتز ألماً للشاعر ودموعه الحائرة ، فيقول فيما قال :

رأيت نُعْمَى وأصحابى على عَجَلٍ
والعِيسُ للبَيْنِ قد شدتْ بأكوارِ

فَرِيعَ قلبي وكانتْ نظرةً عَرَضَتْ
حينا ، وتوفيقَ أقدارٍ لأقدارِ

ثم يخاطب صديقه الحارث ، الذى زار معه أطلال نعمى ، فيقول :

أقسولُ والنجمُ قد مالتْ أواخرُه
إلى المغيبِ تَشَهَّتْ نظرةً (حارِ)
ألمحةٌ من سنا برقٍ رأى بعمرى
أم وجهُ نُعمٍ بدا لى أم سَنَا نارِ
بل وجهُ نُعمٍ بدا والليلُ معتكرٌ
فلاحَ بين أثوابٍ وأستارِ

وكان ذلك الفصل الأخير من موقف الوداع المحزن .

— ٣ —

وكان النابغة ناقدا بصيرا بمواقع الكلام ، يعرف بذوقه جيدَه من رديئه ، وكان يقصد سوق عكاظ ، كلما انعقد السوق بالقرب من الطائف ، فى قرية بين نخلة والطائف ؛ وكانت الأسواق التجارية مبثوثة فى جزيرة العرب ، يقصدها الناس للتجارة والبيع والشراء ، وللحجاج والمفاخرة .

وقامت عكاظ قبل ميلاد رسول الله بنحو ثلث قرن ، وكانت تعقد عشرين يوماً فى السنة من أول ذى القعدة إلى العشرين منه ، فيفد عليها كل

الناس ؛ ولشهرتها وكثرة الوافدين إليها ، كان الشعراء يقصدونها ، ويقال : إن المعلقات أنشدت فيها ، وكان النابغة يذهب إليها ، وكذلك الأعشى والخنساء وحسان وغيرهم من الشعراء ، وكان النابغة تضرب له خيمة كبيرة فيها ، فيجتمع إليه الشعراء ، ينشدونه ، ويستمعون إلى رأيه فيما ينشدون .

وكانت القبائل تنزل بها ، لكل قبيلة موضعها الخاص بها ، ويتوافى أشراف القبائل مع التجار ، يمشون ملثمين فى السوق ؛ وتتلاقى أفراد القبائل عند البيع والشراء ؛ وكثيرا ما كانوا يجتمعون حول خطيب ، يخطب على منبر أو فى خيمة من الخيام تنصب هنا وهناك ، ولا تلبث أن تجد حشدا مجموعا حول شاعر يلقى قصيدة ، وكم كان للنابغة من مواقف مع الشعراء فى الحكم على شعرهم ، وفى المفاضلة بينهم ، وفى نقد قصائدهم .

— ٤ —

ولسلاسة شعر النابغة وجودته ، كان يغنى به المجتمع الجاهلى . وقد تهيأت له فى مجتمعه كل أسباب الشاعرية ، من نشأة بدوية فى الصحراء ، التى من شأنها أن تلهب العاطفة ، وتوسع الخيال ، وتذكى الشعور ؛ بين قوم مفطورين على حب البلاغة ، وتذوق الشعر ، والافتتان بالقصائد ؛ ومن خوضه المعارك والحروب ، وشهوده لكثير من الخصومات القبلية ؛ ومن تصدره فى ميدان الأدب والنقد والشعر ، ومن رحلاته ومعيشته فى قصور الملوك والأمراء ، ومن مناقضات أعلام الشعراء فى عصره له ، والمناقضة تذكى الشاعرية والإحساس والعاطفة .

وكل ذلك كان مما غذى من شاعريته ، وقوى ملكته ، وفتق أكمام موهبته في الشعر ، فجعل منه شاعرا كبيرا بين قومه ، وزاد من منزلته في الشعر ما كان يصطنعه من مذهب فني فيه ، هو مذهب التجويد والصنعة ، وكان من جملة الشعراء الذين أطلق عليهم لقب عبيد الشعر ، والذين جروا على تهذيب أشعارهم وتفخيم ألفاظهم ، وتنقيح مدائحهم ، طمعاً في النوق العصافير ، التي كان النعمان يهبها للنابغة .

وبذلك سار شعره في كل مكان ، وذاع على كل لسان ، وصار تراثا شعريا رفيعاً يعلم الأجيال البلاغة والشعر ، ويغذيهم بمواهب الفصاحة وروائع النماذج التي كانت مثالا للفن الشعري عند مجتمع الجاهليين قبل الاسلام .

الفصل الثالث عشر

زهـــير بن أبى ســـلمى

— ١ —

زهير من أعلام الشعراء الجاهليين ، وزعيم مدرسة من مدارسهم ، ورائد طبقة من طبقاتهم ..

وحسبه أنه شاعر الحكمة ، والداعى إلى السلام ، والذى صور مآسى الحروب الطويلة ، التى كانت تدور بين القبائل العربية ، وويلاتها فى العصر الجاهلى .

وزهير إمام الطبقة الثالثة من طبقات شعراء الجاهلية ، أما الطبقة الثانية فهى طبقة امرئ القيس وأضرابه ، والأولى هى طبقة مهلهل ورفقائه .

ومن طبقة زهير كثير من الشعراء ، من مثل :

عمرو بن كلثوم (المتوفى عام ٦٠٠ ميلادية)

والنابغة الذبيانى (٦٠٤ م)

وحاتم الطائى (٦٠٥ م)

وعنترة العبسى (٦١٥ م)

والأعشى (٦٢٩ م)

وأمية بن أبى الصلت (٦٣٠ م)

ولبيد بن ربيعة العامرى وسواهم ، وتوفى زهير نحو عام (٦٣٠ م)

وهذه الطبقة ، طبقة زهير ، قد أحدثت ألواناً كثيرة من التجديد فى القصيدة الشعرية ، سواء فى مضمونها وأغراضها ومعانيها وأخيلتها ، أم فى أسلوبها وشكلها الفنى .

وإذا كان الشعر الجاهلى أثراً للفطرة ، واستجابة لشاعر الشاعر وشعوره بالحياة ، وكان أكثره بديهة وارتجالا وعفو الخاطر ، ينظمه الشاعر فى سهولة ، وتدفق وفطرة ودون تنقيح ، أو قصد إلى التجويد .

فإن شاعرنا زهيراً ، قد أحدث مذهباً جديداً فى القصيدة ، وخالف سنة الأولين من والشعراء ، وانتقل من الطبع إلى الصنعة ، ومن الارتجال إلى التهذيب والمعاودة والمعاناة لشعره ، حتى لقد سميت قصائده الحوليات .

وكان زهير يصنعها على وجه التثقيف يكتب القصيدة ، ثم يعاود النظر فيها مرة بعد مرة ويوماً بعد يوم ، ويمعن فكره فيها بعد أن يكون قد فرغ من نظمها فى ساعة أو ليلة ، وربما كتبها فى أوقات تقاطه ، فيطول وقت صنعها بعض الطول . .

يقول بعض النقاد ، ومنهم أبو هلال صاحب كتاب « الصناعتين » : كان زهير يصنع القصيدة فى ستة أشهر ، ويهذبها فى ستة أشهر ، ثم يظهرها ويذيعها ، فتسمى الحوليات .

ويقول ناقد آخر ، مستدلا لحديث أبى هلال ، وهو ابن سنان الخفاجى فى كتابه « سر الفصاحة » : عمل زهير سبع قصائد فى سبع سنين ؛ وكان يسميها الحوليات .

ويقول آخرون : إنه كان ينظم القصيدة فى ثلاثة شهور ، ولا يزال يهذبها حتى يمضى عليها الحول . وقيل : بل كان ينظمها فى شهر ، ثم لا يزال يهذبها حتى يمر عليها الحول فتسمى حولية .

ويقول الجاحظ فى كتابه المشهور « البيان والتبيين » : « من شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كاملا ، وزمنا طويلا يردد فيها نظره ، ويقلب فيها رأيه ، انهاماً لعقله ، وتقيماً على نفسه ، وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات ؛ ويقول : وكان زهير ، وهو أحد الشعراء الثلاثة المتقدمين يسمى كبار قصائده الحوليات .

على أن هذه التسمية قد يمكن أن نحملها على المجاز لا على الحقيقة ، فكل قصيدة جيدة قد يجوز أن تسميها « حولية » إذا جمعت من التهذيب الفنى ما يجعلها شبيهة بالحولى أى الذى مر عليه حول من نتاج الإبل والغنم ، فاستوفى قوته وجماله وفضارته .

وقد يمكن أن أعلل سبب هذه التسميه بأن زهيراً ، ومثله غيره من الشعراء الكبار ، كان يعد لسوق عكاظ كل عام قصيدة رنيمة ينشدها فيه كلما عقدت السوق ، فسميت هذه القصيدة حولية ، وقيل لمجموعة قصائده المختارة « حوليات » ؛ وخص زهير وقصائده بهذا الاسم ، لأنه كان أكثر الشعراء تهذيبا لشعره ، وأشدهم عناية بتجويده والتأنق فيه .

وهذا المذهب الفنى الذى سار عليه زهير فى نظم القصيدة ، صار كذلك مذهبا لتلاميذه فى الشعر ، ومنهم الحطيئة الشاعر ؛ وهذه الطبقة جودت فى المدح ، وأخرجته إخراجاً محكما ، وهذبت أساليبه ، ونوعت معانيه وأخيلته ،

وسميت « عبيد الشعر » ؛ وقد انتظم مذهب « عبيد الشعر » زهيرا والنابغة والأعشى والحطيئة ، وأمية بن أبى الصلت ، وسواهم .

وكان هذا المذهب الفنى الجديد ، فى الشعر ، الذى تزعمه زهير ، أثراً للتنافس بين الشعراء ، وخوفهم من تلبع النقاد . كما كان أثراً لقيام الأسواق الأدبية ، ومن بينها « سوق عكاظ » ولإنشاد القصائد فيها ، وحكومة الحكام بين الشعراء على ملأ من جمهور المترددين عليها . ونحن نعلم أن النابغة الذبيانى كان حكماً بين الشعراء فى عكاظ ، وكان تقام له قبة فيها ، ويجىء الشعراء ، فيقصا كون إليه فيما شجر بينهم .

كما كان هذا المذهب كذلك أثراً للتكسب بالشعر فى العصر الجاهلى ، ولا غرابة وسيلة للثراء ، وعكوف الشعراء المتنين من أجل ذلك على تجويد مدائحهم ، ليفوزوا بها — فى الهدايا والألطاف ؛ وكان كذلك لارتباط الشعر بالغناء ورغبة بعض الشعراء فى ذيوع شعرهم من أسباب نشأة هذا المذهب الفنى أيضاً .

— ٢ —

فإذا عدنا إلى خصائص مذهب زهير فى حولياته :

وجدناه من حيث اللفظ يتخيره تخيراً شديداً ويبالغ فى هـذا التخير مبالغة كثيرة .

ومن حيث الأسلوب يقبل على تهذيبه إقبالا كبيرا ، فينقى كل ما يعاب

به ، ويسقط كل ما يؤخذ عليه ، ويوشيه بكل ما يدخل عليه الرونق والبهاء ، فى قصد إلى الجزالة والروح والإمتاع واللذة الفنية ، والصنعة الشعرية التى يسندها طبع أصيل ، وموهبة قوية .

أما من حيث المعانى فإنها تنبع من نفسه ، وتصدر عن حسه ، وتتصل بمشاهد البيئة من حوله اتصالا وثيقا ، فى قصد إلى الصدق ، وترك المبالغة فى أغلب الأمر ، فإذا اضطر إلى المبالغة فهى المقبولة المستساغة فى الأذواق ، من مثل قوله :

لو أنّ حمداً يخلد الناس أخلدوا
ولكن حمدَ الناس ليس بمخلد

وفى المدح يختار ما هو أليق به ، وأقرب إلى ذوق الناس فيه ، من وصف بالبطولة والشجاعة والكرم والعفة ، والتهلل عند ورود العفاة - وتشيع فى معانيه الحكمة والتجربة والخبرة الواعية بالحياة وأحداثها ، حتى لقد عد زهير من الشعراء الحكماء .

ويبرز زهير معانيه فى ألوان مجتمعة من التخيل ، لتقريب البعيد ، وتوضيح الخفى .

وأكثر الأغراض الشعرية التى أجاد فيها كانت الحكمة والمدح والغزل والوصف ، وكانت «بيئته من وحيه وإلهامه إليه ، تدفعه إلى إجادة المدح ، يساعده فى ذلك طبيعة الشاعر فى الرغبة فى المال ، ونهجه فى التكسب بالشعر ، ولأجل ذلك قال النقاد : أشعر الناس زهير إذا رغب ، يريدون أن أجود شعره ذهب فى المديح ، وهو الذى يقول فى هرم بن سنان :

قد جعلَ المبتغونَ الخيرَ في كرمٍ
والسائلون إلى أبوابِهِ طرقا
من يلقَ يوماً على علاّتِهِ هرماً
يَلْقَ السماحةَ منه والندى خُلُقا

وهكذا يرتبط الحديث عن زهير بالحديث عن الشعر الجاهلي في مرحلة حاسمة من مراحل تهذيبه وازدهاره ؛ ويقترن اسمه بهذه النهضة الشعرية التي بلغها الشعر العربي في نجد منذ أوائل القرن السادس الميلادي ؛ ويعد بعض النقاد زهيراً بأنه أشعر الشعراء في الجاهلية ؛ وبتوسط نقاد آخرون كالأصمعي ، فيعدون زهيراً أحد أعلام الشعر الجاهلي وأبطاله .

ويلخص آراء النقاد في زهير قول قائل منهم ، وهو أبو العباس ثعلب : كان زهير أحسن الشعراء شعراً ، وأبعدهم عن سخف ، وأجمعهم لكثير من المعنى في قليل من اللفظ ، وأكثرهم إجادة في المدح ، كما كان أكثرهم أمثالاً في شعره .

ونحن نستطيع أن نقول : إن زهيراً كان معدوداً من فحول الشعراء في الجاهلية ، وإن أكثر النقاد يضعونه مع أعلام الشعر الجاهلي في طبقة واحدة .

وكان الذي بلغ به هذه المنزلة العالية في الشعر عدة أسباب :

وفي مقدمتها هذه البيئة الشاعرة ، ثم تلك النهضة الشعرية ، التي كانت تموج بها الجزيرة إبان ذلك العهد .

وكذلك وراثته الشعر عن آبائه وأسرته ، فقد كان خاله بشامة بن

الندير شاعراً ، وكذلك كان آباؤه من الموهوبين فى الشعر ، وكذلك أستاذه وأحفاده من بعده ، حتى قال العلماء : لم يتصل الشعر فى أهل بيت من العرب كما اتصل فى بيت زهير ، وأبوه وأخته وابناه : كعب وبجير ، وبعض أحفاده ومن بينهم المضرَّب بن كعب ، كانوا كلهم من الشعراء المجيدين .

هذا فضلا عما أخذه فى الشعر من أوس بن حجر زوج أمه ؛ وكان كذلك اشتراك زهير فى الملاحم الحربية ، وفى حرب داحس والغبراء من بينها ، مما أثار من شاعريته ، والحروب تثير الشاعرية ، وتهيج الخيال ، وتحرك الشعور . . .

وهناك أيضاً المنافسات بين الشعراء وزهير ، وهى كثيرة فى حياته . .

ثم حرص زهير على المثل ، ورغبته فى أن ينال الجوائز والمكافآت . . إلى خبرته الطويلة بالحياة .

كل ذلك مما أغزر فيه الملكة الشعرية ، وأنطقه بروائع القصيدة والحكم والأمثال والتجارب .

وفى مدح هرم بن سنان والحارث بن عوف ، حين سعيا فى السلام ، وتحملا دياتِ القتلى ثلاثة آلاف بعير ، وانتهت بذلك صفحة حرب داحس والغبراء ؛ نظم زهير معلقته الجميلة الرائعة .

— ٣ —

وماذا من جديد فى معلقة زهير ؟

بدأها زهير على عادة الشعراء الجاهليين بالوقوف على الأطلال ، وبكاء الديار ، ديار محبوبته ليلى أم أوفى ، بعد ما فارقها عشرين حجة ، ولم يعرف الشاعر الدار إلا بعد لأى شديد .

أمِنْ أمِّ أوْفَى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّمِ
بحَوْمَانَةِ الدَّرَّاجِ فالمُتَثَلَّمِ

وقفتُ بها من بعد عشرين حِجَّةً
فلأياً عرفتُ الدارَ بعد توهُّمِ

ثم أخذ يصف يوم الفراق ، وموقفه الحزين فيه ، يلمع بصره موكب الراحلين ، وتسود دامع العينين ، مقرح الأجفان ، مؤرق الذكريات ، مسهد الأحلام . . إلى أن يقول :

تذكَّرْتُ الأحلامَ ليلى ومن تَطِفْ
عليه خيالات الأحبَّةِ يَحْلُمِ

وينتقل إلى مدح هرم والحارث ، والإشادة بمنقبتها الجليلة فى إنقاذ السلام ، وإطفاء الحرب بين عبس وذبيان ، وتحملها ديات القتلى من مالهما ، ثلاثة آلاف بعير . . ويندد بالحرب فيقول :

وما الحربُ إلا ما علمتم وذقتموهُ
وما هو عنها بالحديثِ المرجَّم

ويبلغ زهير الغاية فى الحكم التى صاغها بلباقة ، وقال منها :

وأعلمُ علمَ اليومِ والأمسِ قبله
ولكننى عن علمِ ما فى غدٍ عمِ

ومن يجْعَل المعروف من دون عرضه
يفِرْهُ ومن لا يَتَّقِ الشتمَ يشتَمِ

ومن يكُ ذا فضلٍ فيبخَلْ بفضله
على قومه يُستَغْنَ عنه ويُذمَمِ

ثم يقول : إن الموت لا يهرب منه أحد ، وإن على الإنسان أن يضع المعروف فى موضعه :

ومن هابَ أسبابَ المنايا يَنَلْنَهُ
وإن يرْقَ أسبابَ السماءِ يسلَّمِ

ومن يجعل المعروف فى غير أهله
يكن حمدُه ذمًّا عليه ويندمِ

ثم يذكر طبيعة العلاقات الاجتماعية فى مجتمع الجاهليين ، وأنها ترتكز على القوة والظلم ، فيقول :

ومن لا يَذُدْ عن حوضه بسلاحه
يُهَدَّمْ ، ومن لا يظلم الناسَ يُظلَمِ

ومن العلقة نعرف أن زهيراً نظمها وهو فى سن التجربة والحكمة ، إذ كان قد بلغ الثمانين :

سئمت تكاليفَ الحياةِ ومن يَعِشْ
ثمانين حولا لا أبا لك يسأم

— ٤ —

وهذه صورة شعرية أخرى رسمها زهير لممدوحيه هرم والحارث ، فقال :

وفيهم مَقاماتُ حِسَانٌ وجوهُهمْ
وأندية يَنْتَابها القولُ والفعلُ

على مكثريهم رزق من يعتريهمو
وعند المُقِلِّينَ السماحةُ والبذلُ

وإن جئتهم ألفيتَ حولَ بيوتهمْ
مجالسَ قد يَشْقَى بأحلامها الجهلُ

ومابكَ من خير أتوهُ فإنما
توارثهُ آباءُ آبائهم قبلُ

وهي صورة فنية شاعرية زهير وصنعته ، ومروءته ، وفيها مدحه وتجويده وتجديده وتجربته ، وفيها كل خصائص فنه الشعري الرفيع .

وليس كل ذلك من زهير الشاعر بعجيب .

الفصل الرابع عشر

عنترة العبسى

- ١ -

كانت كل العوامل والأسباب تعمل عملها ، لتجعل من عنترة أحد الشعراء الكبار فى المجتمع الجاهلى ؛ قبل الإسلام .

والبيئة العربية الشاعرة ، والخصومات القبلية الكثيرة ؛ والحروب المستمرة فى كل ركن من أركان الجزيرة العربية إبان ذلك العهد البعيد ؛ ثم المنافسة بين عنترة وأقرانه من الشعراء ، وطموحه الكبير ، ورغبته فى الارتفاع بطبقته ومكانته فى مجتمعه ، ثم حبه لابنة عمه عبلة .

كل ذلك وغيره كان من بواعث شاعريته ، وملهيات موهبته . وهاج كل ذلك ملكات عنترة ، وفجر ينابيع الشعر فى نفسه . . ولم يلبث أن قال معلقته ، التى اشتهر بها ، وذاع نبؤها فى كل مكان من أنحاء الجزيرة العربية ، وارتفعت منزلة عنترة فى ميدان الشعر إلى مصاف كبار الشعراء المفلقين .

ولقد عد عنترة من فحول الشعراء الجاهليين ، ومن أعلامهم ، واعتبره بعض النقاد من شعراء الطبقة الأولى فى العصر الجاهلى .

— ٢ —

وكان عنترة عبداً أسود ، لا يقول الشعر ، ولا عمل له إلا رعى الإبل ، وكانت أمه جارية حبشية ، اتخذها أبوه أمة له ، واتخذ عنترة ابنه منها عبداً

له ؛ وكذلك كانت تصنع الجاهلية ، يستعبدون بنى الإماء ، ولا يعترفون بهم إلا إذا أظهروا نجابتهم ؛ وأبى أبو عنترة وإخوته من أبيه أن يرتفع إلى مصاف الأحرار ، فلما شب عنترة قالوا له : اذهب فارع الإبل والغنم . فانطلق يرعى .

وواجه بذلك عنترة المشكلة الأولى فى حياته ، وهى مشكلة الحرية .

وأخذ — وهو الصغير — يواجهها مواجهة حاسمة ، ويدبر الأمر لكى يظفر بحريته ، ويخطط فى حذق وذكاء ليلوغ هذه الغاية .

وسارع ، فباع شيئا من إبل أبيه التى يرعاها ، واشترى بذلك سيفا ورمحا ودرعا ، ودفنها فى الرمل ، استعداداً ليوم فصل ؛ ثم اتخذ له مهراً ، وكان يسقيه لبن الإبل .

وفى يوم من الأيام ذهب إلى الماء ، فى حى قومه ، فلم يجد فى الحى أحدا ، فبيت وغير ، وعلم أن أعداء قومه لا بد أن يكونوا قد أغاروا عليهم ، وأخذوهم أسرى ، وانطلقوا بهم ، فعمد إلى سلاحه فأخرجه ، وإلى مهره فأسرجه ، وانطلق يعدو فى الطريق . وفجأة رأى قومه مكبلين بالأغلال ، وأعداءهم يسيرون بهم إلى حيث يريدون ، ورأى أموال قومه التى نهبوها منهم ، وهى فى حوزتهم .. وعزم عنترة على الانتقام ، وعلى استرداد آله ومال قومه مهما كان هو وحده فى الميدان .

معركة وياللها من معركة . عنترة منها فى صف ، وكل خصوم قومه ومن معهم من الأسرى ، وربما معهم من الأموال فى صف آخر ؛ وماذا يبلغ عنترة بنفسه منفردا من كل هؤلاء .

وحارب عنترة ، واستبسل فى حرب هؤلاء الأعداء ، وقتل منهم بعض فرسانهم .

وصاحوا به : ماذا تريد أيها العبد ؟ قال : أريد : العجوز السوداء ، والشيخ الذى معها ؛ يعنى أباه وأمه .

فتركوا أغلالهما ، وأطلقوا سراحهما ، وأعطوهما له . .

وهنا دمعت عينا عمه وهو فى الأسر ، فصاح بعنترة : يا بنى كر . . تريد أن يجردهم من الأسر .

وأجابه عنترة : العبد لا يكر ، ولكن يحلب ويعصر .

فأعاد عليه القول ثلاثا ، ويجىء إليه الجواب الذى رد عليه به عنترة أولا .

فقال له عمه : إنك ابن أخى ، وقد زوجتك ابنتى عبلة . . وبذلك اعترف بحريته ، وارتفع بمكانته . .

وعندئذ حارب عنترة ، واستبسل فى الحرب ، وكر على أعدائه ، فقتل منهم عشرة فرسان .

فصاحوا به ، ونادوا عليه : ماذا تريد ؟

قال : أريد الشيخ والجارية ؛ يعنى عمه وابنته عبلة فردوهما عليه .

وقال له أبوه وعمه : احذر ، إن القوم يريدون بك شراً ، فاتئد بنفسك وبنا ، ولان حين نجاة . .

وهنا يرتفع عنترة بالبطولة العربية وبالخلق العربي إلى ذروة الإنسانية ، ويرد على أبيه وعمه : إنه قبيح بي أن أرجع منهم ؛ وجبرائي في أيديهم . . .

وكر على خصومه ، وصرع منهم نحو أربعين فارسا ، ما بين قتيل وجريح .

فصاحوا به — بعد أن أعجزهم — ماذا تريد منا ؟

قال : جبرائي .

فردوهم عليه ، وعاد بهم جميعا إلى حي قومه .

ويومئذ احتفلت عبس ببطلها وفارسها العلم ، ومنحه أبوه حريته ، واعترف به ، وألحقه بنسبه ؛ ثم زوجه عمه ابنته عبلة ؛ ودوى اسم عنترة ؛ وذاعت أنباء بطولته في كل مكان ؛ وصار يطلق عليه لقب « عنترة الفوارس » ؛ ولم يعد بطل عبس وحدها ؛ بل أصبح أحد فرسان العرب المذودين . .

— ٣ —

وكان عنترة يقول الشعر قليلا ، البيت والبيتين منه ، فيفهمه رجل ، وغيره بسواده وسواد أمه ، وأنه لا يقول الشعر . . وكان عنترة شديد السواد ، ورثه عن أمه ، ولذلك عدوه من أغربة العرب وسودانهم .

ولم يسكت عنترة ، بل رد على ذلك الرجل فأفحمه ، قال له في بلاغة وطلاقة :

والله إن الناس ليتقاعدون الطعام ، فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك مرفد الناس قط .

وإن الناس ليدعون فى الغارات فيمرقون بفسويهم ، فما رأيتك فى خيل مغيرة فى أوائل الناس قط .

وإن الناس ليكون بيننا ، أى النزاع والخصومة فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك خطة فصل .

وإن لأحضر البأس ، وأوفى الغنم ، وأعف عن المسألة ، وأجود بما ملكت يدى وأفصل الخطة الصماء ، أى التى لا يبين وجه الرأى فيها .

وإن أكن أسود اللون ، فإن أبيض الفعال ، وأما الشعر فسنعلم . .

وغاب عنترة حينا ، ثم عاد إلى الرجل وأنشده معلقته المشهورة :

هل غادرَ الشعراءُ من مُتَرَدَّم
أم هل عرفْتَ الدارَ بعدَ توَهُّم

وكانت العرب تسميها المذهبة ، اعتزازا بجلالة هذه القصيدة ، وكانت أجود شعر عنترة . ويومئذ لم يعد عنترة بطلا فحسب ، بل وصار شاعراً كبيراً أيضاً . .

وانتصر عنترة فى معركة الشعر والفصاحة ، كما انتصر من قبل فى معركة الحرية والنسب .

— ٤ —

وطارت شهرة عنترة فى الحرب ، وفى الشعر معاً ، فى كل مكان .

ورددت العرب أنباء بطولته فى حرب « داحس والغبراء » . تذكرها واعتزازاً واحتفاءً بالبطل والشاعر فى شخص عنترة .

ولم تلبث الأسواق العربية أن رددت شعره ، والمحافل العامة أن شغلت بترداد معلقته ، ورواياتها وإنشادها ، واعتبرها الناس قطعة من تراثهم ومفاخر بطولاتهم .

وكان من أمر داحس والغبراء أن داحساً كانت فرساً لقيس بن زهير العبسى ، والغبراء كانت فرساً لحمل بن بدر الفزارى ؛ وتراهن هذان الزعيمان على فرسيهما : أيهما يكون له السبق .

وفى السباق جاء فرس قيس سابقاً ، فدبر حمل بن بدر مكيدة رد بها الفرس عن الغاية .

وبسبب ذلك ثارت الحرب بين عبس وذبيان أبقى بنيض أربعين سنة .

وأكلت الحرب كل شىء : المال والرجال والسلاح .

فسعى هرم بن سنان والحارث بن عوف المريان فى الصلح ، وتحملا دياتٍ القتلى ، ثلاثة آلاف بعير ، من مالهما الخالص ، وقال زهير فى ذلك معلقته المشهورة :

أمنْ أمّ أوفى دمنة لم تَكلّم
تَحوْ مائةِ الدراجِ فالمتثلمِ

التى يقول فيها منوها بهذين السيدين :

تداركتما عبساً وذبيان بعدما
تفانوا ودقّوا بينهم عُطِرَ مَفْشَم

— ٥ —

ويصور لنا عنترة نفسه فى أوضح صورة ، فى قصيدة له ، فيها ما فى معلقته من عذوبة كلامه وحرارة عاطفته ، وانقاد شاعريته ؛ ومن حبه للحرب وإقدامه فيها ، ويصور فيها غايته من البطولة ، وهى أن ترضى عنه عبلة وترضى عن سواده ، الذى كان عقدة فى نفسه ، ويقول فيها :

يا عبل قومى انظرى فعلى ولا تسلى
عنى الحسود الذى يتيبك بالكذب

خلقت للحرب أحميها إذا نشبت
وأصطلى نارها فى شدة اللهب

وقد طلبت من العلياء منزلة
بصارمى ، لا بأمى ؛ لا ، ولا بأبى

وهكذا رأينا شعره ، فى عذوبة أسلوبه ، وسهولة لفظه ، ورقة معناه ، وحلو نغمه ، وجمال غزله ، ودقة وصفه ، ومتانة فخره وقوة حماسته وشخصيته فى شعره .

مما خلد ذكره ، دون سواه من شعراء عبس وأبطالهم ، من مثل عروة بن الورد العبسى ، مثلا .

وسيرة عنترة التى كتبت بأسلوب الأدب الشعبى فى القرن الخامس الهجرى فى عصر الفاطميين . . فيها ما فيها من تصوير بطولة عنترة ، وشخصيته بوضوح شديد ، وإن كان لها جانبها الملحمى الأسطورى ، مما باعد بينها وبين كثير من الحقائق التاريخية المعروفة عن عنترة . .

ولقد عاش عنترة نحوا من تسعين عاما (٥٢٥ ـ ٦١٥ ميلادية) ، ولا ريب أنه كان بطلا شعبياً لجزيرة العربية فى العصر الجاهلى ، وأنه كان شاعراً من أشهر وأشعر الشعراء قبل الإسلام .

— ٦ —

ولنعد إلى معلقة عنترة ، لنسائل أنفسنا ماذا فى هذه المعلقة من جديد ؟

ونقول فى الجواب عن ذلك ما قاله الناقد العربى القديم ابن سلام عنها : إنها نادرة .

وحقا هى نادرة ، وكأنها طائفة من الأنغام الموسيقية العذبة الجميلة ، التى تتصل بأعماق النفس الإنسانية اتصالا وثيقا . .

وأكثر هذه القصيدة الشعرية يجرى مجرى المثل ، ويترنم به على اختلاف العصور والأحوال والبيئات . . وكأنما كان عنترة فى وصفه لنفسه ، وحديثه عنها ، يصف كل نفس ، ويتحدث عن كل إنسان ووجدان .

والعاطفة يتردد فى كل مقطع منها اسم عبلة ، ويدور الحديث فيها من بدئها لختامها حولها واسم عبلة له فى نفس عنترة كل إجلال وإعزاز وتكريم .

يبدأ عنترة معلقته بذكر الأطلال وتحيتها ، متقيداً النهج الذى سار عليه غيره من شعراء المعلقات .

ومن ثم كان لبكاء الأطلال ، ولحديث عنترة عن عبلة مكان كبير من القصيدة .

ولكن المعركة حول الشاعر تدور فى كل مكان ، والحرب المشتعلة تطوف بخاطر كل إنسان ؛ وعنترة يذكر الحرب والمعركة فى معلقته ، من خلال ذكره لعبلة .

وكل ذلك فى نغم لذيذ ، ونسق حلو ، حتى تعد هذه القصيدة من أكثر المعلقات انسجاماً ، وأبدعها وصفاً ، وأشدها حماسة .

ففى بكاء الأطلال يقول عنترة منوهاً بعبلة ، وأطلال دارها التى كانت مسرحاً للهوى والشباب والجمال والذكريات ، ومرتعاً للحب والأحباب والأيام الماضيات . .

هل غادر الشعراءُ من متردمِ
أمْ هل عرفتَ الدارَ بعد توهمِ

يا دارَ عَبْلَةَ بالجواءِ تكلمي
وعمي صباحاً دارَ عَبْلَةَ واسلمي

ويستطرد الشاعر إلى وصف روضة قريبة من هناك ، وإلى وصف ناقته .

ثم يعود إلى الفخر بشجاعته وبطولته واقتحامه المعارك ، فيقول موجها الخطاب إلى عبلة :

أثني عليَّ بما علمتِ فإنني
سَهْلٌ مخالقتي إذا لم أُظْلَمِ

فإذا ظلمتُ فإن ظلمي باسلٌ
مر مذاقتُهُ كطعمِ العلقمِ

وإذا صحوتُ فما أقصّرُ عن ندًى
وكما علمتِ شمائلي وتكرُّمي

ويستمر في التنويه بشجاعته ، إلى أن يقول ، مخاطبا عبلة التي لم ينسها في أية لحظة ، وهو في هول المعركة ، يصنع البطولات والانتصارات . .

ولقد ذكرتكِ والرماحُ نواهلٌ
مني ، وبيضُ الهندِ تقطرُ من دمي

فوَرِدْتُ تقبيلَ السيوفِ لأنها
لَمَعَتْ كبارقِ ثغرِكِ المتبسِّم

ثم يقول :

لما رأيتُ القومَ أقبل جمعهم
يتذامرون كررْتُ غيرَ مُذمَّم

يَدْعُون عنترَ والرماحُ كأنها
أشطان بئرٍ في لبانِ الأدهم

مازلتُ أرميهم بثغرةِ نحره
ولبانِه حتى تَسَرْبَلَ بالدم

واستمعوا إلى هذه العذوبة في الحديث عن فرسه ، يشكو إليه التعب ، لأن صاحبه البطل كلفه جهدا شديدا ، وانقحم به نيران الحرب ، معركة بعد معركة :

فازورَّ من وَقْعِ القَنَا بِلَبَانِه
وشكا إليَّ بعَبْرَةٍ وتحمْحُم

لو كان يَدْرِي ما المحاورةُ اشتكى
ولكان لو عَلِمَ الكلامَ مُكلِّمي

وهكذا نجد وصفا للمعركة ، والتحام الجيوش فيها ، ومواقف بفرسه منها ، وإقدامه فى وسط المعمعة شجاعاً مقداما جريئا ، لا يهاب ولا يخاف . وهذا الفن الشعرى ، وهو الشعر الحماسى ، هو الفن الذى أجاده عنترة ، وبلغ فيه الذروة وارتفع فيه وبه إلى قمة البلاغة .

وفى آخر معلقته تهديد « قوى » لابنى ضمضم ، وكان عنترة قتل أباهما فى الحرب فتوعداه بالأخذ بالثأر ، وبذرا دمه ، وتربصا له .

ولن نجد صورة دقيقة لعنترة وملامحه الشخصية والخلقية والنفسية أكثر مما نجد فى معلقته التى تمثل حماسته وشجاعته وإقدامه وحبه للحرب واقتحامه لأهوالها ، ومخاطرته بنفسه فيها ، تمام التمثيل . . وفى المعلقة يرسم عنترة صورة القتال عند العرب فى العصر الجاهلى ، حيث ينزل الجنود والقواد وسط أرض المعركة ، أو يدورون بخيولهم فى وسطها ؛ ويقول لنا عنترة إنه ود تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغر عبلة المبتسم ، وأنه دخل الميدان لأنه رأى أعداءه قد دخلوه ونادوا عليه لينزل إليهم ؛ وإنه وقف فى وسط الميدان حيث الخاربون يخطون باسمه ، ويدعونه حيث احتدام الحرب ، وما أجمل ما ذكره من بكاء الفرس ، وأنه لو استطاع الحديث لتحدث عن فرط ما كلفه عنترة من أهوال الحرب . والشىء الذى بعث الفزع فى قلب الشاعر البطل هو هتاف الفرسان باسمه ، وإلحاحهم عليه أن يستمر فى إقدامه وبطولته .

الفصل الخامس عشر

طـــرفة بن العبـــــــد

- ١ -

طرفة من أعلام الشعراء الجاهليين ، وصاحب شخصية واضحة فى شعره ، ومذهب مستقل فى حياته ؛ وشاب جمع إلى قوة الشباب وطيشه حكمة الشيوخ وتجربتهم .

ويعجب النقاد والمستشرقون به وبشخصيته وشعره إعجاباً شديداً .

رفعه النقاد العرب القدماء إلى منزلة عالية فى الشعر الجاهلى ، وجعله أبو عمرو بن العلاء الناقد المشهور القديم مع امرىء القيس والنابغة والمهلهل فى طبقة واحدة ؛ وفضله ناقد آخر هو أبو زيد الأنصارى عليهم ، وجعله أشعرهم ، مع حداثة سنه ، وطول أعمارهم .

وكان لبيد بن ربيعة الشاعر الجاهلى المشهور يقدم امرأ القيس ، ثم طرفة على نفسه .

ونوه به وبشاعريته جرير والأخطل وعنى الرواة والنقاد وعلماء الشعر بشعره عناية شديدة .

ودرس شعره كوسان دى برسفال ، ونشر عنه بيرون أبحاثا قيمة فى المجلة الآسيوية الفرنساوية عام ١٨٤١ م ؛ وطبع ديوانه المستشرق وليم آلورد

مع دواوين النابغة وزهير وعنترة وعلقمة وامرئ القيس عام ١٨٧٠ م فى لندن ، فى مجموعة سماها العقد الثمين فى دواوين الشعراء الجاهليين . ونشر مستشرق آخر ديوانه كاملا مشروحا ، وترجم ذلك إلى الفرنسية مع دراسة قيمة عن حياته . وترجم دى سيلان بعض قصائده إلى الفرنسية ؛ ونشر « لابل » معلقته مع سائر المعلقات بشرح التبريزى عام ١٨٩٤ م فى كلكتا . ونشر « ريشر » المعلقة بشرح الأنبارى فى القسطنطينية .

- ٢ -

كل هذا الاهتمام بطرفة وبشعره ، يرجع إلى ما فى قصائده من طرافة وجدة وصدق فى التعبير والتصوير ؛ وإلى مذهبه الذى انفرد به وصوره فى شعره .

وطرفة متوهج الشاعرية دائماً ، يقوده ذهنه الفياح إلى الصيغ الفنية الجديدة ، والصور الشعرية الرفيعة ؛ فهو ليس شاعراً مسكوراً مثل كثير من الشعراء بل كان مستقل النزعة والتجربة والإحساس الفنى .

ودعاة التعبير بالصورة الشعرية يذهلون عندما يجدون طرفة كان أسبق منهم إلى التعبير عن تجاربه بالصورة الشعرية ، التى كان يساعده فى اكتمالها ونضوجها موهبته الصناع ، وذهنه الذكى ، وشاعريته الأصيلة .

وانظر إلى هذه الصورة الشعرية ، التى رسمها فى معلقته ، يقول : إن الفقراء لا ينكرونه ، والأغنياء كذلك يعرفونه ، ثم ينوه بشجاعته فيقول :

رأيتُ بني غبراءَ لا ينكرونني
ولا أهلَ هذاكَ الطرافِ المُمدَّدِ

ألا أيهذا الزاجري أحضرَ الوغى
وأن أشهدَ اللذاتِ هل أنتَ مُخلِدي

فإن كنتَ لا تستطيعُ دفعَ منيتي
فدعني أبادرُها بما ملكتْ يدي

وهي سورة لا تنقصها الروح والحياة ، ولا رعشة الفن وتوهجه .

ومع تنوع معانى طرفة ، فإن شعره يتصل بنفسه وحياته وبيئته ، وبتاريخ قومه وأحسابهم ومفاخرهم ، وبالحياة العربية عامة ، اتصالا وثيقاً .

ومعلقة طرفة تصور بعض الجوانب العامة فى حياته ، وهى التى عد بها من فحول الشعراء الجاهليين ومشهوريهم ، واستحق من أجلها أن يعده بعض النقاد أشعر طبقته .

وهى أطول المعلقات ، وأبياتها خمسة ومائة بيت . وتمتاز بكثرة معانيها ، وجزالة أسلوبها . وفيها نجد صوراً من عادات الجاهليين فى مجتمعاتهم ، وفى مجالس لهوهم ، ومآتمهم ، وصوراً أخرى من أساطيرهم وأفكارهم . ومنها يستدل الباحثون على أنه كان للعرب معرفة باللاحة ، وركوب السفن ، وأنه كانت لهم صناعات من أهمها بناء السفن فى البحرين ، ودباغة الجلد فى اليمن ، وصناعة الورق فى الشام ؛ ويستدلون بها كذلك على معرفة العرب للكتابة ،

وعلى حذق الروم فى البنيان ، وعلى استعمال العرب المرداة ، وهى آلة حجرية يكسر بها غيرها من الحجارة .

وهذا كله إلى ما فيها من صور عن الشاعر وأخلاقه ، حتى لتكاد ترى طرفة مرسوما أمامك تلمسه لمساً وأنت تقرأ أبيات المعلقة بيتاً فبيتا .

وحكمه التى ذكرها فى معلقته هى خلاصة تجاربه فى الحياة ، وثمرة فهمه لها ، وليست لها طوابع الشعر التعليمى فحسب . . والشاعر من هذه الجوانب كلها يوليه الباحثون عناية لا يولونها شاعراً آخر .

وقد نظمها على ما ترجح عتاباً لابن عمه ، أو أخيه ، معبد .

وقد تحدث الشاعر فى مطلع المعلقة عن الأطلال ، ووقوفه بها ؛ وذكر حبيبته خولة ، وموضع نزولها هى وقومها ببرقة ثهمد ، فقال :

لِخَوْلَةَ أَطْلالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ
تَلُوحُ كَبَاقِى الوَشْمِ فِى ظَاهِرِ اليَدِ

ثم عرض لحيه وأحيائه ، ووصفهم ، وبكى لفراقهم .

وتقوده الهموم إلى الرحلة فى الصحراء ، ورفيقه ناقته التى ركبها ليسلى عن نفسه الأحزان .

وإنَّ لأَمْضِى الهَمَّ عند احتضارِهِ
بِعَوْجَاءَ مِرْقَالٍ تَرُوحُ وتَغْتَدِى

ويأخذ فى وصف هذه الناقة وصفاً دقيقاً ، فى نحو ثلاثين بيتا .

وينتقل الشاعر إلى الفخر بنفسه ، ووصف كرمه وفتوته ولقائه وأمانيه ، فى ثلاثين بيتا أخرى .

ويعاتب ابن عمه عبد عمرو ، أو أخاه من أبيه معيداً فى أربعة عشر بيتاً .

ويختم قصيدته بوصف أمانيه والحكمة التى أرسلها ، من مثل قوله :

ستبدى لكَ الأيام ما كنتَ جاهلاً
ويأتيكَ بالأخبارِ من لم تُزَوِّدِ

وما أجمل ما يرد طرفة على لا تميه بالتهور فى الشجاعة ، والإسراف فى اللذات ، فى قوله :

ألا أيُّهذا الزاجرى أحضرَ الوَغى
وأن أشهدَ اللذاتِ ، هل أنت مُخلِدى
فإن كنتَ لا تستطيع دفعَ منيَّتى
فدعنى أبادرُها بما ملكتْ يدى

ويقول : إن البخيل الغنى ، والمسرف الغوى ، مآلهما واحد ، ونهايتهما واحدة ، ولا يمتاز قبر أحدهما عن قبر الآخر :

أرى قبرَ نحّامٍ بخيلٍ بمالِهِ
كقبرِ غويٍّ فى البَطالةِ مُفسِدِ

ويذكر أن الموت يختار الجياد من كل شيء ، فيقول :

أرَى الموتَ يَعْتامُ الكرامَ ويَصْطفي
عَقيلةَ مالِ الفاحشِ المتَشَدِّدِ

ويرى أن الإنسان معلق من الفناء والموت بحبل متين ، إن بعد الأجل أرخى الموت الحبل ، وإن دنا شده ؛ وهب الإنسان عمر في الحياة ، أله قدرة على النجاة من الموت ؟ كلا لا يخرج أحد من سلطانه ، مهما طالت به الحياة ؛ يقول طرفة :

لَعَمْرُكَ إنَّ الموتَ ما أخطأ الفتى
لكا لطَّوَلِ المرْخى وثُنْيَاهُ باليد

— ٣ —

ولطرفة قصيدة مفردة في الغزل ، يبكي فيها دار حبيبته سلمى أو سليمى ، ووصف جمالها ، وتحدث عن حبها ، فقال فيما قال :

دِيَارَ سليْمَى إذ تصيدُكَ بالمنَى
وإذ حَبْلُ سلْمَى منكَ دانٍ تواصله

غَنِينا وما نخشَى التفرقَ حقبةً
كلانا غريرٌ ناعمُ العيشِ باجِلُهْ

لَيَالِيَ أقتاد الصِّبَا ويقُودُنى
يَجولُ بنا رَيْعَانُه ونجَاوِلهْ

ثم يقول :

فوجدِى بسَلْمَى مثلُ وَجْدِ مُرَقِّش
بأسماءَ إذ لا تستفيقُ عواذلَهْ

قضى نحبَهُ وجْداً عليها مُرَقِّشٌ
وعلّقتُ من سلْمَى خيالا أماطِلهْ

— ٤ —

وليس عجيباً أن نرى طرفة مجيداً ، معلم الشاعرية ؛ فى معلقته وفى بعض شعره ، فلقد كان كل شىء فى حياته يثير فيه الشعر ، ويعمل عمله فى صقل مواهبه الفنية ، وطبيعته الشاعرة . .

الصحراء بروعتها وجلالها
ومفاخرُ القبيلة وأيامها وأحسابها
وخصوماتها وملاحمها
وورثات للشاعر فى أسرته الشاعرة

وكان من أعلام الشعراء من بنى قومه : المرقش الأكبر ، والمرقش الأصغر ، والمتلمس ، والحارث بن حلزة شاعر قومه بكر ، وسواهم . .

ثم يتم الشاعر وهو طفل صغير ورحلاته فى الجزيرة العربية وحدة عواطفه ، والتهاب مشاعره كل ذلك مما فجر شاعريته ، وآثار إلهامه وعبقريته .

— ٥ —

وطرفة من ربيعة ، من بكر بن وائل ، وبكر قبيلة عربية كبيرة ، كانت تنافس أختها تغلب فى الشرف والسيادة ؛ وربيعة أخت مضر فى الحسب والقوة والعدد والمنعة .

أما أسرته القريبة فهى سعد بن مالك بن قيس ووالده هو العبد بن سفيان ابن سعد مالك .

ووالدته « وردة » التى ذكرها فى شعره ، وهى أخت المتلمس الشاعر ، فهى من بكر من ربيعة ؛ وصلة القرابة بين أبويه واضحة . والمرقش الأصغر عم طرفة .

وكان جده سفيان موصوفا بالشرف والرياسة ، وأبوه كان شابا قويا ظاهر الشجاعة والقوة ، ومات وطرفة صغير .

ولطرفة أخ من أبيه اسمه معبد ، وأخت من أمه اسمها الطرفى ، وهى شاعرة أيضاً ، ولها ديوان شعر مخطوط فى دار الكتب المصرية ، وقد تزوجها ابن عمها عبد عمرو بن بشر .

وكان طرفة وقومه يعيشون فى البحرين ، التى كانت آنذاك خاضعة لنفوذ الحيرة السياسى ؛ وكان لقبائل التى تعيش فيها ، والشعراء الذين عاشوا

على أرضها ، صلات « كبيرة » بملوك الحيرة ، الذين كانوا يخضعون لنفوذ الأكاسرة ؛ وكانت هذه البلاد قريبة من العراق ، ويمر بها المسافرون بين فارس والعراق ، وتتأثر بما كانت تتأثر به الحيرة آنذاك من تلاقى الأفكار والمذاهب المختلفة ؛ وكانت تعيش فى ظلال ألوان من الحياة ، لها أثرها فى عقلية أبنائها ، وفى تفكير شاعرنا طرفة بوجه خاص .

ونشأ طرفة فى هـــذه البيئة ، بين حسب كريم ، وعدد كثير ، وحمية ظاهرة . .

وفوجىء وهـــو طفل بوفاة والده ، فترك يتمه أكبر الظلال فى نفسه وحياته . وكفله أعمامه ، وقاموا بواجب تنشئته ؛ وأخذ الشاب الصغير يلهو بالشعر ، ويقوله فى مختلف أغراضه . . وأول شعر نظمه على ماروى الرواة هو هذه الأبيات التى أنشدها حين وجد أعمامه يظلمونه ، ويغصبون حقوقا لأمه وردة :

ما تنظرونَ بحقِّ وَرْدَةَ فيكمو
صَغُرَ البنونَ ورهطُ وردةَ غُيَّبُ

قـــدْ يبعثُ الأمرَ العظيمَ صغيرُه
حتى تظـــلَّ له الدماءُ تَصَبَّبُ

والظـــلمُ فرَّقَ بين حَيِّىْ وائل
بكرٌ تســـاقيها المنيَّةَ تغلب

وعن سأم بالحياة ، وضجر منها ، وعدم اكتراث بها ، أخذ الشاعر يميل إلى اللهو ويسرف فيه ، ويعتنق البطالة ، ويهجو قومه وغيرهم . . وأخذ أهله ينصحونه ويلومونه ، حتى ضاق بهم ذرعاً ، فاقتاد راحلته ، يتنقل بها بين الأحياء والبلاد ، ومر باليمامة واليمن ، وركب البحر إلى الحبشة ، ثم غلبه الحنين إلى الدار والسكن ، والأهل والوطن ، فعاد إلى البحرين ، وهو يقول مخاطباً محبوبته :

تَعَيَّرَنى سَيْرى فى البلادِ ورحلتى
الا رُبَّ دار لى سوى حَرِّ دارِكِ

وليسَ امرؤٌ أفنى الشبابَ مجاوراً
سوى حَيِّه إلا كآخرَ هالكِ

وقاسمه أخوه معبد ماله ، وعاش قليلا هناك ؛ ثم عاد من جديد يفكر فى الرحلة إلى الحيرة ، فقصد ملكها عمرو بن المنذر ، المعروف بعمرو بن هند ، الذى تولى ملك الحيرة خمسة عشر عاما (٥٥٤ — ٥٦٩ ميلادية) . ومدحه طرفة ، وأجزل له المنذر وخاله المتلمس العطاء ، وأحسن وفادتهما ، وجعل طرفة فى حاشية أخيه وولى عهده قابوس بن المنذر . ولكن الوشايات سرعان ما اشتعلت نارها ، واشتد أوارها ، حقدا على طرفة ، لمنزلته فى بلاط الملك ، ووقعت لطرفة أحداث قتل بعدها فى البحرين بأمر ملك الحيرة ، وذلك عام ٥٦٥ ميلادية .

ولم يعش طرفة غير ستة وعشرين ربيعا ، ودع الحياة بعدها ، وداع الخبير

بها ، الناقم عليها ، الساخر منها . وما أجمل ما قال طرفة ، يتحدث عن نهاية حياته :

إذا متُّ فانعيني بما أنا أهلُه
وشقي عليَّ الجيبَ يا ابنةَ معبَدِ

ولا تجعليني كالذي ليس همُّه
كهمِّيَ ، ولا يغني غَنائي ومشهدي

ومن عجب أن تكون البقرية قصيرة العمر ، وأن تكون حياتها كحياة الورود ؛ ولكنها تترك شذى معطراً ، وأريجاً طيباً ، وذكراً لا يموت على مر السنين .

وهكذا مات طرفة ابن الستة والعشرين ربيعا ، بعد أن نقل إلى الأجيال من بعده كل ما رآه من فكر ومذهب في الحياة .

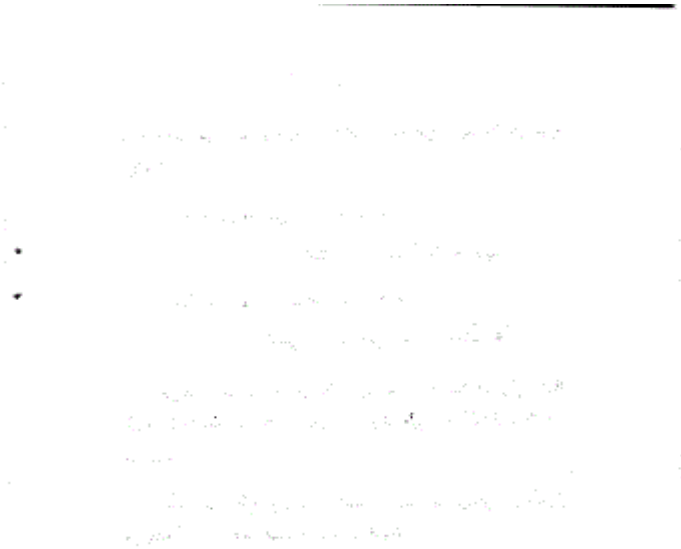

الفصل الخامس عشر

الحطيئـــة الشـــاعر

— ١ —

أبو مليكة الحطيئة جرول بن أوس العبسى شاعر كبير ، يعد من أعلام الشعراء المخضرمين ، ممن عاشوا فى الجاهلية والإسلام ، شأنه فى ذلك شأن حسان

ولقد عاش الحطيئة حياته كلها للشعر وفى الشعر وبالشعر ؛ عاشها شاعرا ، ومشى فيها شاعرا ، وودعها وليس له تراث إلا الشعر .

ولد الحطيئة فى الجاهلية ، ومن أسرة خاملة فانتسب إلى عبس ، ونشأ وعاش بين الجاهلية فى ضيق الصحراء ، يتنقل من مكان إلى مكان ، ويشهد حروب العرب وأيامهم وأسواقهم ، ويشترك فى المفاخرات والمناقضات الشعرية الكثيرة ، التى كانت تشب كثيرا بين الشعراء فى العصر الجاهلى .

وكان الحطيئة من مدرسة زهير ، وأحد رواة شعره ، وتخرج على يديه فى صناعة الشعر ، فعكف على الصنعة والتهذيب والتجويد لشعره ، كما كان يفعل أستاذه زهير ؛ وصار ينظم الشعر الجيد ، فى طلاوة نظم ، ورصانة أداء ، وقوة تعبير ، وضخامة معنى ، وشدة تأثير يأخذ عن زهير صياغة الشعرية الجليلة ، العالية الديباجة ، ويسير على منواله فى إحكام النسج وتلاحم الصور واختيار الكلمات .

وصار ينظم القصائد فى الجاهلية فى المدح والهجاء ، كما ظل فى الإسلام

ينظم كذلك فى هذين الفرضين البارزين من أغراض شعره ، إذ كانا أوسع أغراضه وأجود شعره ، بل هما سبب شهرته ، وذيوع اسمه فى كل مكان .

ولما ظهر الاسلام ، وأضاء نوره فى كل أفق ودخل فيه العرب جميعا بعد فتح مكة ، أسلم الحطيئة ، واستظل بلواء الدين ، وعاش متنقلا فى القبائل ، يمدح ويهجو ، ولا سبب للمدح والهجاء إلا الحرمان والعطاء ؛ وأخذ ينتسب إلى عَبْس تارة ، وإلى ذُبْيان أخرى ، ويهجو اليوم من مدحه بالأمس .

وظل شعره فى الإسلام على ما كان عليه فى الجاهلية ، فيه أثر زهير وصنعته ومذهبه ، وفيه منه التميز الواضح . وكان الحطيئة كما علمنا راوية لزهير ولأبيه من بعده ، وعلى نمط حوليات زهير خرجت قصائد الحطيئة جزلة الألفاظ ، قوية التركيب ، محكمة النسج ، متجاوبة الخيال ، متساوقة العاطفة .

وبسبب تأثر الشاعر بزهير وصناعته فى الشعر ، وأنه كان يتخلل شعره ويصنعه ويصفيه ، ويصطفى الجيد وحده ، وأنه كان يعيش فى البادية بعيداً عن مكة والمدينة ؛ فقد ظل الحطيئة لا يخضع فى شعره إلا لهذه العوامل وحدها .

وكان الحطيئة فى الإسلام رقيق الدين ، إذ دخل فيه على كبر وطمع ، فظل كما كان يرخى لنفسه عنان الشهوة ، ويسرح فى الباطل أفراس الجهالة ، ويصول فى كل ميدان ، ويتهتم بالشعر من فوق كل غصن .

ولم يتغير شعره فى الإسلام عما كان عليه فى الجاهلية ، فى خصائصه الأصيلة ، سواء فى المضمون ، أم فى الصورة ، أم فى الشكل الفنى للقصيدة ، فاحتفظت قصائده بروعتها ورصانتها وجزالتها ، وبثت لها كل خصائصها .

ولذلك كان شعره في الجاهلية وفي الإسلام ينبع من معين واحد ، ويَنْزع عن قوس واحدة .

ويصفه ابن سلام الناقد المشهور في كتابه « طبقات الشعراء » بأنه متين الشعر ، شرود القافية ؛ ويقول فيه أبو الفرج الأصفهاني صاحب كتاب « الأغاني » : كان الحطيئة من فحول الشعراء ومقدميهم وفصحائهم ، وكان متصرفا في جميع فنون الشعر ، من المدح والهجاء والفخر والنسيب ، مجيداً في ذلك كله » .

ويقول فيه أبو عبيدة : ما نشاء أن نطعن في شعر شاعر إلا وجدنا فيه مطعنا ، إلا الحطيئة .

— ٢ —

وفي حركة الردة ارتد الحطيئة ، ثم عاد فأسلم ، وظل على الإسلام إلى آخر حياته طيلة عصر الخلفاء الراشدين ، وعصر معاوية .

وكان مرهوب الجناب ، يخشى الناس شره ، ويرهبون إن يقع فيهم الحطيئة بلسانه .

وقصته مع الزبرقان بن بدر تعطينا صورة عن الحطيئة ومكانته في المجتمع العربي آنذاك .

روى أن الزبرقان قدم على عمر بن الخطاب ، ومعه صدقات قومه ، فلقيه

الحطيئة بذرى من أرض اليمامة ، ومع الحطيئة ابناه : أوس وسودة ، وبناته وامرأته ؛ فقال له الزبرقان وقد عرفه ولم يعرفه الحطيئة : أين تريد ؟ قال : العراق فقد حطمتنا هذه السنة ، قال : وما تصنع بها ؟ قال : وددت أن أصادف رجلا يكفيني مئونة عيالي وأصفيه مدحي أبدا ، فقال الزبرقان : قد أصبته ، فهل لك فيه يوسعك لبنا وتمرا ، ويجاورك أحسن جوار وأكرمه ؟ فقال الحطيئة : هذا وأبيك العيش ، قال : قد أصبته عندي ، قال : ومن أنت ؟ قال : الزبرقان بن بدر قال : وأين محلك ؟ فدله عليه وكتب معه كتابا إلى أهله ليحسنوا إليه ؛ فلحق الحطيئة بمنزل الزبرقان ، ولقي الإكرام والإحسان وكان للزبرقان أبناء عمومة ينازعونه الشرف وهم بنو بغيض ، وكانوا من آل شماس ، ويلقبون بني أنف الناقة ، فاجتهدوا أنفسهم في تحويل الحطيئة إليهم ، ووعدوه ، ومنوه الأماني ، فلما احتاج آل الزبرقان لنجعة ، قالوا للحطيئة : هيا ، فقال لهم : تقدموا وأنا لاحق بكم ، ثم لحق ببغيض وقومه ، فبالغوا في إكرامه ، وأعطوه إبلا كثيرة وكسوة .

فلما قدم الزبرقان سأل عنه ، فأخبروه بقصته ؛ فذهب إلى نادي القوم وقال : ردوا علي جاري ، فقالوا : ما هو لك بجار ، وقد تركته بضيعة ، وكثر الجدل والحوار ، وانتهى الأمر بأن خيروا الحطيئة ، فاختار بغيضا وقومه ؛ فقال الزبرقان له : يا أبا مليكة ، أفارقت جواري عن ذم وسخط ؟ فقال : لا ، فتركه وانصرف ؛ ولكن لم يلبث الحطيئة أن نظم قصيدة يهجو فيها الزبرقان ، ويمدح بغيضا وقومه ، ويقول فيها ، يخاطب الزبرقان :

دَعِ المكارمَ لا ترحلْ لبغيتِها
واقعدْ فإنك أنت الطاعمُ الكاسي

من يفعل الخيرَ لا يعدمْ جوازيَهُ
لا يذهب العرف بين الله والناس

وفى هـــذه القصيدة استخدم الشاعر كل ملكاته الشعرية وموهبته التصويرية وموسيقاه وصنعته وفنه فى التجويد ، لإعطاء هذا الهجاء صورة ضخمة جليلة مؤثرة ، وقابل تناقض الزبرقان بفضائل بغيض وقومه ، وقابل الهجاء بالمدح ، وجعل القصيدة ذات أمثال كثيرة سائرة ، وأعطى الظنون ثوب الحقائق . . مما جعل للقصيدة تأثيرها الضخم ، ودويها فى كل مكان . وكان وقعها على الزبرقان شديداً ؛ فنيها حط لكرامته ، وسلب لمروءته ؛ ألم يقل له الشاعر : إقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى ؟ ألم يرمه بأنه ضعيف الهمة قليل المروءة ، لا مطمع له فى الحياة إلا أن يكون آكلا كاسيا ، فليس بأهل لرياسة أو شرف .

وذهب الزبرقان إلى الخليفة عمر ، فشكا إليه المطيئة ؛ وقال عمر للزبرقان : ماذا قال لك ؟ قال الزبرقان : قال الحطيئة :

دَعِ المكارمَ لا ترحلْ لبغيتِها
واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

فقال عمر : ما أسمع هجاءً ولكنها معاتبة ، وذلك على مذهب عمر فى درء الحدود بالشبهات . فرد عليه الزبرقان : أو ما تبلغ مروءتى إلا أن آكل وألبس ؟ فقال عمر : على بحسان وليد ؛ وجاء حسان وليد ، فعرض عمر

عليهما القضية ؛ فقال حسان : لم يهجه ولكن سلح عليه ، وقال لبيد : ما يسرنى أن لى حمر النعم وأنه قد قيل فى هذا البيت .

فأمر عمر بالحطيئة فحبس ، فأخذ يرسل الشعر ، ويقول القصائد ، يستعطف بها قلب عمر ، فاستدعاه الخليفة ، ولما مثل الشاعر بين يديه ، وأنشده :

أنت الإمام الذى من بعد صاحبه
ألقى إليك مقاليدَ النُّهى البَشَرُ

لم يؤثروكَ بها إذ قدَّموك لها
لكن لأنفسهم كانت بك الأثر

ماذا تقول لأفـــراخ بذى مرخ
زغب الحواصـــل لاماء ولا شجر

ألقيتَ كاسبهم فى قَعْرِ مُظلمة
فاغفر عليك ســـلام الله ياعمـــر

فدمعت عينا عمر ، واستتاب الحطيئة ، واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم ، وأطلق سراحه .

وعاد الحطيئة ، فنزل بنى بغيض ، فجمعوا له مائة بعير ، ودفعوها إليه مع راعيها ، فقال فيهم ، وكانوا يلقبون بنى « أنف الناقة » يعيرون بذلك ، فغلب هذا اللقب إلى مدح ، فقال :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم

ومن يسوّى بأنف الناقة الذنبا ؟

وقال فى مدحهم وهو يرحل عنهم :

لا يبعدِ اللهُ من يعطىَ الجزيلَ ومن

يحمِى الجليلَ وما أكدىَ ولا نكدا

ومن تُلاقيــه بالعروفِ مبتهجا

إن يعطِكَ اليوم لا يمنعْكَ ذاك غدا

— ٣ —

وظلت هدايا آل شماس قوم يفيض تقول عليه وظل شعره يسير فيهم ، ومن قصائده المشهورة فى مدحهم قصيدته التى يقول فيها :

أولئكَ قومٌ إن بَنَوْا أحسنوا البِنَا

وإن عاهدوا أوْفَوْا وإن عَقَدوا شدوا

وإن كانت النعماء فيهم جزَوْا بهــا

وإنْ أنعموا لا كدَّروا ولا كَدّوا

وإن قال مولاهم على جُــلّ حادث

من الدهر ردُّوا فضلَ أحلامهم رَدُّوا

مطاعين في الهيجا مكاشيف الدجى
بَنَى لهم آباؤهم وبنى الجـــدُ

يسوسون أحـــلاما بعيداً أناتها
وإن غضبوا جاءَ الحفيظة والجِدّ

أقِلّوا عليهم لا أبـــا لأبيكمو
من اللوم أو سُدّوا المكان الذى سدّوا

فعمدوا إليه على هذا المدح بجزيل الأموال .

ويعترف النقاد بأن هذه القصيدة التى قالها الحطيئة فى بنى بغيض من عيون الشعر العربى ، ومن روائع القصيد . ويقولون كذلك : فإنه ما زال الناس يفضلون قول الأعشى فى وصف نيران القرى :

تُشَبُّ لمقرورين يَصْطَلِيَانِها
وباتَ على النار الندى والمحلّقُ

حتى قال الحطيئة فى مدح بغيض :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره
تجدْ خيرَ نار عندها خيرُ موقِدِ

فأخل بيت الأعشى : وهذا البيت من قصيدة يقول فيها :

تزورُ فتى يُعطى على الحمد ماله
ومن يُعْطِ أثمانَ المكارمِ يَحْمَدِ
مفيدٌ ومِتْلافٌ إذا ما سألتَه
تهلّلَ واهتزَّ اهتزازَ المهنّدِ

— ٤ —

وإذا كان الحطيئة من أصفى الشعراء ديباجة، وأروعهم أسلوبا، وأجملهم صياغة، وأكثرهم تصرفا في الشعر، من المدح والهجاء، إلى الفخر والوصف.. فإن النقاد يعترفون له بهذه الموهبة الجليلة، وبهذه الشاعرية الأصيلة، حتى قال أبو عمرو بن العلاء فيه: إن أصدق بيت قالته العرب قول الحطيئة:

من يفعل الخير لا يَعْدَمْ جوازيَه
لا يذهبُ العُرْفُ بين الله والناس

فقيل له: فأين يذهب بك قول طرفة:

ستبدي لك الأيامُ ما كنت جاهلا
ويأتيك بالأخبار من لم تُزوِّدِ

فقال: من يأتيك بها ممن زودت أكثر، وليس بيت قالته الشعراء إلا فيه مطعن إلا قول الحطيئة هذا.

وقال حماد الراوية: ليس أحد بعد زهير أشعر من الحطيئة.

وإذا كان الحطيئة قد عاش حياته ، تتقاذفه الفلوات ، وتطويه المهامه ، وتنشره الفيافى ، يظعن من مكان إلى مكان ، حاملا متاعه ، وأولاده بين يديه ، ينتقل من حى إلى حى ، يعاشر قوما ثم يرحل عنهم إلى آخرين ، يمدح ثم يهجو ؛ اقتياعاً للرزق ، ومالياً للمال . . فلا بد أن يكون للمدح والهجاء نصيب كبير من شعره ، وأن يكون لهما من التأثير ما ليس لأكثر كلام الشعراء ، حتى كانت القبائـــل تخشى سطوة لسانه ، ومعرة بيانه ، فتحاموه حينا ، وتنافسوا فى إكرامه وإرضائه حينا آخر . ويروى أنه مر بعتيبة العجلى من عظماء بكر ، فرده وهو لا يعرفه ، فانصرف الحطيئة ، وفزع إلى عتيبة بعض قومه ، وقالوا له : عرضنا أنفسنا للشر ، هـــذا الحطيئة وهو هاجينا أخبث هجاء ، فقال : فردوه ، فردوه ، فقال له : لم كتمت نفسك كأنك كنت تطلب المال علينا ، اجلس فلك عندنا ما يسرك ، فجلس ، فقال له : من أشعر الناس ؟ قال الذى يقول :

ومن يجعل المعروف من دون عِرْضه
يَفِرْهُ ، ومن لا يَتَّقِ الشتمَ يُشْتَمِ

فقال له عتيبة : هـذا من مقدمات أمانيك ، وأكرمه غاية الإكرام ، وقال له وهو فى نادى قومه : هذا مقام العائذ بك من شرك وشرك ، فأنشد الحطيئة :

شَنَأتَ فلم تبخل ولم تعط طائلا
فسيَّانِ لاذمٌ عليكَ ولا حَمْـــد

ثم ركب فرسه وانطلق به فى الصحراء .

ووصف الحطيئة بارع دقيق التصوير ، واسع الخيال « يصف بخيلا نصب له شراكه ، واحتال عليه بشتى الحيل ، فلم يغن ذلك شيئاً ، فيقول :

كدحتُ بأظفارى وأهملتُ مِعْوَلى
فصادفت جُلْمُودا من الصخر أملسا

تشاغلَ لما جئتُ فى وجه حاجتى
وأطرق حتى قلتَ قدمات أوعسى

وأجمعت أن أنساه حين رأيته
يَفوق فوّاق الموت حتى تنفسا

وقلت له لا بأسَ لستَ بعائدٍ
فأفرخَ تعْلُوه السماديرُ مليَسَا

وهى صورة طريفة تصرف فيها بخياله أحذق تصرف وأبدعه :

ومن روائع وصف الحطيئة ، وسائر قصائده ، التى تجمع إشراق الديباجة وتأنق التصوير وسعة الخيال ودقة الوصف ، وفيها روح القصة وحوارها ومضامينها ، قصيدته . « وطاوى ثلاث » التى يقول فيها :

وطاوى ثلاث عاصب البطن مرمل
ببيداءَ لم يعرف بها ساكن رسما

رأى شَبحًا وسْطَ الظلام فراعه

فلما رأى ضيفا تَشَمَّر واهْتَمّا

وقال : هيَا رُبّاه ضيفٌ ولا قِرَى

بحقك لا تحرمْه تا الليلةَ اللحما

فقال ابنه لما رآه بحيرة

أيا أبتى اذبحْنى ويَسِّرْ له طعْما

ولا تعتذرْ بالعدْم علَّ الذى طرَا

يظنُّ لنا مالا فيوسعُنا ذما

وهى غنية بعناصر الجمال والإبداع والتجديد .

وللحطيئة فى الحكمة مجال كبير ، وأبياته :

ولست أرى السعادةَ جمعَ مال

ولكنَّ التقىْ هو السعيدُ

وتقوى الله خيرُ الزادِ ذخرا

وعندَ اللهِ للأتقىَ مزيد

وما لابدَّ أن يأتى قريب

ولكن الذى يمضى بعيدُ

ولها شهرتها عند الناس والنقاد .

— ٥ —

وبعد : فإن الشعر كانت له فى نفس الحطيئة منزلة رفيعة ، كانت حياته كلها خالصة للشعر ، وذوقه ووجدانه كانا وقفا على الشعر ، وتفكيره دائما كان فيه ، حتى وهو فى الرمق الأخير ، حتى ليروى أنه لما حضرته الوفاة اجتمع إليه قومه ، وقالوا له : اوص ، فقال : ويل الشعر من زاوية السوء ، قالوا أوص رحمك الله .

قال : أبلغوا الشماخ شاعر غطفان أنه أشعر العرب فى وصفه لسهم ، قالوا : ويحك ، أوص بما ينفعك .

قال : أبلغوا أهل ضابئ الشاعر أنه شاعر حيث يقول :

لكل جديد لذة غير أننى
وجدتُ جديدَ الموتِ غير لذيذ

قالوا : أوص ، ويحك بما ينفعك ، قال بلغوا أهل امرئ القيس أنه أشعر العرب فى وصف الليل .

قالوا : اتق الله ودع عنك هذا ، قال : أبلغوا الأنصار أن صاحبهم حسانا أشعر العرب حيث يقول :

يُغْشَوْنَ حتى ما تَهِرُّ كلابهم
لا يسألون عن السواد المقبل

قالوا : قل غير ما أنت فيه .

قال : الشعرُ صعبٌ وطويلٌ سلمهْ

إذا ارتقىَ فيه الذى لا يعلمُهْ

زلت به إلى الحضيض قدمُه

يريدُ أن يُعربَهُ فيعجمُه

ومات الحطيئة ، وكان ذلك آخر حياته ، رحمه ؟

خاتمة هذا البحث

١ — لا تزال دراسة الشعر الجاهلى قديمة تقليدية لا أثر للبحث والتجديد فيها ؛ ولا يزال فهمنا للشعر الجاهلى فهما سطحيا عتيقا ، ومناهج البحث الأدبى عندنا مناهج بدائية بالية .

وكانت أول ثورة فى تاريخ البحث الأدبى فى الشعر الجاهلى ظهور كتاب « الأدب الجاهلى » للدكتور طه حسين الذى جعله وقفا على دراسة نظرية انتحال الشعر الجاهلى وبواعثها ومظاهرها عند الشعراء الجاهليين .

وقد ألفت كتب كثيرة فى الدفاع عن الشعر الجاهلى ؛ من أهمها : الشهاب الراصد للأستاذ محمد لطفى جمعه المحامى وقد طبعه عام ١٩٢٦ م ، وكتاب « النقد التحليل لكتاب الأدب الجاهلى » تأليف الأستاذ محمد أحمد الغمراوى ، ونقض كتاب الأدب الجاهلى للأستاذ الكبير الشيخ الخضر حسين ، ونقض مطاعن فى القرآن الكريم للأستاذ الكبير الشيخ محمد عرفة ، ونقد الأدب الجاهلى للخضرى . . . وبحث نظرية الدكتور طه ودراستها مفصل فى كتابى « الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى » .

٢ — وهذه البحوث التى تضمنها كتابى هذا : « موقف النقاد من الشعر الجاهلى » خطوة ثانية فى البحث الأدبى عن هذا العصر البعيد ، وتمهيد يثير السبيل فى دراسة الشعر الجاهلى والكشف عما أحاط به من عوامل

ومؤثرات ؛ وتلك الموازنات الأدبية التى سبق عرضها هى الأولى من نوعها فى دراسة كبريات القصائد الجاهلية ومدى ما فيها من تجديد أو تقليد .

ومن الله أستمد العون والتوفيق والسداد ؛ وهو ولى نعم المولى ونعم النصير ؟

د٠ محمد عبد المنعم خفاجى

فهرست الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة الكتاب	٣
الكلمة الأولى	٥
الفصل الأول	٦ — ٤٢
آراء علماء الأدب فى الشعر الجاهلى	٧
الشعر الجاهلى بين التجديد والتقليد	٢٣
الطبع والصنعة فى الشعر الجاهلى	٢٩
دفاع عن الشعر الجاهلى	٣٣
الفصل الثانى	٤٣ — ٩١
موازنة بين قصيدتين من عيون الشعر الجاهلى	٤٣
الحكومة الأدبية بين قصيدتى علقمة وامرئ القيس	٥٢
رواية الشعر ورواته	٧٦
المعلقات عمل فنى عظيم فى العصر الجاهلى	٨٧
الفصل الثالث	٩٢ — ١١٥
نظرية الانتحال فى الشعر الجاهلى	
الفصل الرابع	١١٦ — ١٤٥
دور من الأدب الجاهلى ونقدها	١١٧
الصورة الأولى : امرؤ القيس يصف الليل	١١٧
الصورة الثانية : ألوان من النثر الجاهلى	١٢٧

الموضوع	الصفحة
الفصل الخامس	١٤٦ — ١٥٢
الشاعر المصور	١٤٦
الفصل السادس	١٥٣ — ١٦٨
شاعر الحرب والنزال	١٥٥
الفصل السابع	١٦٩ — ١٨٠
شاعر المجد العربى	١٦٩
الفصل الثامن	١٨١ — ٢٠٠
شاعر الحكمة	١٨١
الفصل التاسع	٢٠١ — ٢١٤
ذات الشباب	٢٠١
الفصل العاشر	٢١٥ — ٢٢٨
امرؤ القيس	٢١٥
الفصل الحادى عشر	٢٢٩ — ٢٤٠
النابغة	٢٢٩
الفصل الثانى عشر	٢٤١
زهير	

الموضوع	الصفحة
الفصل الثالث عشر	٢٥٥ — ٢٨٢
طرفة : الشاعر الشاب	
الفصل الرابع عشر	٢٨٣ — ٢٩٨
الخطيئة الشاعر	٢٨٥
خاتمة البحث	٢٩٩

انتهى الكتاب بحمد اللـه وعونه

رقم الايداع بدار الكتب ٤٦٥٣ لسنة ١٩٨٨
ترقيم دولى ١ ـ ٠٦٩٣ ـ ٠٥ ـ ٩٧٧

مطبعـة حسـان
٢٤١ (أ) ش الجيش
☎ : ٩٣٥٥٤٠